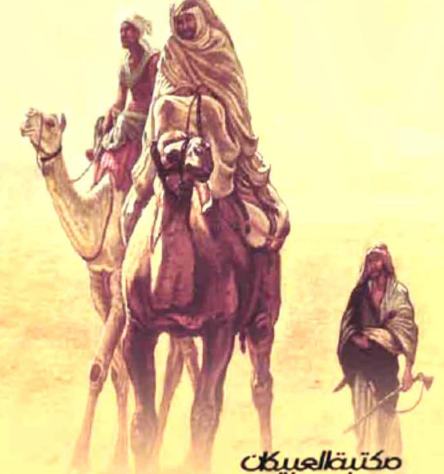
عبر أراضي الوهابية

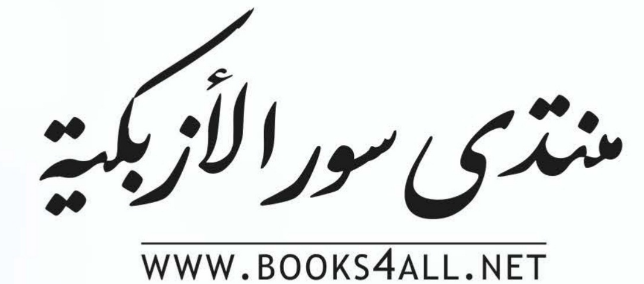
على ظهر جمل

تأليف
باركلي رونكيير

نقله من الانجليزية إلى العربية
منصور محمد الخريجي




مكتبة العبيكان


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET


عبر الأراضي الوهابية
على ظهر جمل



باركلي رونكيير



تأليف

بار كلي رونكيير

نقله من الإنجليزية إلى العربية

منصور محمد الخريجي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رونكيير، باركلي

عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل. باركلي رونكيير؛

منصور الخريجي .- الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٣٨ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٣-٣٠٣-٤٠-٩٩٦٠

١- الجزيرة العربية - وصف ورحلات أ. الخريجي، منصور بن محمد (مترجم)

ب- العنوان

ديوي ٩٥١,٣٠٠١٠٤ ١٤٢/٨٩١

ردمك: ٣-٣٠٣-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢/٨٩١

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفهرس ٧
شكر ٩
مقدمة الطبعة الثانية ١١
المقدمة ١٣
مقدمة مترجم الكتاب إلى اللغة الإنكليزية ٢٣
تمهيد المؤلف ٤١
مقدمة المؤلف ٤٣
(١) من البصرة إلى الزبير والكويت ٤٧
(٢) الكويت ٦٢
(٣) التحضير للرحلة ٨٦
(٤) من الكويت إلى اللصافة ٩٣
(٥) من اللصافة إلى الزلفي وبريدة ١٢٢
(٦) من بريدة إلى الرياض ١٤٨
(٧) من الرياض إلى الهفوف والعقير ١٨٢
ملاحظات دونها الرحالة أثناء الرحلة ٢١١
التضاريس ٢١١
السكان ٢٢٠
الوضع السياسي ٢٢٧
خريطة لشرق ووسط الجزيرة العربية ٢٣٩

شكر

لا يفوتني أن أعبرِّ عن امتناني وتقديري للإخوة العاملين في إدارة الطبع والنشر في مكتبة العبيكان لما أبدوه من صبر وأناة ومساعدة كريمة إلى أن ظهر هذا الكتاب للوجود.

أما الشكر الأخير والخاص فهو لزوجتي "أم نزار" التي ما فتئت منذ اقتراني بها تعينني على الخير وتشدُّ من أزري وتقف معي في كل أمر جميل أتصدّى له..

المترجم

مقدمة الطبعة الثانية

عندما قمت بترجمة كتاب باركلي رونكيير **عبر الاراضي الوهابية على ظهر جمل** ونشرته عام ١٤١٩هـ رأيت ان اغير عنوانه إلى **عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل**، وهاأنذا أعيد طبع الكتاب للمرة الثانية مبقياً عنوانه الأصلي الذي وضعه مؤلفه؛ إذ لم أعد أرى داعياً لتغيير العنوان الذي صدر به الكتاب، ربما لأنني بعد بعض القراءات التي قمت بها منذ صدور طبعته الاولى وجدت انه لا داعي لتغيير العنوان؛ لأن كلمة (الوهابية) التي اختار بعض مهاجمي الحركة الإصلاحية الوهابية أن يجعلوا منها تهمة، ربما عن جهل بمضامينها واهدافها، او سوء قصد، هذه الحركة اصبحت فيما بعد -حتى لمنتقديها- واضحة الأهداف بينة المقاصد، واستطاعت ان تحتل مكانها في سجل الحركات الإصلاحية التاريخية التي ساهمت في خير البشرية وسعادة الإنسان.

لم تكن كما ادعى مهاجموها -عن جهل أو سوء قصد- مذهباً خامساً، ولم تكن خروجاً عن الإسلام الصحيح النقي، بل جاءت في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة إلى من يخرجهم من ظلمات الجاهلية الجديدة التي انغمسوا فيها بعد أن ضيعوا العقيدة الإسلامية الصافية، ودخلوا في متاهات الشرك التي كان اسلافهم قبل مجيء الإسلام يتخبطون فيها.

وحيث إن هذا الكتاب هو ترجمة للنص الأصلي فلم يكن هناك مجال لإجراء تغييرات كبيرة، وكل الذي قمت به هو تصحيح لبعض

الكلمات، وتغيير لبعض التعابير، إضافة إلى تصحيح أسماء بعض الأشخاص والأماكن التي ورد ذكرها في الكتاب، والتي تفضل بعض الإخوان الكرام الذين قرؤوا الكتاب أو كتبوا عنه في لفت انتباهي إليها، واخص منهم الأخ الدكتور عبدالله العثيمين.

آملاً أن أكون قد وفقت في هذه الطبعة الثانية إلى تلافي القصور الذي جاء في طبعته الأولى.

والله من وراء القصد،،،

منصور محمد الخريجي

المقدمة

لقد اختلف الدارسون والعلماء حول استعمال كلمة "الوهابية" وهي نسبة إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- الذي قام بحركته الإصلاحية الدينية في الجزيرة العربية بمعاونة ودعم الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية آنذاك، وكان ذلك في بدايات النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري. يرى بعض الدارسين ان كلمة الوهابية لاتختلف كثيراً عن كلمة الحنبلية مثلاً نسبة إلى أحمد ابن حنبل أو الشافعية أوالحنفية، لكن الفرق في التسمية هنا ان كلمة الوهابية اطلقت على دعوة الشيخ ابن عبدالوهاب وكأنما هي سبَّةٌ أوذمة. وقد اختلفت الآراء فيمن اطلقها في البداية هل هم معارضوه من الداخل الذين كانوا غارقين في الجهالة والضلالة لدرجة لم يكن قد بقي من إسلامهم الصحيح شيء، أو إن التسمية جاءت من خارج الجزيرة ممن سمعوا بالدعوة ولم يعرفوا عنها الكثير واتهموها وصاحبها بتهم وصلت حد التكفير من بعضهم؛ كقولهم إنه ينكر القرآن والسنة النبوية وغير ذلك من التقول. يقول الدكتور عبدالله الصالح العثيمين في كتابه: **الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره**: "من المعروف ان الغرض من إطلاق المعارضين تلك التسمية هو تنفير الناس من دعوة الشيخ. وهو بتعبير آخر اتهامه بأنه يدعو إلى دين جديد أو مذهب خامس، كما يقولون أحياناً. وبالرغم من ان كثيراً من الناس في مشارق الأرض ومغاربها أصبحوا على علم بحقيقة ما يدعو إليه الشيخ محمد، فإن الصفة التي اطلقها خصومه على اتباعه وعقيدته ما زالت شائعة الاستعمال من قبل كثير من الكتاب في الأقطار المختلفة".

لم يات الشيخ محمد بن عبدالوهاب بمذهب جديد ولم يضف إلى الإسلام الصافي شيئاً لم يكن موجوداً فيه بل هو نشا في مجتمع كان قد اضاع العقيدة الصحيحة، وادخل عليها طقوساً وخرافات ليست من الإسلام. وقد سهل الله للشيخ دراسة الإسلام الصحيح على بعض رجال الدين الذين كانوا لا يزالون متمسكين بالدين الصحيح في الجزيرة العربية وخارجها. وعندما عاد واستقر بالدرعية رحب به اميرها محمد بن سعود وابتدا يدعو الناس إلى نبذ الخرافات وتطبيق الدين الصحيح وتخليصه مما علق به من شوائب. يقول عثمان بن بشر عن الوعي الديني قبل أن يبدأ ابن عبدالوهاب دعوته: "وكان الشرك آنذاك قد فشا في نجد وغيرها وكثر الاعتقاد في الاشجار والاحجار والقبور والبناء عليها والتبرك بها والنذر لها والاستعاذة بالجن والذبح لهم ووضع الطعام لهم وجعله لهم في زوايا البيوت؛ لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم والحلف بغير الله. وغير ذلك من الشرك الاكبر والأصغر"[1].

ويبدو أن ماحصل في نجد من ضياع للعقيدة الصافية حصل مثله في انحاء أخرى من الجزيرة العربية والبلاد العربية والإسلامية عموماً، إذ يقول الشيخ حسين بن غنام في كتابه تاريخ نجد: "كان أكثر المسلمين – في مطلع القرن الثاني عشر الهجري- قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا إلى الجاهلية وانطفأ في نفوسهم نور الهدى، لغلبة الجهل عليهم، واستعلاء ذوي الأهواء والضلال . فنبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلالة، وقد

(١) عثمان بن بشر النجدي الحنبلي :عنوان المجد في تاريخ نجد ص٦٠، مكتبة الرياض الحديثة.الرياض .

ظنوا أن آباءهم أدرى بالحق وأعلم بطريق الصواب". [1] ويسوق الشيخ الغنام أمثلة لما أصبح عليه حال المسلمين في ذلك الوقت من جهالة وضلال ويعطينا أمثلة عديدة من داخل الجزيرة العربية وخارجها. يقول في مكان آخر: "لقد حدث الغي والضلال والتغيير في الدين منذ زمن قديم، ثم تعاقبت العصور وتوالت السنون والغي يزداد، والضلال ينتشر، حتى جاء من ظن ان الدين هو ذلك الضلال والإسراف؛ لأنهم وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم". [2]

لاشك ان نجداً قبل محمد بن عبدالوهاب كانت غارقة في الجهل والضلال، وإن الإسلام في تلك الأيام كان قد شابه كثير من الأباطيل الدخيلة التي لم تكن منه في شيء. وفي الواقع نقرأ في تاريخ ابن بشر ان أهل نجد بعد ان قويت شوكتهم أيام الأمير محمد بن سعود وابنه عبدالعزيز وصُفّيت عقيدتهم مما خالطها من شوائب، وعرفوا الإسلام الصحيح صاروا يطلقون على انفسهم أحياناً "المسلمون" وهي تسمية نراها غريبة الآن ولكنها ربما لم تكن تستغرب آنذاك إذا قورنوا بالآخرين الذين دخلوا في الشركين الأصغر والأكبر. هناك طبعاً أسماء أخرى أطلقوها على أنفسهم مثل: "الموحدون" أو "جماعة الدعوة" وكل تلك التسميات تعكس الوضع الذي كان عليه إسلام الآخرين.

ولا يستغرب ان اي دعوة تصحيحية كانت او جديدة تقابل في بادئ الأمر بالرفض والمقاومة؛ لأن الناس جبلوا على إنكار ما يجهلونه.

---

(١) تاريخ نجد: للشيخ الإمام حسين بن غنام. تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد دار الشروق. ص١٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٤.

ولم يحتج المستشرقون والرحالة جهداً كبيراً لينضموا مع المناوئين لحركة ابن عبدالوهاب التصحيحية دون ان يعرفوا عنها بالضرورة ما يكفي لإصدار حكم صحيح. وهذا رحالتنا ينضم إلى الآخرين ولا يقصر في وصف من يراهم من المسلمين الملتزمين باوصاف قاسية مقللاً من شانهم وقيمتهم . وهو دون شك لم يقرأ عن الوهابية واهدافها ما يؤهله لإصدار حكم صحيح. وقد اختار ان يعطي كتابه عنوان "**رحلة عبر الارض الوهابية**" إمعانا في الإثارة وجذب انتباه القارئ.

ويحكي لنا تاريخ الرحالة عموماً انهم لا يتورعون احياناً ان يضفوا على رحلاتهم واسفارهم الشيء الكثيرمن الخيال مما يثير دهشة القارئ وتعجبه . ولم يتردد بعضهم في استخدام مخيلاتهم في اختراع اعاجيب وغرائب لم يكن لها وجود إلا في رؤوسهم. كما انهم، أو بعضهم على الأقل يلجؤون إلى تمجيد انفسهم، والمبالغة في كل ما قاموا به وقاسوه وما مر بهم من اهوال قد لا تكون حدثت. وعندما يتعلق الأمر ببدو من الصحراء فإن نغمة التعالي تكون هي السائدة أغلب الاحيان طبعاً، ويصورونهم دائماً انهم قوم شديدو التاخر والجهل حتى عندما يتعلق الأمر بشان من شؤون حياة البدو التي برعوا فيها مثل: استعدادهم لمواجهة عدو، وكيفية استخدام البندقية إلخ.. وهذا كاتبنا رونكيير يصف كيف ان زملاءه في الرحلة فقدوا صوابهم، واختلطت عليهم الأمور عند أول موقف صعب، فلم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون اوكيف يتصرفون: "اندفع واحد من الرجال ببندقيته ولكن دون ذخيرة وركض آخر بذخيرته دون بندقية!" . وفي مكان آخر من

كتابه يقول عن عبدالعزيز احد مرافقيه: "كان سلاحه يتكون من بندقية وخنجر ومسدس لا يعرف طبعاً كيف يستعمله. اعرت بندقيتي إلى عجمي، البدوي الآخر الذي يرافقني؛ وهكذا سلّمت كل ما معي من سلاح إلى اناس لم تكن لديهم ادنى فكرة عن كيفية استعمالها. هكذا تركت المتحمسين للحرب ينطلقون بينما جلست أتناول الغداء متأخراً."

وهذا رحالة آخر هو البارون ادوارد نولده، الذي قام برحلة إلى نجد عام ١٨٩٣م-١٣١٠هـ . أدوارد نولده هذا يصور لنا نفسه ليس كرحالة بل كرئيس دولة يتجول في مملكته والجميع يركضون بين يديه ويقدمون له فروض الطاعة والولاء . كان ما يخصه من القافلة وحده هو: "٣٦ رجلاً في الخدمة و٤٠ جملاً و٦ خيول وعدد مختلف من البغال والحمير يضاف إلى ذلك الحراسة التي تتكون من ٢٦رجلاً ومعهم امتعتهم محمولة على ٢٥جملاً، وكانوا يشكلون قافلة وحدهم"[1] .

أما عندما ينصب الرحالة مخيمه فهو يذكر أن الأتباع ينصبون له وحده ثماني خيام، ولباقي المعسكر كله ست خيام ! ويصف طعامه: "كان الأكل يتكون في الأساس قبل كل شيء من حساء من الدرجة الأولى لي وحدي، ويتكون من ثلاث دجاجات وبعض لحم الضان المشوي ثم بيض وارز ثم بسكويت مع النبيذ والقهوة"[2]. ويخبرنا

---

(١) سلسلة رحلات في بلاد العرب(٢) الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر «نص رحلة البارون أدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام ١٨٩٣ / ١٣١٠هـ» ص -١٨، ترجمة: عوض البادي.

(٢) المصدر السابق، ص١٨.

نولده أن حاكم الجوف الذي أبى عليه في البداية الدخول إلى بلدته لم يتورع عندما دخل عليه الرحالة من تقبيل يده ! "كان جوهر يقف خلف البوابة تماماً في انتظار دخولي وعندما دخلت أقفلت البوابة على الفور، وكان جوهر محاطاً برجاله ذوي الأهمية وفي عصبية ظاهرة قبل جوهر يدي . ." (١)

على الرغم من أن هذه الرحلات تصور لنا أماكن وأزمنة لم نكن لنحصل عليها دون مغامرات أولئك الرجال وتعبهم إلا ان ما يؤخذ عليهم هو -كما ذكرت- تمجيد انفسهم وكبرياؤهم ثم نظرة الاستعلاء التي ينظرون بها إلى الأشخاص الذين ساعدوهم وذللوا لهم الطرق والمخاطر والذين ربما لم يكونوا ليترددوا أن يفدوهم بأنفسهم لو تعرضوا لخطر وهم في حمايتهم أو تحت حراستهم. إذ من المعروف ان كل الرحالة الذين عبرو صحاري الجزيرة كان يرافقهم ادلأء من سكان المناطق التي زاروها، وأولئك الأدلاء والحراس هم الذين مكنوهم من تحقيق إنجازاتهم.

وعلى أي حال فنحن يهمنا في هذا المجال ما قاله الرحالة عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ ومعظمهم كما ذكرت لا يعطون انفسهم المجال لفهم ما يتصدون للكتابة عنه، إنما يتناقلون ما سمعوه من هنا وهناك. كما أن أغلب آرائهم تميل إلى رفض دعوة الشيخ لأن هذا كان السائد آنذاك خارج الجزيرة العربية . والرحالة الذي يبحث عن الإثارة وعن الغريب والمغامرة ليس باحثاً بالضرورة ولا يهمه

---

(١) المصدر السابق ص ـ ٥٠ .

الوقوف على الحقيقة. أسوق هنا ماقاله نولده عن دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب: "الوهابيون يقبلون فقط بالقرآن، وهم لا يرفضون التفاسير السائدة فحسب، بل يمقتونها على أن لا أساس لها وأنها غطرسة وقحة، وتوسيع لحقائق الوحي الموجود في القرآن بادعاء أنها تفسير له، وتطوير لأحاديث وكلمات وأفعال الرسول. وهذه التفاسير -حسب وجهة نظر الوهابيين- هي تغيير إلى درجة التزوير في أصل الدين ... والوهابيون يعلنون أن أي شيء لم يرد به نص في القرآن، وحتى لوكان أمراً مسلماً به من قبل أهل السنة أو حتى الشيعة كقوانين أو قواعد دينية هو مقت شائن ضد الدين الحقيقي، وإن المختلقين لمثل تلك البدع المقيتة هم مزورون وقحون، ومعارضون للدين الحقيقي الوحيد، ولذلك يتوجب أن ينظر إليهم بنفس الطريقة التي ينظر بها إلى أسوأ الوثنيين."(١)

الذي أود أن أعيد تأكيده هنا هو أن الرحالة والمستشرقين عموماً يفدون إلى البلاد التي يريدون اكتشافها أو دراسة أهلها وثقافتهم وحضارتهم ومعتقداتهم، ويكون أغلبهم قد تشبعوا بآراء وأفكار قد حسبوها حقائق، أخذوها عن أشخاص أوكتب أو عرفوا بها بطريقة ما دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث المتجرد. ولم يشذ السيد رونكيير عن هذه القاعدة فهو قدم إلى الجزيرة العربية ولديه أفكارٌ وآراء عن العرب عموماً وديانتهم، والوهابية بصفة خاصة ولا مجال لتغييرها: "كل يوم يمر كنت أجد حياة القافلة أقل متعة من سابقه. كما أن التعامل مع العرب أصبح أكثر صعوبة حيث يزداد تطرفهم الديني

(١) المصدر السابق ص-٦٦

اشتعالاً كلما اقتربوا من نجد أكثر فأكثر". مع انه قال في مكان آخر من كتابه عن المطوع الذي رافق القافلة من ثادق إلى الرياض: إنه كان يؤذن للصلاة ولا أحد من أفراد القافلة يعيره أي انتباه مع أنهم كانوا كثرة. وفي مكان آخر يرسم صورة كاركاتيرية للرجل الذي كلفه أمير عنيزة بمرافقتهم إلى الرياض: إن هذا الرجل الذي أوكلت إليه مهمة مراقبتنا منذ حين وصولنا كان وهابياً كئيباً متزمتاً زاد من تجهمه الكحل الأسود الذي كان يصبغ به دائماً عينيه وحواجبه. إنه يمد الكحل خارج عينيه لدرجة أن جفونه تبدو وكأنها متصلة باذنيه".

لا شك أنه كانت هناك مفاجاة سارة تنتظر رونكيير في الرياض عاصمة الوهابيين التي كان قلبه يتسارع في دقاته العنيفة قبل الوصول إليها والتعامل مع حكامها! كان يتوقع الأسوا، والأسوا هو ما كان قطع به حتى قبل أن يبدأ رحلته. لم ينتظر كي يكوّن رأياً مستقلاً عن حاكم الرياض بعد أن يقابله، ولكنه اختار الطريق الأسهل وهو تبني آراء سمعها أو قرأها دون التأكد من صدقها. لنقرأ هنا ما يقوله وهو ذاهب ليقابل الإمام عبدالرحمن الفيصل: "أبلغوني انني سوف اقابل الإمام عصر هذا اليوم، لم يكن ذلك عبدالعزيز الذي خرج فعلاً لغزو عرب عتيبه، ولكنه والده عبدالرحمن. اتخذت كل الاحتياطات الضرورية لحماية كلب كافر حل في تلك المدينة شديدة التطرف". وهذا ما خرج به عن الإمام بعد أن قابله: "إن عبدالرحمن شيخ عظيم الوسامة يحمل مظهره الكلي روح المغامرة ونبل الفخامة ويوحي للناظر إليه أنه بطل قصة حقيقية من قصص ألف ليلة وليلة. إنه لطيف ولكنه جاد ووقور له عينا صقر ولحيته بيضاء".

إن سماع آراء أو قراءة وجهات نظر معينة وتبنيها دون مجهود ذاتي للتاكد من صحتها هو عمل سيئ، ولكن الأسوأ منه هو الثبات عليه بعد أن تتاح الفرصة للمتلقي تكوين رأيه المستقل. لم يمكث رونكيير بالرياض على اي حال وقتاً كافياً يدرس فيه البلد واهله، وعلى الرغم من الانطباع الطيب الذي خرج به بعد لقائه بالإمام عبدالرحمن إلا انه بقي متمسكاً بآراء وافكار جلبها معه قبل ان ياتي إلى الجزيرة العربية. لقد ختم كتابه بملاحظات عن بعض مظاهر الجزيرة الجغرافية ثم تحدث عن سكانها وعدد بعض القبائل التي تقطنها ثم اعطى حكمه القاطع بمستقبلها السياسي على الشكل الآتي: "إن ولايات المنطقة وقد دغدغها الشعور بالفخر لما حصلت عليه من سلطة وقوة وما اصبحت تتمتع به من حرية عزيزة المنال، إضافة إلى روابط الصداقة التي تربطها بقوة كبرى وراء البحار والتي تعطي ثمارها بتلقي النصائح القيمة واحياناً العطايا والهدايا الأخوية، هذه الولايات المتحدة تنحدر الآن بهدوء نحو المرحلة الأخيرة من مراحل نموها، الا وهي ذوبانها واختفاؤها. ومع ذلك فإن هذا المجتمع سوف يؤدي دوره في تطور المدنية ولو بطريقة غير مباشرة ودون أن يقصد ذلك؛ إذ هو مثل الفراشة التي تطير نحو النور تحرق نفسها لتعطي الشمعة نوراً أسطع.

إنني اعلن بكل صدق ان السياسة الرحيمة التي تستطيع ان تخضع هذه الشعوب الفخورة بنفسها والمتمسكة بمعتقداتها بأقل قدر من الصدام وبمهارة حازمة، هذه السياسة لا يمكن إلا ان تملأ المتابع لها باعلى درجات الإعجاب" .

لقد جاء رونكيير إلى الجزيرة العربية وعاش اشهراً مع مجموعات من سكانها وقابل امراءها الذين استضافوه واكرموه وشملوه برعايتهم وحمايتهم، ومع ذلك رحل وهو يرى أن أهل الجزيرة ليسوا جديرين أن يحكموا انفسهم أو يستقلوا ببلادهم!

منصور محمد الخريجي

مقدمة مترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية

جيرالد دي جوري[١]

كتب تي. أي. لورانس في مقدمته لكتاب **جزيرة العرب السعيدة** الذي كتبه برترام توماس يقول: "إن الكتب التي تقرأ عن الصحراء العربية كلها باللغة الإنجليزية إلا كتاباً واحداً... إن الصحراء العربية اغنت أو نظفت قلم دوتي، اما كتب بالجريف وبيركهاردت وبلنت فقد ساعدت رونكيير في رحلته للكويت، كما ساعدت بيرتون و وافيل في حجهما، وساعدت بري عندما وجد نفسه بين أكواخ اليمنيين التي أحرقتها الشمس الحارة".

ممن أشاروا إلى رونكيير ايضاً كان السيد ارنولد ولسون في كتابه **الخليج الفارسي** الذي ظهر في عام ١٩٢٨، وكان ذلك في مجال حديثه عن الكويت. قال السيد أرنولد: "إن المصدر الوحيد غير الرسمي لمعلوماتي عن الكويت جاء من ستوكلر وبيلي والرحالة الدانمركي رونكيير ثم لوفات فريزر".

وحيث إن المكتبات لم تستطع ان تجد لكتاب رونكيير اي ترجمة للغة الإنجليزية كما إنه لم يذكر في فهارس مكتبة دار الآثار البريطانية فإن مدح لورانس للكتاب على انه احسن ما كتب عن الجزيرة العربية لا يزال سراً إذ إن لورانس لم يكن يعرف اللغة الدانمركية.

كنت في الكويت بين الحربين العالميتين وسألني زائر عربي عن رونكيير، أو هكذا سمعت الاسم لان العربي لم يحسن نطقه. أعتقد أن الزائر العربي كان هلال المطيري وهذا الاعتقاد منطقي لأن رونكيير كان

---

(١) حذفت من مقدمة دي جوري بعض المواد التي لم أرها ضرورية لمادة الكتاب.

مهتماً بصيد اللؤلؤ وكان هلال المطيري في عام ١٩١٢ واحداً من رواده. لقد وصل هلال إلى الكويت كصبي بدوي معدم ولكنه نجح في صناعة اللؤلؤ حتى إنه أصبح ذات يوم مليونيراً يملك عدة سفن لصيد اللؤلؤ. وقد ساعدته بنيته على ذلك حيث إنه كان مثل ابن سعود يزيد طوله على الستة اقدام وقوي البنية.

وهكذا فعندما ذكر لي رونكيير بحثت عن ذكر له في ملفات الوكالة البريطانية في الكويت. لكن كانت معظم السجلات قد ابيدت بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى ولم اجد ذكراً لرونكيير فيما تبقى من سجلات. كما لم اجد احداً يذكر الزائر الدانمركي الذي مر على البلاد منذ خمس وعشرين سنة ماضية.

وهكذا فعندما وقعت بالصدفة على كتيب صغير باللغة الإنجليزية اصفرت أوراقه وكان ذات يوم في حوزة دوجلاس كاروثرز وهو رحالة وكاتب مرموق وعنوان الكتاب **عبر ارض الوهابيين على ظهر جمل** بقلم باركلي رونكيير، وقد طبع طبعة خاصة في عام ١٩١٦م بواسطة المكتب العربي بالقاهرة وللاستخدام الرسمي، اتضح لي عندها سر مدح لورانس للكتاب. لقد حصل لورانس على نسخة من الكتاب من المكتب العربي بالقاهرة.

كانت المدة التي سمح لي فيها باستعارة الكتاب قصيرة ولكن لحسن الحظ حصلت على نسخة اخرى لأنه اتضح لي من عنوان الكتاب ان رحلة رونكيير كانت بتشجيع ودعم الجمعية الجغرافية الملكية الدانمركية في عام ١٩١٢م. وقد امّلت ان اجد العون من تلك الجمعية، وفعلاً حصلت على المساعدة التي طلبتها. لقد أرسلت لي الجمعية مشكورةً نسخة من

النسخ القليلة الباقية من الكتاب بواسطة الأستاذ نيلس نيلسون. ولم يتضح بعد كيف ترجم الكتاب إلى الإنجليزية اثناء الحرب العظمى الأولى. تقول ملاحظة جاءت في طبعة القاهرة: "إن هذه الترجمة التي جاءت على عجل اعيدت مراجعتها في القاهرة لكنها لم تقارن مع النص الأصلي". وعلى ظهر الغلاف وضع الرقم الذي استخدمته مطبعة الحكومة والسنة ١٩١٦م، وكذلك عدد النسخ المطبوعة وهو مائة فقط. كان دوجلاس كاروثرز في ذلك الوقت امين سر فخرياً للجمعية الجغرافية الملكية في لندن وقد تسلم نسخة من الطبعة الدانمركية أرسلت مع تحيات المؤلف.

ولقد ظهرت مقالة عن الكتاب في عام ١٩١٤م. وهكذا يتضح ان المبادرة لترجمة الكتاب وإرساله للقاهرة جاءت من دوجلاس كاروثرز وإنه لم يكن الكتاب الوحيد الذي ارسله إلى المكتب العربي بالقاهرة.

ما سبق يوضح إذن وضع كتاب رونكيير الذي نشر في كونبهاجن في عام ١٩١٣م والذي لا يوجد منه إلا نسخ" قليلة بالإنجليزية ترجمت بالقاهرة في عام ١٩١٦م. ولم تظهر اي طبعة إنجليزية بعد ذلك. ولقد كانت طبعة القاهرة ذات فائدة عظيمة في الواقع. واحياناً كنت اتركها كما هي ولكن في معظم الاحيان كانت تحتاج تعديلاً. لقد قمت بحذف بعض الفقرات من الكتاب وهي تلك التي يصف فيها الكاتب بإسهاب بعض مظاهر الصحراء غير ذات الأهمية والنباتات التي شاهدها وذلك بين الكويت والقصيم. كما قمت باختصار وصفه الطوبوغرافي لبعض المناطق التي سار فيها بعد ان أصبحت معروفة بعد رسم خرائطها . فعلت ذلك دون أن احذف اي معلومات حيوية. وهكذا ابقيت على جميع المعلومات الطوبوغرافيه التي مر بها الرحالة ووصفها حتى عندما كان مريضاً.

إن كتابة رونكيير للاسماء العربية لا ينطبق مع الاستخدام الحديث لها ولكن حيث إن ناشري هذا الكتاب قصدوا به ان يكون واحداً من سلسلة كتب حول الموضوع نفسه، وإنه كتب منذ ما يزيد على خمسين عاماً، فإن تصحيح الأسماء سوف يبعد به عن مذاقه الأصلي. زيادة على ذلك هناك بعض أسماء المناطق لم يمكن التعرف عليها، وأي محاولة لتصحيحها كانت ستقود إلى الوقوع في اخطاء.

التغييرات الوحيدة التي اجريت هي تلك التي جاءت خطا في الكتاب والتي كان رونكيير نفسه سيوافق عليها لوعرفها، مثل استعمال حرف «ر» في آخر اسم العائلة الحاكمة في الكويت حيث غيرت إلى «ح». كما اننا حذفنا حرف «د» الذي استخدمه الكاتب قبل «ج» في بعض الكلمات. ولكن لأن الرياض الآن تكتب Riyadh فقد اخذنا بها بدلا من ال Riadh التي استعملها المؤلف. ابقينا على الطريقة التي كتب بها الكويت على الرغم من أننا استعملنا طريقة كتابتها الحالية في المقدمة والهوامش.

كان رونكيير يبلغ من العمر ٢٣ سنة ويوماً واحداً عندما قام برحلته الأولى والأخيرة إلى الجزيرة العربية. لقد قام قبل ذلك برحلة مع أبيه إلى تونس وذلك لدراسة أسلوب الري الزراعي في تلك البلاد العربية، ولا يخامرني اي شك في انه لم يكن يتكلم العربية بطلاقة عندما جاء إلى الجزيرة العربية. ومع ذلك فنحن ندهش من حجم المعلومات التي جاء بها ودقتها على الرغم من ان هناك نقصاً في بعض الحالات. وهذا النقص ربما يكون مرجعه إلى أن عرب الصحراء يترددون أحياناً في إعطاء المعلومات لشخص غريب. إن قائمة القبائل العربية التي اعدها لشرق الجزيرة ناقصة. وإذا تفحصنا النص جيداً نجد نقصاً لم نكن نتوقع ان نجده. إنه لا يشير إلا

نادراً إلى السماء أو إلى تلألؤ النجوم ليلاً. فإذا تذكرنا إن رحلته كانت مقدمة معرفية لرحلات قادمة فقد كنا نتوقع ان يذكر شيئاً عن طبيعة الجمال ومعاملتها وكفاءتها. كان يطلق على أحد المرافقين معه "أخو عبدالعزيز" ولم يذكر اسمه مطلقاً على الرغم من انه كان يركب وراءه على جمل واحد.

من جهة اخرى كان رونكيير حريصاً على تسجيل ملاحظاته عن الحياة الفطرية والطوبوغرافية، ولا يدهشنا ان كتابه قد ترجم في عام ١٩١٦م للاستخدام الرسمي عندما نتذكر مدى جهل العالم الغربي بالكويت وشرق الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

لقد كان هدف رونكيير الرئيسي هو ان يهيئ قاعدة لبعثة رئيسية دانمركية إلى الصحراء الكبرى في جنوب الجزيرة التي لم تكن عندئذ معروفة. إن كثيراً من احداث الحياة تتوقف على التوقيت الصحيح، ولم يكن هناك أسوأ من اختيار وقت رحلة رونكيير. لقد كان متوقعاً أن تنفجر الحرب العالمية الأولى في الوقت نفسه الذي بدأ فيه رحلته، واسوأ من ذلك فإن ابن سعود لم يكن قد احكم سيطرته على القبائل الكبيرة والواحات البعيدة. لقد عاد السعوديون إلى الرياض في عام ١٩٠٢م وذلك بعد عشر سنوات من النفي فرضه عليهم امير حائل بمساعدة الأتراك. ومنذ عودته إلى الرياض وابن سعود يخرج من غزو ليدخل غزواً آخر لإعادة سيطرة آل سعود على الجزيرة؛ وإن الحكم في حائل ودسائس الأتراك خلفا مناخاً عاماً من الفوضى وضياع القانون. وفوق كل ذلك ظهرت هناك موجة جديدة من التزمت الديني كما حدث منذ قرن مضى، كما ان الوقت لم يكن مناسباً لبعثة مسيحية لتسافر مخترقة الصحراء دون أن تثير الشكوك.

ولسوء حظ رونكيير فقد سقط مريضاً بالكويت وكان لا يكاد يستطيع السير على قدميه عندما وصل الرياض ولو انه بقي قادراً على ركوب الجمل. ولا شك أن وضعه الصحي الصعب لم يغب عن الإمام عبدالرحمن آل سعود على الرغم من انه يقول: إن معاملة الإمام الطيبة له جعلته يفكر في مد رحلته الاستكشافية ولكن لا يبدو انه اثار المسالة مع الإمام. ولم يكن هناك وقت ليعرفه الإمام جيداً كي يساعده على مد رحلته إلى مناطق أخرى، وعلى ذلك قبل المساعدة ليتمم رحلته إلى الساحل الشرقي للجزيرة دون تاخير.

وعلى الرغم من أن رحلته لم تنجح في تحقيق اغراضها، ولم يكن ذلك لقصور منه، إلا انها ما زالت تثير الاهتمام. لن يقوم أحد بعد ذلك برحلة على ظهر جمل عبر شرق الجزيرة مع قافلة كما فعل رونكيير، ولا تعبر الآن طريق رونكيير اي قوافل جمال بل تقطعها شاحنات ضخمة على طرق معبدة أو سيارات ضخمة بعجلات خصصت للسير على الرمال دون ان تغوص بها. لقد انتهت الأيام التي كان على الأجنبي ان يحتمي بمرافق من القبيلة التي يمر باراضيها ويدفع إتاوة. وانتهت أيضاً الأيام التي سادت فيها الفوضى وغياب القانون. لقد حل الأمن والسلام الآن.

لقد تغيرت الرياض والكويت كلية الآن. ففي أيام رونكيير كما يقول: "لاتوجد اهمية كبيرة للكويت لانها -باستثناء المكلا على الساحل الجنوبي- أقل بلد عرف الحضارة الأجنبية من بين المناطق الساحلية". والآن من الصعب ان نجد بناء واحداً في الكويت بقي على حاله كما كان في وقت زيارة رونكيير، كما أن نمط الحياة تغير أيضاً. لقد حصل بعض التغيير بعد عام ١٩١٧م ولكن التغيير الكبير حدث بعد الحرب العالمية الثانية بعد استخراج النفط بكميات تجارية.

لم يكن الحكام العرب إلى الثلاثينيات من هذا القرن متفائلين بوجود الزيت في بلادهم، يخبرنا فيلبي ان ابن سعود لم يكن يؤمن بوجود الزيت بكميات كبيرة كما أن شيخ الكويت وعلى الرغم من أنه أبرم اتفاقا صعباً مع شركات الزيت لم يكن ينظر إلى الأمر بشكل جاد. إذ عندما وجدت الشركة الامريكية الإنجليزية حقلاً للبترول في برقان الصبيحية ودعاه مدير الشركة لحضور المناسبة كان متردداً في قبول الدعوة. لقد خاف على سيارته من العواصف الرملية ولم يكن في الكويت وقتها اكثر من ست سيارات كما انه كان متعباً. هكذا تصرف الشيخ في مناسبة اكتشاف البترول الذي يدر على الكويت الآن ثلاثمائة مليون جنيه في العام[١].

لقد كتب رونكيير وصفه عن الكويت قبيل بدء التغييرات ووصفه عن تلك الفترة هو الوحيد الموجود. كما انه لا يكاد يوجد احد قبله زار الدرعية والرياض في ذلك الوقت وترك لنا حديثاً عنهما.

وقد يكون الوحيد قبل رونكيير الذي زار المنطقة وكتب عنها هو جون لويس رينو، وهو مساعد السيد مانستي المقيم البريطاني في البصرة. لقد هرب السيد رينو من البصرة عندما حدثت اضطرابات في جنوب العراق والتجأ إلى "القرين" كما كانت الكويت تعرف وكان ذلك من عام ١٧٩٣-١٧٩٦م. وبينما كان رينو بالقرين هاجمها الوهابيون مما جعل السيد مانستي يحضر بعض المدافع من سفينة كانت ترسو في المنطقة وكذلك عدداً من الجنود الهنود الذين يخدمون في الجيش الاستعماري الإنجليزي. ونجح الجنود الهنود والمدافع التي أحضرت في صد السعوديين الذين قتل بعضهم. وانتقم الوهابيون بان أسروا بعض رجال مانستي من

(١) يجب أن لا ننسى أن دي جوري كتب هذا الكلام منذ ما يزيد عن الثلاثين عاماً.

الذين ينقلون الرسائل وغيرها عبر الصحراء بين الإنجليز وإمبراطوريتهم بالهند. ولهذا السبب أرسل مانستي رينو إلى الدرعية لينشد صداقة أمير السعوديين. وقد يكون رينو أعد تقريراً عن رحلته إلا أنه لم يعثر على أثر له في ملفات الشركه الهندية، أو المكتب العام الإنجليزي للسجلات الخاص بتركيا. ولا يوجد إلا خطاب رينو إلى جاسبر ستيزن وهو مستشار في السفارة القيصرية الروسية، وقد قتل فيما بعد بينما كان يقوم برحلة استكشاف في غرب الجزيرة العربية. والخطاب الذي يذكر هجوم الوهابيين على الكويت مؤرخ في ٢ أبريل عام ١٨٠٥م وهو مرسل من حلب ويحتوي على بعض النصائح لمن يسافر في الجزيرة العربية، كما يعطي وصفاً بسيطاً للدرعية. سافر رينو بالبحر إلى القطيف ومنها إلى الأحساء[١] ثم بالبر إلى الدرعية التي وصلها بعد سفر ثمانية أيام، وهي المدة نفسها التي استغرقها رونكيير بالرحلة نفسها. يقول رينو عن الدرعية: "إن البلدة صغيرة ولكنها شيدت على النمط العربي الجميل. إن موقعها جيد، والإقامة فيها مريحة وتحيط بها المزارع التي قامت على جانبي نهر صغير، ويوجد بها العنب والتين ولكنني علمت أن الناس يأكلون هذه الفاكهة قبل أن تنضج. والوهابيون الذين يعيشون في هذه المنطقة متوحشون جداً إلا إنهم كرماء. ولديهم قطعان كبيرة من الأغنام معظمها أسود بآذان طويلة وصوف غزير ولحمها طيب المذاق. والخيول بالدرعية رخيصة جداً وهي الأجمل في الجزيرة العربية.

"عندما كنت بالدرعية كان حاكمها هو عبدالعزيز بن سعود، أبو الحاكم الحالي .لكن ابنه سعود هو الذي أسس الملك وتبعه ابنه عبدالعزيز الذي أرسى قواعده. وكان عبدالعزيز في الستين من عمره، نحيفاً ومثقفاً. وقد علمت

(١) ربما يقصد الهفوف

ان عدد أفراد أسرته يبلغ ثمانين شخصاً. وعرفت أيضاً أنه لا يستخدم جهازاً إداريا كبيراً بل يدير كل شؤون الدولة بنفسه ويستخدم كاتباً واحداً فقط. بينما يبلغ عدد المقاتلين في جيشه مائة ألف رجل، ولكن منذ ان عرفت هذه المعلومات انضم إليه عدد آخر من القبائل، وقد يكون عدد جيشه تضاعف بعد ذلك".

هناك اوربيون آخرون وصلوا إلى الدرعية قبل رونكيير، وهؤلاء كانوا جنوداً مرتزقة في حملة إبراهيم باشا على الدولة السعودية وهم لم يتركوا سجلات لهم، ولكنهم ذكروا في كتاب فيلكس منجين: **تاريخ مصر تحت حكم محمد علي**، باريس ١٨٢٣م، كجنود في الحملة المذكورة عندما حاصر الدرعية من أبريل إلى سبتمبر عام ١٨١٨م، حيث استسلمت المدينة في ٩ سبتمبر وتخلت عنها الدولة السعودية كعاصمة لها. كما ان هناك ضابطاً في حكومة الهند الإنجليزية وهو الكابتن جي.اف.سادلر الذي وصل إلى وادي حنيفة في عام ١٨١٩م وذلك بعد أشهر قليلة من تدمير الدرعية، وكان قد عبر الجزيرة محاولاً اللحاق بإبراهيم باشا لبحث الشؤون السياسية معه. والضابط الآخر الذي وصل المنطقة كان الكولونيل لويس بيلي وهو المقيم الإنجليزي في الخليج الفارسي حيث وصل الرياض لمقابلة الحاكم الوهابي في عام ١٨٦٤م. وكلا الرجلين تركا سجلات لرحلتهم ونشرت فيما بعد.

الشخص الآخر الذي وصف الرياض هو دبليو.جي.بالجريف الذي ربما كان قد وصل الرياض قبل وصول بيلي. وإذا شككنا انه وصل الرياض فإن اللوم يقع عليه. لقد تحدث إلى الجمعية الملكية الجغرافية بلندن ولم يلق قبولاً حسناً عندهم، مع انه استقبل استقبالاً حسناً من القراء. يقول رونكيير في إشارة تحت اسم لويس بيلي في آخر كتابه: "عندما ندرس جغرافية شرق

ووسط الجزيرة العربية لا بد لنا ان نعقد مقارنة بين محاولات بيلي وبالجريف لتسليط بعض الضوء على طبيعة جغرافية المنطقة. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن قيمة المعلومات التي أتى بها الرحالان لا ترقى إلى القبول الذي لقياه. إن بيلي لم يطعم قصته بمقتطفات من اعمال شكسبير او تنيسون او دانتي او بايرون كما أنه لم يتحدث بإسهاب عن الرعب الذي يشعر به الإنسان وسط رمال الصحراء، لكنه اعطى صورة واضحة ومختصرة عن البلد وملامحها دعمها بنتف من المعلومات اكثر واوضح مما اتى به بالجريف. كما ان بيلي اعطى وصفاً جغرافياً شاملاً عن المنطقة مما لم يستطع بالجريف أن ياتي بمثله".

بعد سنوات عديدة مما قاله رونكيير عن الرحالتين جاء هـ.سنت جون .فلبي الذي عرف المنطقة احسن من اي اجنبي آخر، لينكر ان بالجريف جاء إلى المنطقة شخصياً؛ وحتى لو سلمنا جدلاً بان بالجريف فقد مذكراته على السفينة التي اقلته إلى إنجلترا فإنه من الصعب ان رجلاً راى الرياض منذ سنتين فقط يمكن ان يصفها بالطريقة التي وصفها بها.

على ذلك يمكن القول ان رحالين أو ثلاثة رحالين أوروبيين زاروا منطقة وادي حنيفه وتركوا اثراً لزيارتهم قبل زيارة رونكيير، وإنه عندما وصل المنطقة كان قد مضى نصف قرن على زيارة آخر اوروبي لها. وإذا استثنينا مناطق جنوب الرياض التي لم يكن الغربيون قد عرفوها والتي كان الأمل أن تقوم بعثة دانمركية باستكشافها عقب رحلة رونكيير، فإن الرياض نفسها كانت هدفاً ممتازاً لشاب أوروبي، كان يطمح ان يستكشف مناطق لم تطأها قدم اوروبي .

سلك رونكيير بعد مغادرة الكويت، وقبيل الوصول إلى الرياض طريقاً

قريباً من الطريق الذي سلكه بيلي الذي زار المنطقة قبل نصف قرن من وصول رونكيير إليها. وفي معظم الطريق كان خط سير رونكيير إلى الغرب من الطريق الذي سلكه بيلي، وكان خطاً وعراً وفي أرض لم تعرف بعد. أما بالجريف فإن كان قد وصل بريدة كما يدعي فإنه وصلها من الشمال الشرقي، ولم يسلك الطريق الذي سلكه رونكيير إلا بعد أن غادر بريدة حيث مر على الزلفي والمجمعة. لقد مر على بريدة قبل رونكيير رحالان هما شارلز داوتي في عام ١٨٧٨م، وكارلو جارماني عام ١٨٦٤م. وعلى الرغم من أن الرجلين لم يصلا إلى الرياض إلا أنهما أقاما فترة في عنيزة التي حكمها لحقبة طويلة آل الزامل. لقد منع أمير بريدة رونكيير ان يدخل عنيزة.

يقول جارماني عن حاكم عنيزة من آل الزامل: "لم يكن لديه الهدف المزدوج للاستقلال وإحياء العقيدة بدلاً من الإصلاح فقط، او على الأقل لو اخفى هدفه الثاني حتى يحصل على الأول لما وجد نفسه وحيداً في مواجهة فيصل بن سعود وطلال بن رشيد". لقد حاول أن ياتي بعقيدة تعتمد على وحدانية الله فقط مدعياً" أن الخالق لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين ابنائه". حاثاً مواطنيه على "إنكار القرآن" وكل الكتب المقدسة الأخرى لأن" كتاب الله يقرأ من خلال أعماله". وكان هذا القول هو الذي اثار غضب العلماء المسلمين وادى إلى هزيمته.

إن رغبة تلك المدن الحدودية وخاصة بريدة وعنيزة في بقائها مستقلة اثارت انتباه رونكيير. فعندما وصل بريدة كان لا يزال هناك رجال احياء يتذكرون صراع عنيزة للاستقلال مما دعا أمير بريدة أن يمنع ذلك الغربي الفضولي من دخول عنيزة. او ربما خشي الأمير ان بعض المتزمتين من رجاله قد يأخذهم الحماس ويقتلون ذلك النصراني أو المسيحي. فكما يعرف

رونكيير لقد حاول أولئك المتطرفون أن يقتلوا داوتي في بريدة، ولم يمنعهم إلا زعيق نساء البيت اللائي وقفن في وجوههم إلى أن جاء صاحب المنزل وطردهم باسم الأمير. ومع كل ذلك لم يرتدع أولئك الرجال تماماً ومكثوا يطالبون براس داوتي إلى ان استطاع الأمير ان يهربه مع رجل سار به في طريق منزو إلى أن أوصله إلى راحلته وسار في صحبته إلى عنيزة على نفقة الأمير.

لم تكن تجربة رونكيير في بريدة تختلف كثيراً، فاهل بريدة إلى يومنا هذا تقريباً يحاربون التغيير . ومنذ سنوات قليلة فقط ادرك اهل بريدة ان عمليات التحديث قد أخطاتهم فبدؤوا يرفعون أصواتهم مطالبين بمعاملتهم مثل المدن الأخرى.

عندما دخل رونكيير بريدة كان مريضاً، والبلد تقع تقريباً في وسط الصحراء فهي تبعد حوالي المسافة نفسها عن الساحل الشرقي وساحل البحر الأحمر، ولكن حتى لو وصل المسافر إلى الساحل فإن فرصة وجود طبيب ضعيفة إلا إذا كان على ظهر سفينة راسية. كان باستطاعة رونكيير أن يعود إلى الكويت حيث كان هناك الدكتور هاريسون، وحيث وجد الضيافة الحسنة من شيخ الكويت والمندوب الإنجليزي وحيث الناس هناك طيبون. لقد كان بالجريف محقاً في وصفه عندما قال عنهم: "من بين جميع البحارة الذين يخوضون عباب الخليج الفارسي يحوز الكويتيون قصب السبق في الجسارة والمهارة والشخصية وكسب الثقة".

ولكن على الرغم من المعاملة السيئة التي لقيها فقد رفض رونكيير العودة على الرغم من أن كل العرب الذين كانوا معه حثوه على ذلك. ما الذي كان يدفعه إلى المضي قدماً في رحلته؟ لقد كان يسعى إلى موته؛ لان المرض الذي ألم به الآن هو الذي قتله فيما بعد.

عندما عاد إلى الدانمرك دعا رونكيير إلى مشروع تحويل الصحراء إلى أرض خضراء منتجة. كان قد زار العراق وتونس قبل مجيئه إلى الجزيرة العربية ورأى أن بالإمكان بعث الحياة في الأراضي القاحلة بواسطة وسائل الري الحديثة خاصة وإن اراضي تونس كانت خضراء أيام الإمبراطورية الرومانية.

كتب أحد معاصريه وهو في الوقت نفسه ابن عمه بالي رونكيير عن رونكيير واهتمامه بالإصلاح الزراعي ما يلي : "إن باركلي رونكيير هو الابن الوحيد لعالم النباتات البروفسور كريستيان رونكيير (١٨٦٠-١٩٣٨م) وانجبورج الكاتبة (١٨٦٣-١٩٢٠م). إن اسم رونكيير مشتق من ذلك الجزء من المزارع القديمة في غرب جوتلاند التي مُنحها جده بمناسبة زواجه عام ١٨٥٠م. إن جده كان واحداً من الرواد الذين شكلوا خلية للعمل على إعادة جنوب جوتلاند إلى الدانمرك بعد أن اغتصبها منهم الألمان في عام ١٨٦٤م. لقد ترك ذلك الجد عند وفاته عام ١٩٠١م أراضي زراعية تزيد خمس أو ست مرات على المساحة التي كان قد حصل عليها عام ١٨٥٠م وذلك بفضل تحويل المراعي إلى أرض زراعية وتحسين التربة . وأعتقد إنه لكي نتعرف على شخصية رونكيير علينا أن نتذكر انحداره من أسلاف عرفوا كيف يحصلون على الأراضي الزراعية . لا أزال أذكر حماس رونكيير عندما أمضينا أعياد الميلاد معاً عام ١٩٠٩م، لمعرفة كل شيء عن أجدادنا المشتركين وكيف كانوا يفكرون ويعملون. إن أبا رونكيير كان واحداً من أبرز علماء الدانمرك، وحصل على الشهرة عن دراساته لحياة النبات، ولا تزال أبحاثه يستفاد منها في جميع أنحاء العالم.

"أم باركلي أيضاً تنحدر من عائلة من غرب جوتلاند، وكان أبوها

صاحب مصنع في بلدة فاردي الصغيرة. وعلى الرغم من أنها لم تحصل على تعليم جامعي إلا أنها كانت ذات ثقافة طيبة وخاصة بالأدبين الأمريكي والإنجليزي، وهنا سر إعطاء ولدها اسم باركلي الذي لا وجود له بالدانمارك. واعتقد أن والدي باركلي قصدا شخصاً معيناً عندما أطلقا على ابنهما هذا الاسم، ولكنني لا أعرف من هو. لقد كانت أمه ناقدة شديدة لكثير من المجلات والجرائد، وقد ألفت كتباً عديدة دون أن تضع اسمها عليها أذكر منها اثنين فقط هما: **رجل وامرأة** عام ١٩٠٩م وهو تسجيل نفسي دقيق لتطور العلاقة بين زوجين، وقد أثار الكتاب زوبعة وطبع عشر مرات. والكتاب الثاني **هو في الدنمارك** عام ١٩١١م، وهو رصد دقيق لشخص محب للطبيعة عن تحول الفصول الأربعة في الفضاء الدانمركي. كما أن مواهبها الشعرية ظهرت في ترجمتها للغة الدانمركية بين الأعوام ١٩٠٠م-١٩١١م لعدد من قصائد والت ويتمان الشاعر الأمريكي؛ وذلك قبل أن يعرف جيداً في الدانمرك. وعلى الرغم من أن تلك القصائد لم تنشر إلا أنها في نظري أحسن من التراجم التي أنجزت فيما بعد ونشرت. كما أنها كانت رسامة جيدة وقامت برسم لوحات عديدة لكتب زوجها الزراعية. وفي سنواتها الأخيرة نشرت كتاب: **رسائل الدكتور بول أسرت من غينيا الدانمركية** عام ١٩١٧م **والصفات الاستوائية لجزر الهند الغربية** عام ١٩٢١م.

"هكذا نشأ باركلي طفلاً وحيداً لأبوين ذكيين واسعي الإدارك. ولقد كان اعتقاد الأبوين أنه إذا حصل الطفل على مبادئ التعليم الأساسية فالأحسن بعد ذلك أن يترك لشأنه لتوسيع مداركه الثقافية بحرية كاملة. عاش باركلي إلى مرحلة الدراسة الثانوية عام ١٩٠٨م وهو يتمتع بالجو المنفتح والهواء الطلق الذي وفره له بيت صيفي يملكه أبوه شمال كوبنهاجن.

وكان الولد وهو لا يزال في سن صغيرة يساعد أباه في أبحاثه الزراعية، مما اعطاه خبرة جيدة ساعدته فيما بعد في دراسته الجامعية وتخطيط مستقبله. كان يعرف من البداية انه سيكون جغرافياً اقتصادياً، حتى قبل ان يسافر مع ابيه في عام ١٩٠٩م إلى تونس لمساعدته في ابحاثه كان قادراً على القيام باعمال مستقلة، وأنا على يقين انه هو الذي أقنع الجمعية الجغرافية الدانمركية بالقيام برحلته العربية.

"وعلى الرغم من انه كان يملك الخيال والشجاعة اللتين يحتاجهما المغامر إلا انه كان دائماً عملياً في افكاره، لقد كانت تلك الصفة من وضوح رؤيته وتصميمه هي التي ساعدته على العودة إلى بلده سالماً؛ كان جسمه متناسقاً مع طوله البالغ خمسة اقدام وعشر انشات ونصف، كما كان منتصب القامة نشطاً، كان وجهه طويلاً بعض الشيء إلا ان ملامحه متناسقة وجميلة، ويسير بثبات وبطء. لم أره قط حزيناً أو عابساً على الرغم من انه كانت هناك احياناً اسباب لان يكون كذلك مثل يوم مرضه. كان ذات مساء بعد عودته يرقص مع خطيبتي التي اصبحت فيما بعد زوجتي وكان يبدو تعباً فسألته إن كان مريضاً؛ وأجاب بابتسامة عريضة نعم اعاني من سخونة بسيطه ١٠٤ درجات منذ الصباح ولكنني اخذت بعض اقراص الكينا وسوف تختفي الحرارة. كتبت عنه مقالة في سجل الأعلام الدانمركي جاء فيها: بعد عودته من رحلته هجر باركلي أبحاثه العلمية وانضم إلى شركة شرق آسيا حيث يتوقع ان يجد مجالاً لمتابعة اهتماماته بدراسته الجغرافية الاقتصادية، ولكنني على يقين انه لو امتدت به الحياة ولم يمت في سن الخامسة والعشرين لرأينا لباركلي إنجازات هامة في الحقل العلمي.

"لاحظ في طريقه إلى الكويت ان هناك مجالات واسعة جداً في حقل

الجغرافية الاقتصادية، خاصة في العراق، لو وجدت في المنطقة وسائل الري المطلوبة التي تقوم الزراعة عليها. ولذلك عندما عاد إلى بلده قصد شركة آسيا وحصل على مقابلة مع مديرها الذي يصعب عادة الوصول إليه والذي يُعد من أعظم شخصيات الدنمارك في القرن الماضي وهو هـ. ن. اندرسن. وما إن سمع الرجل العظيم ما نقل إليه باركلي عن الإمكانيات المتاحة حتى عرض عليه منصباً في الشركة . كان هدف المدير هو إعطاء باركلي الإمكانيات المادية لتحقيق طموحاته، وايضاً لأن افكاره ومشاريعه ستعود بالفائدة على الشركة . لقد كان تاثيره على مدير الشركة كبيراً إلى درجة انه أعطاه منصباً متفوقاً متجاهلاً بذلك التدرج الوظيفي، إلا ان باركلي لم يتمكن من ان يقدم أي خدمات كبيرة للشركة ٌ.

ازدادت وطاة حمى الملاريا التي اعتقد أنها كانت علة مرضه لدرجة انه ذهب إلى المستشفى لإجراء الفحوصات اللازمة. هناك اخبروه انهم لم يجدوا سبباً معيناً لمرضه. ازدادت حدة المرض بعد أن غادر المستشفى واخبروه هذه المرة انه يعاني من مرض السل. ولكن السل كان قد استفحل في رئتيه ولم يجد علاجه مرة ثانية في مستشفى آخر ومات هناك في ١٣ يوليه عام ١٩١٥م.

اصرت شركة شرق آسيا على دفع نفقات المستشفى وتكاليف الجنازة تقديراً منهم لشاب كانوا يتوقعون منه إنجازات باهرة . ربما ظن باركلي قبيل وفاته أن مجهوده في ان يشجع على رحلات أوروبية أخرى إلى الصحراء العربية قد انتهت بمرضه خاصة وأن كل أعضاء البعثة الاستكشافية التي جاءت في عهد الملك كريستيان الخامس -عدا واحد- ماتوا من المرض في اليمن أو بعد خروجهم منها.

ربما يخفف من حزن باركلي لو عرف أن بعثة استكشاف آثار بعد أن نقبت مدة اثني عشر عاماً على أطراف الجزيرة العربية، سمح لها هذا العام وللمرة الأولى أن تجري تنقيباتها في شرق المملكة العربية السعودية نفسها. وهكذا فإن مهمة هذه البعثة ستاخذهم على الطريق نفسه الذي سلكه مواطنهم الشجاع منذ أكثر من خمسين عاماً.

تمهيد المؤلف

اقدمت على نشر قصة رحلتي هذه وانا اشعر بالخجل لانني متاكد من مدى عيوبها الفنية وقصورها في بعض جوانبها.

إن الخطر الذي يتربص بحياة من يحاول ان ياخذ صوراً فوتوغرافية في الجزيرة العربية منعني من ان اضمن رحلتي مناظر كاملة لما مر بي، بينما الرسومات التي حاولت أن اقوم بها بخوف وسرعة لم تات حسب المطلوب. وعندما حددت طريق رحلتي وجهدت ان اتبعه استطعت فقط ان اتحدث عنه بشكل عام نظراً للظروف التي احاطت بي، وعلى ذلك فيجب ان يفهم القارئ ان الخريطة التي سرت وفقها ورسمتها ليست دقيقة.

اما بالنسبة للنص فلم استطع ان اكتب عن تجربتي هذه بحياد، او دون ان تتدخل عاطفتا العطف احياناً والتحامل احياناً اخرى. إن المرض وصنوفاً اخرى من المعاناة التي قاسيتها لونت قصتي بطابعها وتركت آثارها في سرد الحديث، ولذا فإن اسلوبي يظهر احياناً عنيفاً ولا استطيع إلى الآن ان انظر إلى تجربتي دون ان احس بعمقها واعيشها مرة اخرى، فإذا أحس القارئ بشدة مرارة التجربة وبقوة الانحياز إلى ضدها فارجو ان يكون السبب لذلك واضحاً.

اقدم امتناني العميق إلى سعادة حسن رضا باشا لدعمه الكبير لي وكذلك إلى ممثلي بريطانيا العظمى بالخليج وخاصة الكابتن دبليو. هـ

آي. شكسبير في الكويت وأخيراً وليس آخراً إلى لجنة البعثة الذين كانوا دائماً مستعدين لتقديم العون وخاصة رئيسهم الممتاز نائب أميرال ا. دي ريشيليو.

كوبنهاجن – سبتمبر   باركلي رونكيير

١٩١٣م

مقدمة المؤلف

منذ أول مبادرة قامت بها الدنمارك لفك أسرار الصحراء العربية وذلك عن طريق الرحلة التي قام بها كارستن نيبور في منتصف القرن الثامن عشر، والرحالة يحاولون تباعاً فك ألغاز أعماق الصحراء في شبه الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من حكم الوهابيين وهم جماعة متشددة فإن عدداً من الرحالة ذوي الهمم العالية استطاعوا أن يخترقوا قلب الصحاري ويكتبوا عن جغرافية الجزيرة العربية . وعلى الرغم من ان واحداً بعد الآخر كانوا ضحايا للاضطهاد والخيانة والهجوم عليهم ونهب أمتعتهم وقتلهم فإنهم استطاعوا ان يضعوا على خريطة الجزيرة مناطق وواحات كانت مجهولة من قبل. وبمساعدة أهل البلاد أمكن لأولئك الرحالة أن يعرفوا بعض الشيء عن مناطق لم تستكشف بعد.

وإذا نظرنا إلى أحدث خريطة للجزيرة فإننا نلاحظ الفرق الكبير بين معلوماتنا عن غرب البلاد وبين الجزء الذي يقع على خط عرض ٤٥ْ إلى الشرق من غرنيتش. وإذا تركنا جانباً المعلومات السطحية التي كسبناها من رحلات بالجريف وبيلي شمال الجزيرة وبعض المعلومات القليلة التي لدينا عن سواحل حضرموت وعمان يبقى لدينا في الشرق مثلث ضخم يساوي في حجمه حجم إنجلترا وفرنسا وألمانيا مجتمعة لم يستكشف بعد. واكثر ما يثير الاهمية في هذا المثلث هو الصحراء الجنوبية العربية وهو ما لا نعرف عنه شيئاً؛ لان اياً من محاولات استكشافه السابقة لم تنجح، ولان جنوب الجزيرة باتجاه شواطئ عمان واليمن هي نفسها غير مامونة فإن احتمال استكشاف وسط الجزيرة من

هناك ضعيف جداً. ولا يزال هناك أمل ضعيف على أي حال بإيجاد نقطة ما في الشمال لإعداد رحلة استكشاف إلى الجنوب.

وما إن قدم الاقتراح بإعداد رحلة استكشاف كهذه إلى الجزيرة العربية لا ستكمال ما بدأه نيبور للدنمارك واعطاها دوراً قيادياً في هذا المضمار، حتى كونت لجنة أعدتها الجمعية الجغرافية الملكية الدانمركية لدراسة إعداد رحلات استكشافية أخرى لقلب الجزيرة. راس البعثة نائب الأميرال وحامل الأختام الملكية أ. دي ريشيليو ومعه عدد من الاعضاء البارزين. كانت اللجنة تدرك أنه لإرسال بعثة استكشاف إلى جنوب الجزيرة يجب اولاً جمع كل المعلومات المتوفرة عن المنطقة التي تبدأ منها الرحلة، وبعد التشاور والدراسة قررت اللجنة التركيز على مناطق صغيرة، ومجهولة على الخليج الفارسي تبدأ منها الرحلة إلى داخل الجزيرة. ووافقت الحكومة التركية على منح الإذن للبعثة للسفر إلى الأحساء التي كان الوصول إليها صعباً في الأوقات العادية.

عندما تاكدت اللجنة أن كل شيء قد أعد لضمان رحلة ناجحة غادرت في ١٢ نوفمبر عام ١٩١١م إلى استانبول حيث كانت الخطة ان أسافر منها إلى آسيا الصغرى ثم عبر العراق إلى الخليج الفارسي. كانت المعدات التي حملتها معي غاية في البساطة؛ نظراً للكره الشديد الذي يحمله أهل شرق الجزيرة المتزمتون للاجانب. لقد مدتني الجمعية الجغرافية بمعدات رسم الخرائط، واعطتني هيئة نباتات الجامعة ما أحتاجه لجمع النباتات، بينما زودتني مؤسسة كارلزبيرج بالنقود التي اشتريت بها معدات تصوير من النوع الممتاز.

لا تعد تلك الاشياء كثيرة لبعثة مثل هذه ولكن كما اتضح فيما

بعد كانت أكثر مما احتجته، فقد تخليت بعد محاولات قليلة عن جمع النباتات، وهجرت قراءة مؤشرات الحرارة والرطوبة لأنني وجدتها مهمة مستحيلة، بينما لم أستطع التقاط صور إلا خفية وفي لحظات لا يراني فيها احد وإلا عرضت نفسي لخطر كبير. المعلومات التي أمدتني بها الجمعية تقضي أن أتوجه أولاً إلى البحرين وهي جزر في الخليج الفارسي، ومن ثم أتوجه إلى القطيف او العقير على شاطئ الأحساء، من هناك كان عليّ ان امضي إلى الهفوف. وعلى الرغم من أن الأحساء كانت هدفاً للاستكشاف فقد كان علي حسب توجيه الجمعية ان اتعمق قدر الإمكان نحو الغرب، والجنوب الغربي؛ لأن معرفة هذه المناطق تساعد على فهم ظروف الأطراف الشمالية لجنوب الجزيرة العربية. لم تكن هناك تعليمات اخرى محددة إذ ترك القرار لي حسب الظروف التي اقابلها، وقد ثبت فيما بعد ان ذلك القرار كان حكيماً.

من استانبول اخذت طريقي عبر آسيا الصغرى بقطار الأناضول الذي ينتهي إلى بغداد حيث سافرت فيه إلى أولوقشلة على الطرف الشمالي لبولجرداغ. ومن هناك ركبت عربة من صنع محلي سارت ثلاثة ايام إلى ان وصلت إلى طرسوس، ومن هناك اخذت قطار مرسينا – أضنه إلى مرسينا. من مرسينا سافرت على ظهر باخرة روسية إلى الإسكندرية، ومن هناك استاجرت عربة اقلتني إلى حلب في ثلاثة أيام.

بعد ان مكثت في حلب اياماً قليلة استاجرت عربة تجرها اربعة خيول غادرت بها في ١٤ ديسمبر ١٩١١م، وسرت ثلاثة أسابيع

وصلت بعدها إلى بغداد متتبعاً وادي الفرات من المسكينة إلى الفالوجة. اجريت بعض التجارب الزراعية في طريقي بمحاذاة وادي الفرات على غرار ما فعلته في رحلة سابقة إلى تونس. مكثت اسبوعين في بغداد التي خلت الآن من كل ابهتها، التي عاشتها ايام الخلافة العباسية. بحثت أثناء ذلك عن دليل يوثق به لمرافقتي في القادم من رحلتي إلى الجنوب. اخيراً وجدت الشخص المناسب بمساعدة القنصل السويدي السيد تود. كان حنا عراقياً مسيحياً من الموصل وله خبرة جيدة في السفر اكتسبها من مرافقته لرحلة أوروبية إلى كردستان والعراق ومناطق كثيرة في فارس. بالإضافة إلى خبرته في السفر، فقد كان موثوقاً ويمكن الاعتماد عليه، بحيث يصعب الحصول على مثله في المناطق الجنوبية وغيرها.

ما إن اصبحت مدن العراق المتمدنة خلفنا حتى اتخذ حنا اسماً إسلامياً هو "علي" لأنه تعلم بالتجربة وبسفرات سابقة ان معرفة جيدة بالإسلام وبالقرآن تنقذه ومن معه من مواقف خطرة يقف لها شعر الرأس. كان حنا يتمتع ايضاً بحس فكاهي وسرعة بديهة مما ساعده دائماً على الخروج سالماً من مآزق خطرة.

في ١٦ يناير ١٩١٢م ركبت سفينة شراعية ومعي مرافقي الجيد. كانت السفينة واحدة من مجموعة سفن تجديف، تملكها مجموعة السادة لنش. كانت تغص عن آخرها بحجاج الشيعة، مما جعلها تشبه حظيرة دجاج، وكانت روائح الطبخ والدخان الكثيف تملأ أنوف المسافرين الذين راحت سفينتهم تتهادى بهم فوق مياه النهر متجهة نحو البصرة.

(١)

من البصرة إلى الزبير والكويت

غادرنا بغداد على ظهر سفينتنا النهرية التي اخذت تتهادى بنا على سطح نهر دجلة تتبع منحنيات النهر المتعرجة. وعلى الرغم من الوقوف المتكرر للسفينة والتعطيل لأسباب اخرى، فإن السفينة بحمولتها من الحجاج الفقراء، مضت تسرع مع التيار فوق مياه النهر الطينية التي كانت تنداح على جانبيه مع تموجات المياه. كنا نرى القرويين يطلون علينا من اكواخ على شاطئ النهر مبنية من أعواد قصب يسهل أن يبتلعها الماء لو زاد ارتفاعه نصف متر فقط . كانت كلاب القرويين تنبح عندما ترى السفينة التي بدورها لا تابه لما يجري حولها وتستمر في انسيابها مخلفة وراءها أولئك الناس مع كلابهم، واعمدة الدخان الأزرق تتصاعد من اكواخهم ، ولا يلبث المنظر كله بعد قليل أن يندمج في وحدة واحدة مع المستنقعات الطينية التي تمتد إلى ما لا نهاية.

لم يطلق العرب علينا النار، وهذه ملاحظة جديرة بالتسجيل لأن البواخر وخاصة الإنجليزية منها تتعرض هذه الأيام للهجوم عليها من قبل أناس شديدي التعصب الديني مع تحيز سياسي وحب النهب والسلب لكل ما تقع عليه أيديهم . لقد مررنا على واحة القرنة الغنية بنخيلها الفاخرة، ودخلنا مجرى شط العرب العريض حيث اختلطت مياه نهر دجلة ذات اللون الأصفر الداكن مع مياه الفرات الزرقاء. كما اختلط أيضاً صوت المؤذن مع تلاطم مياه النهر على جانبي السفينة، وتعالت دعوات الحجاج العائدين من النجف وكربلاء إلى العلي

القدير، بينما انحدر قرص الشمس الأصفر نحو المغيب في نهاية ذلك اليوم من يناير ٢١ / ١٩١٢م مخلفاً وراءه منظراً جميلاً رائعاً أشعل الأفق ببحار من النار المتوهجة ارتفعت فوقها هامات أشجار النخيل كاعمدة سوداء تناطح السماء . بعد حلول الظلام وظهور الأنوار التي انتشرت على شواطئ النهر أرخينا قلوعنا انتظاراً ليوم جديد يأخذنا إلى البصرة، نهاية الرحلة النهرية.

٢٢ يناير :

لم نؤخذ بمنظر البصرة عندما شاهدناها من الباخرة. رأينا على مد البصر مزارع نخيل كثيفة على جانبي النهر، تقف بمحاذاتها زوارق وسفن وبوارج، وتقوم خلفها بعض البنايات القليلة. ارتفع العلم التركي فوق إحدى البنايات مما دلنا على مركز الجمارك التركي، بينما ارتفع على بعد علما إنجلترا والمانيا مما دل على وجود قنصليتين لهذين البلدين الكبيرين.

كان منظر النهر نفسه جميلاً، شاهدنا صفاً من الشاحنات النهرية المحملة بالبضائع التي يجري نقلها إلى البوارج الراسية قربها، شاهدنا أيضاً أعداداً كبيرة من الجندولات يقودها شباب عراقيون ذوو بشرة سمراء يوجهونها بمهارة بمجاديف من شجر الخيزران وقد امتلأت بالحجاج الذين يبحثون عن قوارب تأخذهم إلى بلادهم في الهند أو بلاد فارس أو بغداد.

نقل علي متاعنا إلى واحد من تلك الجنادل حيث أسرعت بنا المركبة الأنيقة بعيداً من مركز الجمارك وعبر واحدة من القنوات الكثيرة التي تميز النهر في البصرة مما أكسبها لقب بندقية الشرق.سرنا في القناة

الرئيسية المتفرعةمن العشّار وهي منطقة الميناءعلى شط العرب متوجهين إلى مدينة البصرة نفسها. بعد المرور على القنصلية الروسية والبعثة الأمريكية وصلنا إلى الفندق الوحيد الموجود في المدينة. موقع الفندق مثالي ولكنه بناء كئيب تحت إدارة يونانية أرمينية وله اسم رنان.

لاقيت في البصرة أحسن والطف معاملة من كل الناس الذين احتككت بهم إلى الآن. وأرق معاملة وجدتها من البعثات التبشيرية الأمريكية، ومن بيت روبرت فون كلاوس وشركاه الألماني، ومن القنصل الروسي سيرجي توخولكا الذي عمل لفترة في جدة وعلى معرفة جيدة بالعادات العربية. ولكن اكبر دعم جاءني من الوالي التركي حسن رضا باشا الذي شملني بحمايته واهتم اهتماماً كبيراً وحماسياً في بعثتي وساعدني في الإعداد للمضي فيها . في الوقت نفسه سعدت بحسن الضيافة الذي لا يجده الإنسان دائما . وبسبب الوضع السياسي في الجزيرة ومشاكل الأتراك في الاحساء فقد كان من الضروري ان اغير من خط رحلتي التي كانت في الأصل ستاخذني إلى البحرين ومنها إلى الاحساء.

استقر الراي اخيراً تبعاً لتوصية السلطة التركية ان اتوجه إلى الكويت وهناك اقنع الشيخ الحالي مبارك الصباح ان يسمح لي بالتوجه جنوباً بالبر إلى الاحساء. وإذا نجحت فمعنى هذا أنني سأسلك اطول طريق بري غير مطروق في تلك البقعة الشرقية من الجزيرة، وتم الترتيب لكل ذلك بشكل افضل مما توقعت؛ اشتريت جميع الاحتياجات الضرورية للطريق كما ارتديت الثوب العربي بناء على النصائح المشددة من الجميع.

وهكذا ودعت الجميع وغادرت البصرة الحالمة مزوداً بعدد من خطابات التوصية وجواز سفر خاص للأحساء، عدا ذلك لم يكن لدي أي معرفة بما قد تنتهي إليه الرحلة . وبينما كان أمامنا -علي وأنا- مهمة صعبة بحد ذاتها هي الحفاظ فقط على ممتلكاتنا فقد وجدنا نفسينا في جوف عربتين بائستين، تقفزان بنا خلف حصانين يتسابقان فوق طريق وعرة موحلة، تجمعت في بعض أجزائها أمطار الشتاء وقد خلت من أي أثر للحياة أو أي نباتات خضراء. توقفنا بعد مغيب الشمس في بلدة الزبير وقد غطانا جميعاً طين لزج مالح. استقبلت استقبالاً كريماً من قبل رجل عربي فاضل هو عبدالوهاب المنديل. من الخطأ أن تساوي بين الزبير والبصرة كما كانت في العصور الوسطى حيث تناثرت الآن خرائبها على مساحة كيلومترين مربعين خارج أسوارها من الشرق. كما أن البصرة الحديثة مع توأمها العشّار على شط العرب لا تمثل البصرة القديمة. لقد تغيرت الأحوال الآن وانحسر النهر عن السهول المحيطة بها. لقد أصبحت المنطقة الآن سهولاً صحراوية مالحة تمتد حيث كانت السفن من جميع مناطق الشرق الأقصى ترخي قلوعها فيها عندما كانت جزءاً من امتداد شط العرب.

إن بصرة العصور الوسطى التي بدأ فيها السندباد البحري رحلاته العجيبة اتصلت الآن بالعشّار وبمدينة القوافل الزبير، ويلاحظ الفرق الآن بين البصرة القديمة والبصرة بعد اتصالها بالعشّار ليس فقط من الناحية العمرانية بل أيضاً الوضع الاجتماعي حيث كانت البصرة القديمة أرقى بنياناً وأكثر تقدماً اجتماعياً. وحيث إن البصرة -العشّار- هي المرفأ الوحيد بالعراق فإن سكانها المختلطين من العرب والإيرانيين

ومن السنة والشيعة يتناولون المخدرات والنبيذ بالحرية نفسها التي يفعلها الناس في بغداد وفارس.

إن مسافة الثمانية عشر كيلومتراً التي تفصل البصرة - العشّار عن الزبير تأخذك فجأة من العراق التي تشبه فارس بثقافتها إلى بلدة صحراوية عربية نجدية هي الزبير. هنا تتقابل القوافل القادمة من شرق ووسط الجزيرة كما يمر بها مبعوثو شيوخ الجزيرة قاصدين إلى أو عائدين من جولات صعبة معقدة من المباحثات مع الحاكم التركي في البصرة.

معظم سكان المدينة من العرب النجديين، وخاصة أولئك الذين يتعاملون مع القوافل، وعلى ذلك فإن اسم الزبير معروف في نجد أكثر مما هو في البصرة. يخرج من الزبير طريقان رئيسيان للقوافل: يذهب احدهما إلى الكويت ومنها يتفرع إلى طريقين احدهما إلى القطيف والثاني إلى الزلفي. لكن الطريق من الزبير إلى الكويت اصبح الآن اقل استخداماً إذ حل محله الطريق النهري من البصرة عبر شط العرب. أما الطريق الأكثر اهمية من الزبير فهو الذي يحاذي في جزء كبير منه وادي الرمة إلى بريدة ويتفرع منه فروعٌ كثيرة تتجه نحو منطقة الحجاز ومنها إلى حائل، ومن الزبير إلى مسافة ٣٢ كيلومتراً إلى صفوان يبقى الطريق واحداً إلى الكويت وبريدة، ثم من صفوان يتفرع منه طريق يتجه جنوب غرب حيث بعد مسيرة اربعة أيام (حوالي ١٧٠ كيلو متراً) يصل إلى بئر الرقعي على خط طول ٢٩ شمالاً في وادي الرمة، طبقاً لمعلومات استقيتها من بعض سكان المنطقة، لا توجد بئر حقيقية في الرقعي وإنما حفرة يتجمع فيها ماء المطر عند نزوله.

بعد يومين من المسيرة في وادي الرمة وصلنا إلى بئر الحفر وهذه البقعة نقطة التقاء نفوذ كل من امير الكويت وامير حائل وإمام الرياض. يخرج من الحفر طريق لا تطرقه القوافل كثيراً يسير باتجاه الجنوب الشرقي إلى بئر اللصافة على الطريق الموصل بين الكويت والزلفي، بينما طريق آخر يبدأ أيضاً من الحفر وهذا أكثر استعمالاً يتجه نحو الغرب إلى بئر الخضراء ويتصل بطريق آخر اسمه درب السماوة، كما يوجد طريق آخر يبدأ ايضاً من الحفر، ويتجه إلى الشمال الغربي نحو آبار لينه في صحراء الحجرة، وهي تقع أيضاً على درب السماوة، وعلى مسيرة ثلاثة ايام من لينه ويومين من جنوب السماوة توجد أيضاً بئر غير معروفة اسمها بئر سلمان، يوجد أيضاً بين الحفر وبريدة بئر وحيدة يتوافر بها الماء دائماً هي جبة، وهي على بعد أربعة أيام جنوب غرب الحفر .

إن حركة التنقل بين الزبير وحائل ليست كبيرة لأن حائل وبريدة اخذتا في الحقبة الأخيرة تتجهان اتجاهاً آخر جذب إليهما عدداً كبيراً من الشباب. ففي الربيع يتجه هؤلاء الرجال عن طريق الزبير والبصرة إلى البحرين، حيث يعملون في صيد اللؤلؤ ويعودون بمدخراتهم في الخريف. وعلى ذلك فإن الزبير على صلة دائمة بنجد ولذلك فإن تأثير النجديين (الوهابيين) عليها كبير، يرى هذا بصفة خاصة بندرة المقاهي الموجودة في الزبير كما ان التدخين غير منتشر مما يجعل الزبير تختلف كثيراً عن البصرة. يوجد في المدينة بعض الحدائق ومزارع للذرة مع ان الأراضي المحيطة بها جرداء وتكاد تصل إلى اطراف مبانيها الخربة. ولا يرى الإنسان المساحات الخضراء إلا من أعلى سطوح المنازل

إذ يستطيع الشخص من هناك أن يرى أشجار النخيل قائمة على شواطئ شط العرب.

دبت الحياة قبل طلوع الشمس في المنزل الذي كنت ضيفاً فيه وبدأ الرجال يروحون ويجيئون يهيئون لاستئناف الرحلة إلى الكويت. وقد أصر مضيفي أن يتعهد بنفقات الرحلة بين الزبير والكويت بدلاً من جمعيتنا الجغرافية. وعلى ذلك ففي الصباح الباكر طبخ الرز وخبز الخبز وهُيِّئت المعدات الأخرى وعندما أصبح كل شيء معداً أحضرت خيول أربعة. تلك الخيول الأربعة هي التي ستنقلني إلى الكويت على مرحلتين إذا سار كل شيء على ما يرام، إن الكويت واحدة من أهم المحطات في رحلتي، وعلى صخور شواطئها يمكن أن تتحطم كل آمالي بالنجاح أو إذا كنت محظوظاً فهي ستكون المرفأ الذي ستنبثق منه نجاحات الرحلة كلها.

بعد وداع طويل مع سكان المنزل العديدين ركبنا أنا وعلي الخيول التي كانت تنوء بلوازم الرحلة وأخذنا طريقنا في شوارع البلدة المتعرجة تطل علينا حيطانها الطينية العالية، كانت الأرض رطبة بندى الصباح والحجارة تلمع. مضت ساعة على بزوغ الشمس وكل شيء هادئ. امتدت الأرض المنبسطة أمامنا،لم ير على البعد إلا جبل سنام البركاني الذي ارتفع في الأفق مثل جزيرة صخرية زرقاء تنعكس عليها موجات أشعة شمس الصباح.

أينما نظرت اصطدم بصري بأرض جرداء، لا شجر فيها ولا خيام ولا دخان يرتفع نحو السماء. اعتادت قبيلة المنتفق أن تخيم في الشتاء في هذه المنطقة القريبة من الزبير إلا أنها في هذا العام انحدرت كثيراً

نحو الجنوب بسبب حسن العلاقة التي تقوم حالياً بينهم وبين الشيخ مبارك. كنا نشاهد بين فترة وأخرى رجلاً أو اثنين في طريقهم خلف حميرهم إلى الزبير وقد حملوا ظهور دوابهم بالحشائش علفاً لحيواناتهم. وصلنا بعد مسيرة كيلو مترين إلى واحة اسمها أثل تقوم بها حديقتا نخيل صغيرتان من تلك التي تسقى من بئر تستخرج ماؤها بواسطة السواني، كما هو شائع في تلك المنطقة. بقي أنين السواني ونواحها يداعب آذاننا إلى ان ابتعدنا عن المنطقة واختفت من جديد كل آثار الحياة، ولأن الأرض جرداء ومنبسطة خيل إلينا أننا نتحرك في مكاننا، ولولا اقتراب جبل سنام لاعتقدنا أننا لم نتقدم خطوة واحدة.

بدأنا نشاهد الآن علامات بداية الربيع إذ نبتت في الأرض بعض الحشائش والنباتات الصغيرة أكسبت الأرض لوناً يميل إلى الزرقة الخضراء ستختفي فيما بعد ليعود للأرض لونها الأبيض الرمادي مع حلول الأيام الحارة. اما الآن فالأرض لينة وأحياناً رملية تنتشر فيها حجارة سائبة.

على بعد خمسة إلى ثمانية كليومترات جنوب الزبير مررنا على عدد من المنخفضات المغطاة بالأعشاب وهذه تلتقي كلها فيما بعد شرقاً عند رفدية وتصبح وادياً واحداً. هناك إلى الغرب من طريق سيرنا يوجد منخفض لا يفضي إلى شيء وتربته مالحة ويمتلئ في الشتاء بمياه مالحة. بعد تلك المنطقة تصبح الأرض أكثر اخضراراً حتى تتحول في النهاية إلى بساط أخضر من النباتات المزدهرة. وصلنا صفوان بعد منتصف النهار وهي على بعد عشرة كيلو مترات إلى الشرق من جبل

سنام. يوجد في صفوان قشلة تركية ومركز عسكري صغير به عشرة جنود، كما يوجد بها واحة بها حوالي مائة نخلة، وبعض المنازل المبعثرة في حقول ذرة صغيرة وحوالي عشر آبار. وكان هذا كل الموجود في آخر معقل تركي قبل الاحساء.

بعد استراحة قصيرة بعد الظهر وبعد ان ملأنا قربنا من الآبار استأنفنا رحلتنا ميممين شطر فضاء واسع لا يقطعه إلا انخفاضات رملية بين فترة واخرى. وتدريجياً اختفت الأودية الصغيرة واخذت الأرض في الارتفاع التدريجي نحو الجنوب. هذه الأرض المرتفعة تسمى الأبطح. قبل غروب الشمس بقليل اخذت الأرض تنخفض من جديد وتوقفنا لنطبخ عشاءنا وندع الخيول ترعى.

هبط الليل علينا ولم نعد نرى إلا السنة لهب نارنا وهي ترمي بضوئها على الأشياء من حولنا. وهبت علينا ريح باردة من الشمال، ولكن لأن الشجيرات حولنا قصيرة فإن الرياح تحركها وهكذا فلم نسمع صوت الريح نفسها. ساد الصمت الكامل فلم يقطعه صوت مخلوق حي، ولكن لم يكن ذلك ليعني ان الصحراء شيء ميت فقد كنا نحدق في الظلام الدامس ونرى عن بعد ثنائيات من الأنوار الحمراء الصغيرة المستديرة تبادلنا النظرات.

أسرعنا بتحميل خيولنا واستأنفنا رحلتنا نحو الجنوب نسير ساعة بعد ساعة وخيولنا تتعثر بالظلام وبشجيرات الصحراء الصغيرة. وفجأة عند منتصف الليل ظهر لنا من قلب الظلام رجلان على ظهري بعيرين. اتضح انهما من اهل الزبير واخبرانا ان هناك بدواً على الطريق إلى الجنوب. استمر مسيرنا وعبرنا عدداً من المنحدرات كما فعلنا في

النهار، وعندما أشارت الساعة إلى الواحدة والنصف صباحاً، وبعد ان تعبت الخيول وتعبنا ونظرت في كل الجهات فلم أرَ ناراً تتقد ولم أسمع كلاباً تنبح قررت عندئذ انه لا يوجد حولنا بدو وعليه فقد استقر رايي الى ان نستريح إلى ان تطلع الشمس. تركنا الطريق وقصدنا منخفضاً قريباً تصعب رؤيتنا منه بينما يمكن لنا أن نرى أي شخص يقترب منا من المناطق العالية حولنا يساعدنا في ذلك سماء الليل الصافية التي امتلأت بالنجوم الساطعة. تناوبنا المراقبة والنوم وفي الصباح استأنفنا المسير في أرض لا تختلف طبيعتها عما رأيناه في اليوم السابق.

جرت العادة أن تخيم قبيلة المنتفق في الشتاء حول الزبير، إلا أنها في هذا العام حولت مخيمها إلى هنا، العلاقة التي تقوم بين شيخ الكويت وقبيلة المنتفق ليست في العادة على ما يرام، ولكنها هذا العام تحسنت بعض الشيء، وعليه فقد انتشرت خيام القبيلة فوق الأراضي الخضراء، إلى ما يقرب من عشرة كيلومترات من قلعة مبارك الجهراء. اينما وجهت النظر كنت ترى قطعاناً من الماعز والأغنام تغطي السهول، وبين آونة وأخرى ترى حماراً رمادياً بلجام أبيض يجلس فوق ظهره صبي من القبيلة يرعى الماشية. هؤلاء البدو الرعاة هم اتباع سعدون باشا، وينتشرون في الصيف بين الناصرية وكوت العمارة .

بعد أن مررنا – في منتصف النهار– على منخفض يسمى: زقلا لم نعد نرى البدو كما أن العشب أصبح اقل، وانتشرت في الأرض كتلٌ صخريةٌ ارتفعت باتجاه منخفض على الجانب الجنوبي لهضبة تسمى: المطلاع.

هبطنا من على ظهر الهضبة إلى السهل الممتد تحتها حيث وصلنا في منتصف النهار إلى الجهراء وهي اول نقطة في بلد مبارك. والجهراء قرية تقع وسط سهل منبسط يقطنها حوالي خمسمائة إنسان، في الشمال من القرية تقوم بعض حقول الذرة التي تسقى بواسطة السواني كما يوجد أيضاً مزرعتان للنخيل لا يتعدى عدد أشجارهما المائة. سقينا خيلنا من ماء ليس عذباً وعبرنا القرية حيث توقفنا للراحة في جنوبها بجانب جدران قلعة مبارك الطينية، القلعة مشيدة على الطراز العربي المالوف، مبنى مربع الشكل باربعة ابراج يتخللها فتحات في الجدران. بعد ان شربنا بعض اللبن الذي اشتريناه من الجهراء مع ما لدينا من طعام احضرناه من الزبير، استانفنا سفرنا عبر طريق سهل قليل التضاريس نسير احياناً قرب البحر واحياناً بعيداً عنه ببضعة كيلو مترات. لم نقابل في سيرنا بدواً، ولكنا كنا نرى عرباً يسيرون فرادى وجماعات خلف حمير اثقلت ظهورها باحمال مما دلّ على اننا بقرب منطقة آمنة اكثر مما هو مالوف عادة بالجزيرة.

اشتد الحر علينا وأدى ذلك مع الاحمال وكثافة الذباب والغبار إلى السقوط المتكرر لخيولنا باحمالها. وفي آخر النهار أصيب أحد الخيول بالعرج مما حدا بنا ان نوزع حمولته على الخيول الأخرى. واستمرت مسيرتنا بطيئة متعبة وسط أرض رمادية جافة؛ الهواء ساكنٌ ولا شيء يتحرك. إلى الشرق يقع خليج الكويت يلمع تحت أشعة الشمس مثل لوح زجاجي وإلى جانبه البعيد تقع الكويت نفسها؛ خط طويل منخفض من النقاط الصفراء. وتمر الساعة تلو الساعة دون أن نصبح اكثر قرباً من المدينة. وغربت الشمس في منظر

بهيج جعلت الأفق الغربي يتوهج كالسنة النار، وسرعان ما حل الظلام ولم نصل الكويت بعد. كنت قد سالت احد العرب في الساعة الثالثة بعد الظهر عن الوقت الذي يتوقع ان نصل فيه إلى الكويت، وكان جوابه بعد مسيرة ساعة. وبعد ساعتين كررت السؤال واجاب " بعد ساعة" وعندما سالته مرة ثالثة بعد ساعتين اخريين السؤال نفسه، وحصلت على الجواب نفسه توقفت عن السؤال نهائياً وفقدت الثقة في التقدير العربي للوقت.

وصلنا أول بيوت الكويت بين الساعة الثامنة والتاسعة مساء ولم نرَ إنساناً واحداً في اطراف المدينة التي تقع إلى اليسار من النقطة التي وصلنا إليها. إلى يميننا كانت توجد المدينة المتحركة، تلك التي يقطنها البدو الرحل، والتي تنتشر مبانيها البدائية وخيامها في عمق الصحراء مثل ذراع البحر الممتد إلى اليابسة. ظهرت الخيام اكثر وضوحاً وتقارباً عندما اقتربنا منها ورأينا البدو وهم يتناولون القهوة على ضوء نيرانهم المشتعلة، بينما دوابهم تفترش الأرض مسترخية بعد عناء النهار.

في ركن قصي من تلك المنطقة يقوم السوق بازقته الضيقة التي غطت بعضها السقوف. بعد ان تلمسنا طريقنا عبر تلك الأزقة الضيقة التي يلفها الظلام الدامس وبعد أن غيرنا اتجاهنا مرات عديدة لا يقابلنا إلا دكاكين صغيرة مقفلة، وصلنا اخيراً إلى بناء ضخم يشبه القلاع ترتفع جدرانه إلى ثمانية أوعشرة أمتار، ومن الضخامة بحيث لا يمكن رؤيته كاملاً بالظلام. يشق ذلك المبنى الضخم ممرٌ ضيق لم يسمح لدوابنا أن تمر به باحمالها . وفجاة يمتلئ الممر برجال شاهرين

سلاحهم ومن كل الأخلاط، من زنوج سود إلى عرب من ذوي البشرة الباهته من الشمال ويحمل بعضهم شعلات أوفوانيس. أخذ واحد منهم خطابات التوصية التي حملتها معي لمبارك . مضى بعض الوقت قبل أن يظهر احد رجال الشيخ المقربين (محمد) ويخبرني أنه سيسمح لنا بالدخول. قادونا عبر باب منخفض إلى ممر مظلم بين صفين من الحراس المسلحين حتى وصلنا إلى فناء تحيط به مبان غير متناسقة. أرشدوني إلى غرفة في واحدة من تلك المباني وأحضروا متاعي ووضعوه في ركن منها ثم فرشوا سجادة فوق الحصير الذي يغطي أرض الغرفة حيث أخذت مكاني فوقها مع تزايد فضول رجال الشيخ.

جاء إلى الغرفة عبد حبشي يحمل صينية رصت فوقها طاسات ملئت باللبن ووضعوا بجانبها خبز وتمر ثم عاد محمد ليعتذر -باسم الشيخ- أننا لم نحصل على عشاء أحسن من هذا. أخبرنا أن العشاء قدم في الساعة السادسة مساء، ولم يبق منه شيء يقدم للضيوف القادمين. وجه لنا محمد ورجل آخر من رجال الشيخ بعض الأسئلة التي تثير الشك بينما نحن نتناول عشاءنا. من أنا؟من أين أتيت؟ أين أنا ذاهب؟ هل أنا صديق للإنجليز أم للألمان؟ ولماذا أنا ضيف على الشيخ وليس على الوكيل السياسي الإنجليزي؟ وهكذا دون أخذ بالاعتبار أن كل الأجوبة موجودة بخطابات التوصية. أخيراً انسحب رجال الشيخ وبقيت مع علي في تلك الغرفة التي يضيئها فانوس يعمل بالكاز.

كان ترتيب الغرفة بسيطاً ولكنه نُفِّذ بعناية أكثر مما هو سائد لديهم. كانت هناك سجادة عجمية حيث أجلس وأقابل زواري. وعلى الجدران البيضاء كان يوجد نوافذ ليس لها زجاج طبعاً ولكن لها

شبك حديدي وبراويز من الخشب. سقف الغرفة عادي مثل ذلك الموجود في ما بين النهرين وشرق الجزيرة العربية، صف من الأخشاب الرفيعة تحمل حصائر من سعف النخل المجدول الذي وضع فوقه طبقة من الطين.

استيقظت صباح اليوم التالي على مجيء العبد الحبشي إلى غرفتي حاملاً فطوراً من الحليب الحار والشاي والخبز والعسل وأنواع متعددة من الفطائر. بعد ذلك بقليل أقبل محمد يخبرني ان الشيخ مبارك ينتظر حضوري. تبعته عبر جسر يرتفع عن الأرض حوالي خمسة أمتار يربط بين قصر مبارك والسراي او بيت الدولة. دخلت على حاكم الكويت وهو رجل وقور يبلغ الثالثة والسبعين من عمره، بادي الحيوية يتصدر مجلساً يطل على البحر ويحيط به حوالي ستين رجلاً مسلحاً. كان يجلس فوق كنبة وقد ركز بصره على ذلك الرجل الأوروبي الذي يرتدي لباساً عربياً والذي قام برحلته تحت حماية الحكومة التركية على الرغم من انه لم يكن إنجليزياً اوالمانياً. استقبلني بتحفظ مؤدب إلا ان اسئلته نمت عن عدم ثقة. وبدا واضحاً انه لم يكن متاكداً من كيفية معاملتي. سالني الأسئلة نفسها التي أمر محمد في الليلة السابقة ان يسالنيها وكان مصمماً ان يجد في اجوبتي تناقضاً وخاصة في آرائي السياسية.

كان سهلاً عليَّ ان استشف ان اسئلته هذه تشكل المنعطف الاهم في وضعي امامه وانني لهذا السبب وجدتني في موقف لا احسد عليه. بعد الصداقة الخالصة والحماية الكاملة التي احطت بها في الاراضي الواقعة تحت الحماية التركية، لم يعد بوسعي إلا ان أعبِّر

عن امتناني الخالص للاتراك بينما في الوقت نفسه الآن اعلنت انني إنجليزي الهوى. إن مشاعر الصداقة التي عبرت عنها تجاه الأتراك اثارت اعتراضات عميقة لدى الشيخ مبارك، اعتراضات لم يكن من السهل التغلب عليها لولا مساعي الكابتن شكسبير[1] ممثل الحكومة البريطانية في الكويت الذي ادين له بالفضل الكبير.

مرت عدة أيام كئيبة قبل ان انجح اخيراً في جعل الشيخ مبارك يطمئن لي. انتهى اجتماعي الأول معه بالحصول على وعد منه بإرسال احد رجاله إلى قبيلة العجمان لإيجاد بعض رجالهم الذين يقبلون بمسؤولية مرافقتي إلى القطيف والهفوف، وحيث إنه لم يكن احد من العجمان موجوداً في الكويت في ذلك الوقت فقد مرت أيام عديدة قبل ان يحدث شيء جديد. وعلى اي حال فقد اصدر مبارك امره لمحمد ان يكون بجانبي طوال الوقت وان يطلعني على المدينة. وبعد انتظار طويل ودعوات بأن يأتي احد البدو المنتظرين انتهت المرحلة الأولى من المقابلات، التي على الرغم من انها لم تكن مشجعة، إلا انها كانت مسلية.

---

(١) وليم ايرفن شكسبير (١٨٧٨-١٩١٥): عسكري بريطاني ولد في أسرة متوسطة المعيشة، تخصص في العمل في إدارة الهند. ولد في البنجاب في اواخر عام ١٨٧٨م. دخل كلية "الملك وليم" ثم التحق بكلية ساندهيرست العسكرية ليتخرج برتبة ملازم ثانٍ وعمره عشرون عاماً. ثم التحق بالجيش البريطاني في الهند. فقام بعمل نشيط في إدارتها. فاوصى برسي كوكس بأن يُنقل إلى إدارة الخليج العربي. وشغل عام ١٩٠٤م منصب مساعد المقيم السياسي في مسقط وعمره ٢٦ عاماً. وفي عام ١٩٠٨م اصبح مساعد كوكس. ثم عُين وكيلاً سياسياً في الكويت عام ١٩١٠م. وظل زهاء خمسة اعوام. وكان يقوم كل عام برحلة إلى المناطق المجهولة من الصحراء العربية. وبلغت رحلاته حوالي ١٢٠٠ ميل من الكويت والرياض والعقبة والجوف إلى حدود مصر وفلسطين وسيناء والسويس. وقد توفي مطلع عام ١٩١٥م. عندما كان يُحارب إلى جانب قوات ابن سعود ضد ابن رشيد.

(٢)
الكويت

إن مدينة مبارك التي تشكل نقطة شد وجذب في صراع القوة بين إنجلترا وألمانيا في الشرق الأدنى تقع على شاطئ يمتد جنوب غرب مع شمال شرق ويرتفع تدريجياً من خليج الكويت الذي يستقبل ترسبات شط العرب الطينية الغزيرة. وإذا استثنينا أهمية البلد سياسياً فلا يوجد فيها ما يثير الاهتمام، لأنها أقل بلد وصلته الحضارة الأجنبية من بين الإمارات "المستقلة" على شاطئ البحر العربي ما عدا ربما المكلا التي تقع على الشاطئ الجنوبي للجزيرة. تمتد المدينة حوالي كيلومترين على طول ساحلها وحوالي كيلو متر واحد إلى الداخل.

يقع قصر الشيخ في حوالي منتصف المسافة الممتدة على الشاطئ، ويتكون من مجموعة مبان غير متناسقة وله ملحقات أضيفت في أوقات مختلفة وذات أشكال متفاوته، وهكذا فانت تجد في المبنى النماذج العمرانية السائدة في العراق وبلاد فارس . وينقسم المبنى إلى ثلاثة أقسام جعلت لاستخدامات مختلفة هي: سكن الشيخ الخاص، وقسم النساء، وهذا يقع على مرتفع على البحر، ثم قسم الحرس الخاص والخدم الخاصين والعبيد والضيوف؛ وهذا يأتي خلف الأول، وأخيراً السراي أو دار الحكومة؛ وهذا يقع على الشاطئ مباشرة.

إن مسكن الشيخ بناء ضخم يشبه القلاع ويتوسطه فناء مربع ولا يوجد شبابيك في حيطانه العاليه إنما فوهات صغيرة جعلت في أماكن متفرقة من الجدران، ويتصل البناء كله بالعالم الخارجي من خلال باب صغير يفتح على ممر صغير يفصل بين جناحي القصر العلويين وهما

السكن وقسم الخدم والعبيد، ويوجد فوق الممر وعلى علو خمسة أو ستة امتار قنطرة لا منافذ لها تصل بين القسمين. اخيراً توجد شرفة تطل من خلال رواشينها الخشبية المزخرفة على الشاطئ وعلى المدينةوتصل بقية القصر بالسراي وتعلو فوق شارع عريض يفصلهما.

بني السراي على الطراز المعماري البغدادي بالطوب الاصفر المحروق، وهوعبارة عن طابقين يحوي العلوي منهما قاعتين للاجتماعات تحوطهما شرفات، وبها شبابيك عديدة حوت بعض ظلفاتها الواحاً زجاجية ملونة. غطيت أرض القاعتين بالسجاد العجمي، ورصت في اطرافهما كنبات عريضة من طراز شرق أوروبي وقُسِّم سقف كل منهما إلى مستطيلات بواسطةألواح خشبية .وفي كل مستطيل حفرت صور ملونة لنساء جميلات من جنسيات مختلفة بمن فيهن الأوروبيات، بحيث كونت المجموعة خليطاً حوى كل الأشكال من مختلف البقاع، ولو أن الأجسام السمينة هي الأكثر وجوداً .

في الصباح بعد أن يتناول مبارك فطوره يتوجه إلى السراي يرافقه خادمان ممن يثق بهما جيداً ومجموعة من الحراس، يسير في البداية عبر القنطرة المسقوفة إلى وسط القصر، ومن هناك وعبر قناطر خشبية أخرى يصل إلى وجهته. وخلال سيره عبر الممرات والقناطر تنضم إليه اعداد جديدة من الحراس بحيث يصبح من يسير بصحبته عند وصوله لا يقل عن خمسين رجلاً مدججين بالسلاح. وعندما يكون الجو صحواً – وهو عادة ما يكون كذلك– يتخذ الشيخ مبارك مجلسه في الشرفة المطلة على البحر حيث يستمع إلى احد كتبته يقرأ عليه الخطابات المرسلة له ثم يملي أجوبته عليها. فإذا انتهى من ذلك قام من مكانه

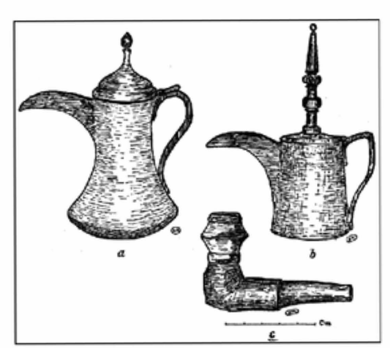
محاطاً أيضاً بحرسه الخاص الذين يطبقون عليه أكثر من وقت قدومه، وركب عربة سوداء يجرها حصانان اسودان يتجه بها إلى إحدى البنايات في وسط السوق. هنا يستقبل زواره ويبت في المشاكل المعروضة عليه من قبل الأشخاص الذين لا يستطيعون مقابلته داخل قصره، حيث لا يستقبل هناك إلا اناساً قليلين ممن يودهم ويثق بهم كلية. وعندما يركب عربته تلك يسير امامه بعض الحراس الخاصين، كما يسير خلف العربة على حصان ابيض حارس زنجي ضخم يرتدي حلة رسمية زرقاء مشهراً بندقيته ومستعداً لاستخدامها. ويسير الموكب عبر أطول شارع في السوق المغطى بسعف النخيل التي تتسلل من خلالها بعض أشعة الشمس. في تلك الأثناء تتوقف كل الأعمال في السوق كي يتاح للناس السلام على الشيخ.

يقابل مبارك زواره في واحدة من بنايتين ذواتي طابقين حيث يجلس احياناً في واحدة واحياناً في الأخرى خلف شبابيكهما المغطاة بالزجاج. حالما يترجل من العربة ويصعد درج واحدة من العمارتين يتفرق حراسه الخاصون الذين يكون قد ازداد عددهم في جميع انحاء السوق.

وهكذا تجد في وسط الفوضى التي تعم السوق ووسط هرج العرب الصاخب ومرجهم ورغاء الإبل، وثغاء الاغنام، وصريخ الأطفال، في وسط تلك الفوضى التي ارتفع ضجيجها في جنبات البازار، وذابت أصداؤها المتباينة في بعضها تجد مجموعات من الرجال المسلحين من خمسة اوعشرة رجال يجلسون في نصف دائرة وترى رجالاً آخرين مسلحين يرابطون عند مداخل السوق.



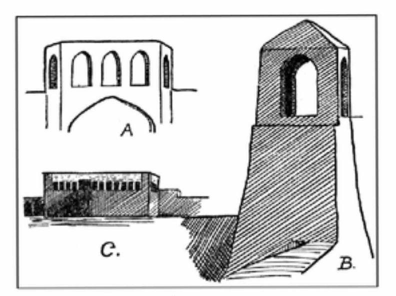
الشيخ مبارك الصباح



A دلة قهوة بغدادية

B دلة قهوة حساوية

C غليون موصلي مصنوع من الطين



A فن العمارة الكويتي

B باب الجامع الكبير مع شكل هندسي يعلوه

C مئذنة

وبينما الشيخ يمارس مهامه في السوق يقوم من بقي من حراسه في القصر بممارسة تمارينهم في الرماية ؛ وهم في الحقيقة لا يصوبون نحو شيء معين بل تجاه أي هدف أو شيء تقع عليه أعينهم، ربما يكون نقطة في جدار القصر. إن البدو المسلحين بالبنادق والمكلفين بحراسة القصر يصوبون بنادقهم على ما يرونه من أهداف خاصة وهم في الدور العلوي للمبنى، كما تشاهد ايضاً زنوجاً ضخام الأجسام وهم يميلون بثقل اجسامهم فوق حافة القناطر الموجودة داخل المبنى لكي يصبحوا أقرب إلى الأهداف التي يصوبون نحوها طلقاتهم مما يجعل طبقة الدهان البيضاء تتطاير من فوق الجدران. وعندما تحين عودة الشيخ يسرع الحراس إلى التوقف عن إطلاق النار ويهرعون إلى الاماكن المحددة لحراستهم وإن كانوا في الواقع لم يهجروها كلية حتى اثناء منافساتهم على التصويب. وإذا حدث ان انهى مبارك اعماله في السوق في وقت مبكر قبل الغداء فإنه يعود إلى السراي حيث يأخذ مجلسه في إحدى الشرفات المطلة على الخليج حيث يتمتع بمنظر مياه البحر وهي تتخذ الواناً مختلفة مع اختلاف أوقات النهار حيث تكون احياناً خضراء كالحشيش وأحياناً زرقاء غامقة، اورمادية على اثر هبوب الريح او هي تصبح مسطحاً ابيض لامعاً كالمرآة عندما تهدأ الريح. وتجد بجانب الشيخ دائماً علبة سجائره المرصعة بالالماس، والتي تحوي سجائر "بغداد" الطويلة، وكذلك منظاره، الذي يشاهد به القوارب وهي ترفع قلوعها مبحرة فوق مياه الخليج، أو ربما يبحث عن سفينة البريد الإنجليزية. بعد ذلك يحين وقت تناول الطعام حيث ترى العبيد وهم يسرعون عبر ممرات القصر حاملين فوق رؤوسهم صواني مليئة بالطعام

الحار وفي أيديهم سفرات مدورة صنعت من سعف النخيل يفرشونها ويضعون الطعام فوقها. توضع الصينية الملأى بالرز الحار المغطى بالسمن في منتصف السفرة وتوضع حولها أرغفة الخبز وصحون ملأى باللحم والسمك. تختفي الحركة نهائياً في ردهات القصر وسطوحه أثناء تناول الطعام، ثم بعد نصف ساعة يعود العبيد لرفع ما يتبقى من الطعام وتنظيف المكان.

يتبع بعد ذلك وقت يسمى "الساعة الهادئة" وهي ساعة طويلة إذ تمتد من منتصف النهار إلى الثالثة بعد الظهر وهو وقت الحر الذي تشوي فيه حرارة الشمس الجدران الطينية ويرسل البحر بخاره الحار فوق المدينة النائمة. في ذلك الوقت ينام الشيخ وينام القصر ومعظم أجزاء المدينة. الشيء الوحيد الذي لا ينام هو الذباب الذي يزداد طنينه في تلك الفترة وتهجم جيوشه على أعين الرجال والحيوانات النائمة. وأخيراً يقطع صمت القيلولة صوت دق متقطع في البداية ثم يزداد تردده حتى يأخذ شكل طرق موسيقى منتظم يصاحبه غناء عبد زنجي يرفع عقيرته بما يزال يذكره من أغاني بلده الأصلي وبما يتماشى مع دقات "نجر" القهوة. ويصحو القصر كله على تلك الدقات، وتسمع من جديد وقع أقدام كسلى تعبر الممرات والسطوح وترى مواسير البنادق اللامعة فوق أكتاف الحراس على الأبواب وفوق القناطر ويصبح كل شيء معداً لاستقبال الشيخ الذي ينتقل مرة أخرى من جناح الحريم إلى مجلسه في السراي. يأخذ الشيخ مكانه فوق كنبة في صدر إحدى صالات الاستقبال، بينما زواره، وكبار أعيان البلد يأخذون أماكنهم فوق أرائك منخفضة على الجانبين.

يدخل رجل أسود يحمل بيده اليسرى فناجين القهوة المصنوعة من القيشاني وباليمنى دلة القهوة ذات الشكل الغريب المصنوعة في الأحساء. يقدم الرجل فناجين القهوة للجميع، يملأ ربع الفنجان فقط بينما يقدم الشيخ مبارك السجائر لبعض المقربين إليه ويتبادل الأحاديث مع معظم الحاضرين. بعد ساعة يتوجه مبارك مرة أخرى إلى السوق ولا يعود إلا قرب غياب الشمس حيث يصلي ثم يتناول وجبة الطعام الرئيسية. عندما يسدل الليل استاره وتسري هبات ريح باردة يشعل الحراس النار عند مداخل القصر، وفي أركان السطوح حيث يمضون جزءاً طويلاً من الليل يحتسون القهوة وينشدون اغانيهم البسيطة.

هكذا تمضي عموماً الأيام والليالي في قصر مبارك ومهما بدت الحياة بسيطة إلا ان تكاليف معيشة الشيخ كبيرة؛ لأنه بالإضافة إلى أهل بيته فقد جمع حوله مائة وخمسين حارساً خاصاً مسلحين لحمايته. كما ان اساس دخله يأتيه ليس من فرض ضرائب مباشرة ولكن من دخل السوق وتحصيل جمارك على الواردات. وعلى ذلك فإن السوق والميناء كانا يمثلان للشيخ قاعدتين هامتين في المجالين الاقتصادي والسياسي.

إن البناء الذي حول ساحل البحر الرملي المفتوح إلى ميناء يستقبل السفن هو بناء متواضع، ولكنه يفي بالغرض خاصة إنه لا توجد في المنطقة امواج عاتية. والميناء يتكون من حواجز اقيمت عند ملامسة المياه للساحل، واستخدمت في بنائها مواد استخرجت من البحر نفسه لا تزيد على رمال الشاطئ المختلطة بالطين الذي يحمله شط العرب - الخليج، ويخلط كل هذا بانواع من القواقع التي تغطي المناطق

الضحلة على الشاطئ وتقام حوائط الميناء من الخلطة الناتجة. وعلى الرغم من نعومتها وهي لينة إلا انها قوية عندما تجف وتعيش فترة طويلة. وعلى الرغم من ذلك فإن حجم الميناء لا يتفق مع نشاط السفن التي ترسو فيه حيث لا يوجد إلا سفينة البريد الإنجليزية التي ترسو كل أسبوع على مسافة نصف ميل في عرض البحر، ويساعد على تفريغ حمولتها ستة قوارب محلية. يبحر ممثل الشيخ لشؤون الجمرك في قاربه وخلفه القوارب الأخرى، ولا تبدأ عملية تفريغ الباخرة إلا بعد ان يصبح على ظهرها. وعند عودة القوارب تؤخذ البضاعة إلى بيت الجمارك وهو بناء مربع ضخم قريب من السراي. نصبت بين مبنى الجمرك والبحر ثلاثة مدافع كبيرة تبدو للناظر إليها أنها من بقايا الحملة البرتغالية على المنطقة عندما جاء البرتغاليون لممارسة التجارة والقرصنة البحرية، هذه المدافع الثلاثة تستخدم لإطلاق قذائفها في المناسبات مثل ما حدث أثناء وجودي عندما حصل الشيخ على وسام تركي، وطلقات تلك المدافع من القوة بحث تهتز لها جدران المنازل وتشكل خطراً على المباني وعلى الناس القريبين منها.

على الرغم من أن ستة زوارق يحتاجها الميناء لحركته التجارية إلا ان في الكويت عدداً كبيراً منها ولكن معظمها يستخدم في صيد اللؤلؤ في البحرين؛ ولذلك فهي تجلس مدفونة في رمال الشاطئ إلى أن يحين موعد موسم الصيد حيث ياتي طواقمها لتهيئتها للرحلة. هناك أيضاً بعض الزوارق الشراعية الاخرى التي تبحر إلى أماكن صغيرة لا تصلها السفن الكبيرة. إن عدد السفن الشراعية التي تعمل في الكويت يصل إلى خمسمائة يعمل معظمها في صيد اللؤلؤ، فإذا كان

طاقم كل سفينة يتراوح بين خمسة عشر إلى عشرين رجلاً نجد ان عدد العاملين في هذا الحقل يصل ما بين عشرة إلى خمسة عشر الف رجل، وحيث إن الكويت بلد صغير لتوفير مثل هذا العدد الكبير من العاملين في هذا الحقل وحده لذلك فهم خليط من جهات عديدة؛ بعضهم ياتي من وسط الجزيرة العربية، كما ان البعض الآخر ياتي من العراق وإيران. عندما ياتي شهر أبريل ويقترب موسم صيد اللؤلؤ تجد اعداداً غفيرة من الشباب يتجمعون في واحات نجد ويتوجهون جماعات في رحلات طويلة وخطيرة بعيداً عن ذويهم إلى الساحل في الكويت قبل ان يبدؤوا رحلتهم إلى مياه الخليج في البحرين في مهمة لا تقل خطراً عن رحلتهم السابقة إلى الكويت. وهؤلاء العمال الذين يبحثون عن عمل مؤقت يشبهون امثالهم من العمال في جهات اخرى من العالم حيث يتسببون في خلل سكاني مؤقت. إن ما يجذب صيادي اللؤلؤ هؤلاء هو حب المغامرة اكثر مما هو الأجر الذي يحصلون عليه. إن ذلك الجانب من المدنية الذي ينشا عندما تكون هناك املاك تحتاج إلى حماية وقانون، هذا الجانب معدوم تماماً عند صياد اللؤلؤ. إن الشيء الوحيد الذي يحضره معه هو رداءان باليان يرتديهما عند الغطس. وعلى هذا فلا شيء لديه يفقده أو يخشى عليه، كما انه لا يعتقد انه سيحصل على اي شيء ذي قيمة كبيرة، وفي الحقيقة فهو لا يحصل على شيء كبير، ففي مقابل طعام رديء واجور قليلة يمضي صياد اللؤلؤ صيفاً طويلاً رطباً، يتعرض فيه لضربات الصخور التي تكثر في شمال البحرين، ويقاسي ويلات الرطوبة الخانقة الحارة التي لا يقلل من قوتها إلا العواصف البحرية التي تهب فجاة. ومع ذلك بعد انتهاء

موسم الصيد لا ينال أولئك الرجال إلا أجوراً تافهة يمنحها لهم أصحاب الزوارق.

إن صيد اللؤلؤ الذي يجذب الشباب الآن من المناطق حول الخليج مهنة قديمة إلا انها لم تكن بمثل الشهرة التي هي عليها الآن، وترجع شهرتها الآن إلى انحسار صناعة أخرى كانت سائدة في المنطقة وانحسرت بعد الاستعمار البريطاني لها، إن المهنة الأخرى المعنية هي القرصنة التي نشطت بقوة وقسوة في المنطقة إلى القرن التاسع عشر، وكانت تلاقي الدعم من وسط الجزيرة، كان للوهابيين في ذلك الوقت منفذ إلى البحر عن طريق الأحساء، ولم يكن ذلك المنفذ شيئاً بسيطاً إذا عرفنا أن أهل الرياض عرفوا كيف يستغلونه خاصة وإن أي سفينة حربية إنجليزية كانت تجذب معظم الشباب القادرين في مجتمعات تلك المناطق، وأما فيما بعد عندما حكم مدحت باشا العراق فقد أصبحت الأحساء تحت الحكم التركي، مما جعل وصول الوهابيين إلى البحر عملية غير سهلة، كما أن الإنجليز عززوا أسطولهم الحربي في المنطقة وتحولوا إلى حماية التجارة المشروعة، إضافة إلى ذلك فإن معظم البضائع الآن تنقل بواسطة سفن تجارية مما يجعل الهجوم عليها أصعب من الهجوم على الزوارق الشراعية.

أما في الكويت فإنهم توقفوا منذ زمن طويل عن ممارسة القرصنة، التي لا تزال تمارس أحياناً في المناطق الواقعة على الساحل العربي بين الأحساء وعمان، وقد نمت منذ سنين عديدة صداقة قوية بين حاكم الكويت والحكومة الهندية.

إن صيد اللؤلؤ مهنة سليمة بمعنى ان اي دم يسفح فيها يقتصر

على الغطاسين انفسهم ومجموعة الرجال الذين يعملون فوق ظهور القوارب، وهناك طبعاً دم يراق في عمليات الصيد هذه. إن قارباً يحمل بحارة من شيعة إيران وآخر بقربه على ظهره رجال وهابيون من عرب شرق الجزيرة لا بد وان تنطلق من احد القاربين شرارة تشعل الصراع بينهما، وحتى لو لم يجد الطرفان اي سبب للشجار فهما على أتم الاستعداد للمشاجرة دون سبب!.. وبجانب تلك المهنة السليمة التي لاشك تنعش اقتصاد المنطقة بنموها المطرد فإن شركة "عبر الباسيفيك" الإنجليزية والتي تقوم بعملها بجدارة شجعت في الوقت الحاضر على القيام بمهام جديدة لتوفير اسباب المعيشة وهي تهريب السلاح، إن هذه المهنة ذات الصلة الوثيقة بالقرصنة والتي لا تخلو من المخاطرة تهيئ فرصاً عظيمة للكسب وتحظى بتأييد السكان. لقد وجدت الحكومة الإنجليزية أن من مصلحتها أن تمنع استيراد السلاح للأراضي التي تقع تحت حكمها، ومع ذلك يبقى السلاح والذخيرة ضروريين للسكان العرب في صراعاتهم القبلية، وعليه فإن المخاطرة وكذلك المكاسب تكون عظيمة في المتاجرة بهاتين السلعتين.

يقوم البحارة الذين يبحثون عن المكاسب برحلات من الخليج الفارسي على زوارق قديمة محطمة ويخوضون غمار المحيط الهندي، وقد يكون ذلك اثناء فصل الأمطار والعواصف، ويسيرون بمحاذاة شواطئ جنوب الجزيرة إلى عدن ومنها إلى جيبوتي، وفي جيبوتي يحصلون على الأسلحة الخربة وذات العيوب الكثيرة، التي هي في الوقت نفسه احب شيء للبدوي والتي قد تكون اللعبة التي تودي بحياته!..

يظهـر الخطر عـادة في طريق العـودة على شكل زوارق حـربيـة إنجليزية مهـمتـهـا اصطيـاد تجار السـلاح أولئك؛ ونتـيجة لذلك تنتـهي أرتال من الأسلحة في قاع البحر بعد أن يكون البحارة الإنجليز أوقفوا كل قـارب شكوا بوجـود أسلحة على ظهـره. تتـمكن بعض القـوارب طبعاً من الإفلات من التفتيش مما يعطي أصحابها فرصة ثمينة لتقاضي أسعـار خيـاليـة نظير قطع سلاح قـد لا يكون لهـا أدنى فائدة، وتبـقى الكويت أيضـاً مسـتـثناة من التـعـامل مع هذا النوع من التـجـارة التي تمارسه مدن عربية أخرى على الشاطئ الشرقي للجزيرة. إن السلطة في الكويت تتركز في يد رجل واحد، وهذا الرجل يملك السلطة والمقدرة لصد أي معارضة. وهكذا فنحن نجد في الكويت أمناً شاملاً تفتقده مناطق السـاحل، وعلى ذلك فـإن سكانهـا، مـا عـدا الحـرس الخـاص للشيخ، لا يملكون سلاحاً، وعليه فإن تجارة السلاح في الكويت ليست ذات أهمية كما أن العلاقة الطيبة التي تربط الشيخ بالحكومة البريطانية جعلت تلك التجارة شيئاً غير مرغوب فيه.

على الرغم من كثرة الزوارق الشراعية في الكويت فإنها لا تختلف كثيراً عن غيرها من الزوارق، مقدمتها مرتفعة قليلاً ومؤخرتها منحدرة قليـلاً حسب أحجامهـا المختلفة، بعضـهـا يوجـد به مسـاحـة صغـيرة للجلوس، وبعضها بدون تلك المساحة، ترتفع فيها أعمدة الأشرعة التي تثبت عليها القلوع. وإذا سرت على الساحل الرملي وجدت عدداً من تلك الزوارق يجري إصلاحـهـا وعـدداً آخـر يجـري بناؤه، وبين مسـافـة وأخـرى تجد بناء يشـبـه الكوخ الصـغـيـر، تحـسـبـه في البـداية مكاناً للاستحمام، لكنه في الحقيقة بيت لقضاء الحاجة، وضع على حافة الماء

كي تغسله الأمواج في حركتها الدائمة. تبدأ المنازل من على بعد متر أو اثنين من المياه، والمسافة هذه تركت للمشاة كي يصلوا إلى منازلهم. أكثر المنازل أهمية وفخامة أقيمت قرب الماء، إذ على بعد حوالي مئات قليلة من الأمتار من السراي يقوم منزل المندوب البريطاني، وهو بناء بارز يرفرف أمامه العلم البريطاني الذي ارتفع فوق سارية عالية وضع فوقها فانوس أحمر يهدي البحارة إلى الميناء. إن بريطانيا التي يحمل ممثلها اسم "الممثل السياسي" هي الدولة الوحيدة التي يوجد لها مندوب في الكويت، ولا يوجد أثر لمندوب تركي، إذ على الرغم من ان الكويت رسمياً تتبع الدولة العثمانية فإن الأتراك لا يستطيعون إرسال ممثل لهم فيها، بل إن الإنسان لا يجد أثراً لوجود تركي في الكويت. إن الوجود التركي يتمثل فقط في ان مبارك يحمل لقب قائمقام الكويت، ويرفع فوق قصره علماً أحمرَ يتوسطه هلال ابيض ونجمة بيضاء. إن التجارة الأوروبية وطرق البحار هي في يد الإنجليز. كما أن حركة السفن في يد الشركة الإنجليزية الهندية للبواخر، وهذه تصل بواخرها مرة في الأسبوع إلى ميناء الكويت ويدير مكاتبها هناك موظفون هنود. أهم شيء تصدره الكويت هو الصوف وجلود الغنم والماعز التي يتم تجفيفها وإضافة الملح لها ليقيها من العطب، أما القطن الأبيض الذي يصنع منه العرب أثوابهم فتصدره لهم شركة من بوسطن لها مركز للتوزيع في عدن، وقماش القطن هذا الذي يكاد يكون الوحيد الذي يصنع منه العرب ثيابهم، يوزع من عدن إلى باقي المناطق في الداخل. اما قماش القطن الملون فياتي من إنجلترا واهم ما يصنع منه هو الشماغ المشهور الذي يلبس على الراس. يوجد في العراق الوان

كثيرة لغطاء الرأس هذا منها، الأبيض والأزرق، والأخضر، أو الأصفر كلية. امّا في الكويت فإنهم يفضلون اللونين الأبيض والأحمر.

تشمل الواردات أيضاً بعض المنتجات الشرقية مثل: النحاس من بغداد وبومبي، والسجاد من إيران، والقهوة من جاوة. ومن السلع المستوردة الاخرى نجد الكبريت، والزبدة والفحم والبهارات، والفواكه والشاي، والسكر. وقد جرى مؤخراً استبدال الكبريت المستورد من استراليا بواسطة تركيا الآسيوية بالكبريت القادم من السويد والذي تجلبه إلى الخليج الفارسي شركة بواخر هامبورج-امريكا. وعلى الرغم من ان الناس هنا محافظون في ملابسهم، فإنهم ليسوا كذلك عندما يتعلق الأمر ببعض البضائع الأوروبية التي بدات تصلهم حديثاً. لم يعط اهل المنطقة انفسهم وقتاً لتكوين تقليد معين، ولهذا تراهم يركضون كالأغنام وراء أي بضاعة جديدة معروضة.

بالإضافة إلى الشركتين اللتين اتى ذكرهما سابقاً هناك شركات أخرى إنجليزية تؤدي خدمات مختلفة في الخليج ؛ ومنذ اشهر قليلة دخلت إلى المنطقة شركة روسية وهي تسيِّر بواخرها بين أودسا والبصرة. لقد جاءت محاولة الشركة الروسية هذه ولا شك كإجراء مضاد بعضه تجاري وبعضه الآخر سياسي لمزاحمة شركة اخرى إنجليزية روسية جعلت من جنوب فارس منطقة نفوذ، ولأن الشيخ مبارك لا يرغب في إيجاد مجال لأي سفن لتعمل في بلاده ما عدا الإنجليزية التي يتعاطف معها فقد رفض مؤخراً محاولات شركة المانية خاصة رغبت ان تفتح لها وكالة في الكويت.

سوف نرى ان موقف الكويت السياسي غير ثابت؛ لأن العلاقة

الحميمة التي تربط الشيخ مع الشركة الإنجليزية الهندية تتعارض مع وضعه كحاكم يتبع تركيا، بينما عداؤه الواضح لألمانيا يتعارض مع تعاطف تركيا مع ألمانيا. إن الأهمية السياسية للكويت في صراع المصالح بين إنجلترا وألمانيا في الشرق الأدنى يأتي من موقعها كبوابة للعراق. إن النهاية المثالية لخط حديد بغداد الذي بني بأموال ألمانية هو ميناء الكويت، ولكن وضع الكويت السياسي الحساس منع الشركة المالكة للخط من استعماله دون إذن موافقة بريطانيا العظمى. وإذا حاولت الشركة أن تحل مشكلتها بتسيير الخط إلى الفاو في نهاية شط العرب فإنها مع ذلك لن تتغلب على الصعوبات التي تواجهها؛ لأنه حتى لو تم ذلك دون تدخل بريطانيا العظمى فإن الأهمية السياسية الرئيسية للخط سوف تظل ناقصة. إن القوة الرئيسية التي تتحكم في الكويت ستبقى هي القوة التي تتحكم بشط العرب؛ وعلى أي حال فإن بناء ميناء على شط العرب سوف يقابل صعوبات تقنية كبيرة نظراً للنشاط الدائم للنهر في تكوين دلتا.

إن العلاقات القائمة على رأس الخليج الفارسي ترجع إلى زيارة الإمبراطور الألماني إلى تركيا في عام ١٩٠١م وهي التي أعطت الدعم لإنشاء الخط الحديدي الألماني – العثماني. وفي الحرب التي كانت تدور رحاها في وسط الجزيرة بين الرياض وحائل كان الشيخ مبارك يدعم الرياض بينما أيدت تركيا حائل، كانت تركيا تحاول أن تضم الكويت إلى إمبراطوريتها كمقاطعة تركية، إلا أن إنجلترا دعمت مباركاً بإرسال إسطول إلى ميناء الخليج. كان مبارك ولا يزال يملك مزرعة نخل كبيرة في الفاو ولهذا فقد كانت لديه أسباب" قوية ليمد منطقة نفوذه

إلى شط العرب. أما ما عدا ذلك فإن حدود إمارة الكويت ليست واضحة وذلك بسبب طبيعة الأرض إلى الداخل. لا توجد مراكز سكنية ما عدا الكويت والجهراء، ولا يمكن تحديد الحدود ولا أين تقع مساكنها إلا بالنظر إلى اي قبيلة تدين بالولاء لمبارك، وعلى هذا يمكن القول: إن حدود الكويت تبدأ من المناطق الواقعة شمال الجهراء على طول وادي الرمة إلى بئر الحفر، ومنها إلى بئر اللصافة ثم بئر الوبرة واخيراً إلى الخليج الفارسي حول راس تناقيب. ففي الصيف مثلاً تخيم قبائل بدوية مثل قبيلة عجمان في جنوب الكويت؛ بينما تخيم قبيلة مطير جنوبهم، ويخيم بعض البدو من الذين يعترفون بحكام حائل شمال الجهرة.

يتكون سكان الكويت من مجموعتين، فبالإضافة إلى الأغلبية العربية التي أتت منذ زمن طويل من وسط الجزيرة، فإن السكان ينقسمون إلى فئتين هما العرب والفرس. أما الفرس فقد اتوا في غالبيتهم من بوشهر، ويتميزون بلباسهم المختلف الذي يتكون أساساً من معطف أزرق غامق طويل، مع بنطال ابيض وبقاماتهم الطويلة وقبعاتهم السوداء، كما انهم لا يشبهون سكان المدينة الاصليين في شيء. وعلى العكس منهم نجد السكان ذوي الأصول العربية الذين يكونون الاغلبية وتغلب عليهم الصفات الوهابية. وبالإضافة إلى هؤلاء المقيمين بصفة دائمة في الكويت نجد غطاسي اللؤلؤ الذين يزحمون البلد في موسم الصيد، ويأتي اخيراً أهل القوافل الذين يؤمُّون الكويت. ولا يوجد شك في ان الكويت تبقى اهم بلد على الساحل الشرقي للجزيرة بما في ذلك مسقط، ومسقط إذا استثنينا منها تجارة

السلاح تبقى منزوية داخل عمان التي هي نفسها معزولة عن بقية اجزاء الجزيرة بالصحراء العربية الجنوبية ولا توجد صلة بينها وبين باقي الأجزاء في الجزيرة.

وعلى ذلك فإن الجزء الأكبر من التجارة في الجزيرة يمر عبر الكويت، ولذلك فهي البوابة ليس فقط للعراق، ولكن لوسط الجزيرة. إنها البلد الوحيد بين شط العرب ورأس مسندم[1] الذي يملك طرقاً طيبة. اما إلى الجنوب منها فإن الظروف القائمة فيها تختلف اختلافاً كبيراً، فإلى الجنوب حتى شاطئ القراصنة نجد المياه ضحلة لدرجة ان القوارب الصغيرة التي يملكها العرب تجد صعوبة في الإبحار فيها، كما ان الصعوبات نفسها الطبيعية نجدها في المياه حول البحرين. إلا اننا نجد على شاطئ القراصنة ان الوضع احياناً أحسن قليلاً مثل المناطق قرب دبي، الميناء الوحيد بين الكويت ومسقط الذي تصله السفن التجارية. لكن حتى هنا في دبي تهب الرياح القوية التي تثير أمواجاً عاتية على شاطئ غير محمي إضافة إلى الطبيعة الجغرافية للمكان وشخصية السكان مما يجعل دبي غير ذات اهمية لأي تجارة على اليابسة. صحيح أن جدة، وينبع على البحر الأحمر تشكلان مركزين للتجارة أكبر من الكويت إلا ان تجارتهما متعلقة بشكل رئيسي بالحجاج الذين يفدون إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، بينما الحركة التجارية في اليمن تعتمد على كثافة سكانها التي تعتبر كبيرة بمقاييس المنطقة. وما عدا الحجاز، نجد الحركة التجارية في داخل الجزيرة ليست كبيرة؛ فالقوافل التجارية بين المدينة وشمال نجد وبين

---

(١) شبه جزيرة مسندم الواقعة على رأس مضيق هرمز وهي تتبع سلطنة عمان.

مكة وجنوب نجد تسير في طرق صحراوية خطرة حيث يندر وجود الماء، وحيث يكون مرورها على بعض القبائل البدوية التي قد تتعرض لها بالسلب والاعتداء ؛ وأخيراً لأن الموانئ والمراكز التركية تطلب رسوماً اعلى من تلك التي تطلبها الكويت.

هناك اعتبارات اخرى تجعل من الكويت البلد المسيطر على التجارة بين باقي موانئ المنطقة، حيث هي البلد الوحيد في المنطقة الذي يعتبر مستقلاً. فقد سهل على سكان وسط الجزيرة الوصول إلى البحر، خاصة وإن الاحساء مقاطعة تركية. اما جهة الجنوب فإن الصحراء تمنع المرور إلى البحر، بينما مناطق الغرب والشمال أيضاً تركية. إن الكره العميق الذي يحمله العرب للأتراك العثمانيين ترك أثراً عميقاً على الحركة التجارية في المناطق التي يحكمها الأتراك، كما أن أسلوب الحكم التركي لم يساعد على علاج هذه الحالة. ولم تحاول تركيا تغيير أسلوبها الجمركي بسبب تعهدها بذلك للقوى الغربية. وسبب آخر لتجنب سكان وسط الجزيرة لنقاط الجمارك التركية هو المنع التركي للتجارة والتعامل في السلاح. ونظراً للخطورة الكبيرة التي تتعرض لها قوافل التجارة بين الساحل ونجد فقد كان من الضروري أن يكون لدى تلك القوافل سلاحٌ لصد هجمات البدو، ولكن ما إن يصبح التجار المسلحون داخل المناطق الواقعة تحت السيطرة التركية حتى تقوم السلطات التركية بمصادرة سلاحهم كما يعاملهم العسكر معاملة سيئة؛ لأنهم خالفوا الأوامر بحمل السلاح. ولهذا السبب وغيره نجد أن الإدارة التركية قصيرة النظر وغيرمتوازنة بتعاملها مع العرب.

وحيث إن الاتراك يعتبرون ان كل وسط الجزيرة خاضعاً لحكمهم فإنهم يتوقعون من كل سلطة في المناطق التابعة لهم ان تحارب الخارجين على القانون، ولا يقوم الاتراك انفسهم بجهد كبير في هذا المجال بل جل ما يعمله التركي، هو ان يحرم مواطني تلك المناطق من الوسائل التي يحمون بها صناعاتهم السليمة. إن حماس الاتراك لمصادرة السلاح شيء يمكن فهمه إذا تذكرنا كم عسكري تركي يفقد حياته يومياً بطلقة رصاص عربية، ولكن سواء نظرنا إلى الوضع من جهة نظر الحاكم اوالمحكوم، فإن تركيا مدانة بعدم كفاءتها وعدم احقيتها ان تملك وتحكم ارضاً عربيةً[1].

أما الكويت فإن عرب الداخل يستطيعون الوصول إليها دون ان يتعرض لهم احد او يصادر اسلحتهم لأن سلطة الحاكم الكويتي قوية.

لا يشكل سوق الكويت مكاناً للبيع والشراء فحسب بل هو نقطة بدء رحلات القوافل، عندما يحين موعد قيام إحدى القوافل تاتي الجمال يقودها اصحابها عبر الطرق الرملية حيث تجمعت اكوام البضائع. والعمل في السوق مثل اي شيء آخر يعمله العرب، يؤدى بصياح وزعيق دائمين مما يزيد الطلب على المشروبات لترطيب الحلوق الجافة، ومن الطبيعي ان تكثر المقاهي في السوق ويكثر تناول القهوة والشاي مع ما يصاحب ذلك من نارجيلة أحياناً، هناك مقهى واحدٌ في السوق يرتاده كبار التجار، واصحاب القوافل كما يرتاده ايضاً أفراد من

---

(١) نلاحظ هنا أن لرحالة ينكر على تركيا حق حكم الارضي العربية، وهو الشيء لطبيعي الذي يعطي كل بلد الحق في الاستقلال، بينما لا يجد غضاضة في إنكار هذا الحق على بلدان الخليج عندما يتعلق الامر بالاستعمار الغربي كما قرأنا في مقدمته.

عائلة الشيخ. ولان للكويت تجارة واسعة مع الداخل فإن السوق يعج بالحركة والنشاط خاصة مع الوجود الدائم للبدو القادمين للتسوق، وربما ترى خياماً سوداء نصبت بدون نظام على أطراف السوق الذي عج بالخراف، والأولاد، والأطفال، والنساء في جماعات متفرقة تفترش الأرض تحت اشعة شمس الشتاء الدافئة. اما الشوارع المحيطة بالسوق فإن المرور فيها غير ممكن إذ سرعان ما يجد المرء نفسه يتعثر بحبل وتد خيمة او يسقط ارضاً بعد ان يصطدم بالوتد نفسه ويقع فوق الخيمة نفسها التي قد لا يزيد ارتفاعها على بضعة أقدام. على مسافة قريبة يقع سوق الفحم المستورد غالباً من إيران، ويغص ذلك السوق بالحمير التي تحمل على ظهورها أخراجاً مصنوعة من سعف النخيل ملئت بالفحم. اما السوق الكبير المفتوح فقد غصَّ بالإبل والحمير والضان والماعز التي احضرها البدو من كل مكان. يحتفظ الشيخ برجل في السوق مهمته أن يتقاضى رسوماً على كل حيوان يباع، يتقاضى أربع آنات ونصفاً على كل نعجة أو معزة ومن روبية إلى أربع روبيات على كل حمار حسب حجمه، اما عن الجمال فإن الرسوم تكون عشرة في المائة من القيمة التي تتراوح عادة بين خمسة جنيهات لجمل الأحمال إلى خمس وعشرين جنيهاً لمطية الركوب.

في كل صباح تنشر على الجانب الشمالي من السوق قلوع الظلال المصنوعة من سعف النخيل، أو القماش تحملها اعمدة بسيطة من العصي بحيث تكوِّن في مجموعها أكواخاً صغيرة يجلس في ظلالها التجار ويضعون امامهم بضائعهم. معظم أولئك الباعة على كل حال هم من النساء اللاتي اختفين كلِّية خلف اغطية كثيفة من القماش

الأسود ينفرج بين حين وآخر عن لون قرمزي من الداخل. تجد في هذا السوق كل أنواع البضائع: فاكهة معلبة، وتمر يحاول الباعة دون نجاح طرد الذباب عنه؛ كما يبيعون عباءات صوفية بعضها خفيف للاستعمال الصيفي، واقطاً وكماة احضرت من المناطق المجاورة. يعرض في السوق أيضاً لحم رديء بدأ العفن يظهر على سطحه، وقرب لامعة ملئت سمناً، كما يبيعون أشياء أخرى عديدة مثل: قطع من قماش، واوان مختلفة، وماكولات تثير الفضول اكثر مما تثير الشهية لا يعرف المرء مما صنعت.

وإذا اتجه الإنسان من سوق الفحم إلى الشارع الرئيسي فإنه يرى على يمينه مقر بعثة الإنجيل الامريكية؛ في ذلك المقر يجلس رجل لابد وان يكون لديه قوة صبر تفوق قوة البشر حيث طوال النهار يشاهد اناساً يمرون أمام مجلسه يتحدثون ويصيحون، ومع ذلك فمن النادر ان يقف احد امام دكانه؛ وإذا حدث ذلك فإن الوضع يصبح أسوأ؛ إذ من الصعب تصور ان نقاشاً يدور بين وهابي ومنصر مسيحي يقود إلى نتيجة إيجابية!

يقوم أكبر مسجد في الكويت إلى اليسار من الشارع الموصل إلى السوق وفي منتصف المسافة إلى السراي. إنه بناء مربع كبير، إنما خلاف ذلك فلم أفهم كنهه. ويقوم فوق بوابته الرئيسية الشمالية قلعة هي بمثابة منارته، وإلى جانب المسجد الرئيسي هذا توجد عدة مساجد في البلد ذات هندسة متواضعة، والمنارة البارزة في مساجد مدن الشرق الأخرى ليست كذلك على الإطلاق. في مساجد الكويت توجد مآذن ولكن معظمها لا يرتفع كثيراً عن اسوار المساجد، إنها

أشياء مربعة بجدران تميل قليلاً إلى الداخل ولها فتحات أربعة صغيرة على مسطح أعلاها. والمآذن مبنية من الطين المجفف بأشعة الشمس.

إلى يمين الشارع الرئيسي الذي يوصل إلى السراي تقع شركة البواخر الإنجليزية والبعثة الأمريكية. والأخيرة عبارة عن خان حسن البناء كان مقراً لمبارك في السابق قبل أن يحوز القوة والثروة اللتين يتمتع بهما الآن.

اما عن باقي المدينة فلا يوجد شيء يستحق الذكر، المنازل كلها من طابق واحد شيد من الطين؛ أما الشبابيك أو بالأحرى الفتحات التي جعلت للهواء والدخان فهي نادراً ما تفتح على الشوارع، اما الأبواب التي لا يوجد منها إلا القليل فتبقى مقفلة. ياتي الطين الذي تصنع منه البيوت من شمال وشرق المدينة حيث تكثر الحفر التي انتزع منها التراب؛ يؤخذ التراب من اي مكان يختاره صاحب المبنى أو حماره. وعندما يمتلئ الخرج بالتراب يوجه الحمار نحو البلد حيث يجري بعد ذلك خلط الطين بالقش وتقام جدران المنزل.

سطوح المنازل مسطحة وبها مرازيب يتسرب منها ماء المطر، وعندما تمطر تكوّن المياه المنصبة من تلك المرازيب مع حركة السيرحفراً في وسط الأزقة الضيقة. إضافة إلى ذلك فإن الأزقة تنقصها النظافة وهي تتراوح في اتساعها بين مترين وستة أمتار ومعظمها يشكل زاوية قائمة مع الشاطئ ويصل بينها ممرات ضيقة مستقيمة.

إن الكويت بلد الصحراء والبحر دون أي حدائق أو مساحات خضراء، وتاتيها الذرة والخضراوات والتمر من الفاو واماكن اخرى إذ لا يرى فيها اي ارض خضراء مزروعة، لا توجد ايضاً بها شجرة واحدة إذا

استثنينا بعض أشجار الأثل. وما عدا الشباب الذين يعملون في البحر والبدو الذين يغشونها والذين لا يعرفون الزراعة فإن الكويت ليست أكثر من مكان طيني بين الصحراء والبحر.

(٣)
التحضير للرحلة

اول لقاء لي مع الشيخ مبارك كان يوم الخميس ٣٠ يناير ١٩١٢م. وعلى الرغم من عدم الثقة الظاهرة على ملامحه والتردد الواضح على وجهه المتغضن، فإن الحاكم الطاعن في السن وعد بمساعدتي، وخرجت من لدنه يقودني رجل اسمه محمد، لأقوم بجولة بمدينة الكويت. ومحمد هذا من الرجال الثقات لدى الأمير، ويعود اصله إلى نجد، كان يرتدي مشلحاً زينت اطرافة بالزري الذي عرفت به الأحساء، ويضع فوق رأسه غترة بيضاء مزركشة، ثبتها على راسه مثل غيره من الرجال بعقال من شعر الماعز زين معظمه بالقصب كما هي العادة في نجد والاحساء بحيث يغطي القصب معظم الجزء المصنوع من الشعر ولا يظهر منه إلا اجزاء بسيطة. اخذنا طريقنا إلى الشاطئ حيث أكوام البضائع المختلفة متناثرة في كل مكان وحيث الزوارق فردت قلوعها البيضاء على صفحة المياه الراكدة في ذلك اليوم المشمس الهادئ؛ فبدت تلك القلوع وقد انعكست عليها أشعة الشمس مثل أجنحة صغيرة بيضاء.

سرنا بمحاذاة الشاطئ ندور بين الفينة والفينة حول الزوارق التي ربضت فوق الرمال تنتظر إصلاحها، كما شاهدنا أكوام الخشب التي أعدت لصناعة زوارق جديدة. قامت أيضاً على مسافات مختلفة بين الزوارق والأخشاب أكواخ صغيرة من سعف النخيل تصلنا من داخلها اصوات الدقات المنتظمة، التي تصدرها أجران هرس القهوة، خارج

بعض الأكواخ رأينا رجالاً يستريحون من عناء تحضير القهوة فوق كراسٍ خشبية مهترئة قبل ان يعودوا إلى اعمالهم لإكمال ما بدؤوه، او ربما لإصلاح زورق قديم .

استمر سيرنا غرباً نحو الميناء إلى ان انعطفنا نحو المدينة عبر زقاق ترابي ضيق قامت على جانبيه جدران طينية متفاوتة الارتفاع . كنا نشاهد بين فترة وأخرى منزلاً كبيراً برز بغير نظام وسط الشارع، وعند المنحنيات كنا نشاهد اكواماً من التراب تجمعت بفعل الرياح القوية، لم نشاهد مخلوقاً في طريقنا هذا، وشعرنا بالوحدة من ذلك الخواء، ولم يمح شعورنا أننا في بلد مهجور إلا بعض اصوات كنا نسمعها بين الحين والآخر، مر بالقرب منا طفلان كانا يلعبان، كما رأينا امرأة تحمل سلة مليئة بمشترياتها من السوق . وقفت المرأة المتشحة بالسواد وقد احنت ظهرها قليلاً تنظر إلينا ولم تستانف سيرها إلا بعد أن ابتعدنا عنها . ولا نستطيع هنا ان نحكم بسرعة على مستوى الجمال لأنه من الصعب ان نفعل ذلك، والنساء مغطيات بالكامل بالألبسة السوداء. وعلى الرغم من كل ذلك، فإن عجلة النساء في تغطية انفسهن عندما يرين غرباء تنتهي بان يظهرن عفواً بعض اجزاء من اقدامهن وكعوبهن، وهذه كانت جميلة جداً . بعد السير في تلك الأزقة الضيقة لبضعة مئات من الأمتار أتينا إلى نهاية المدينة ووصلنا إلى بداية طرق القوافل التي تبدأ من السوق نحو الجهراء، وهو نفس الطريق الذي دخلت منه إلى الكويت . كان المكان عندما وصلت البلد مظلماً وخالياً من الحياة . أما الآن فإن الحياة تتحرك فيه؛ لأن الوقت قبيل الظهر، وما زال الجو لطيفاً . رأينا رجالاً وصبياناً من الصحراء يسوقون امامهم حميراً صغيرة، ناءت

ظهورها باحمال من القش والأخشاب، التي يستخدمها أهل الكويت في وقودهم، بالإضافة إلى الفحم الذي ياتيهم أيضاً من جهات اخرى.

تزدحم حركة المواصلات في هذا الوقت من النهار، حيث يتوجه الجميع نحو السوق العام، قادمين من غرب المدينة متجهين جنوباً، وانضممنا نحن إلى مركب السائرين. سرعان ما وجدنا انفسنا وسط زحام من الباعة يعرضون بضاعاتهم المتنوعة مفروشة على الأرض امامهم. كانوا من الحماس لبيع ما لديهم لدرجة انهم قد لا يترددون في الاخذ بتلابيب اي إنسان يتوخون ان يشتري منهم شيئاً. شققنا طريقنا وسط ذلك الزحام الذي غص به السوق الرئيسي، واشتريت بعض الاشياء، وقصدنا بعد ذلك إلى احدث مقهى في الكويت ويقع على مسافة قصيرة من السوق. إنه بناء مربع متواضع فيه بعض الفتحات الصغيرة للإضاءة، ولهذا فغرفه شبه مظلمة رصت بها بعض الكراسي الخشبية التي غطيت بحصائر يجلس فوقها الزبائن وقد اثنوا ارجلهم تحتهم. إنهم رجال مسنون يشربون القهوة والشاي واحياناً يدخنون النارجيلة. توضع النارجيلة على الأرض ويصل خرطومها إلى فم المدخن، الذي يتكئ مسترخياً فوق الكرسي، ينعم بتدخين تنباكه المفضل. ويختلط صوت الباعة وزبائنهم، يرتفع الصوت احياناً وينخفض احياناً اخرى مع صوت قرقعة النارجيلة، وفرقعات فقاعاتها الهوائية، بحيث يكوّن كل ذلك ضجة متناغمة، العنصر الرئيسي فيها هو الصوت العربي الذي يخرج من عمق الحنجرة.

عدنا في منتصف النهار إلى المنزل حيث تناولنا الغداء وركنا إلى قيلولة الظهيرة إلى الثالثة بعد الظهر، حيث وقت شرب القهوة. مرة

أخرى توجهنا إلى السوق المركزي حيث اشترينا بعض الحاجيات ثم قصدنا المقهى لشرب القهوة والشاي وتبادل الأحاديث، وعدنا عند غياب الشمس إلى المنزل حيث تناولنا طعام العشاء وتبادلنا الحكايات مع رجال الشيخ لبعض الوقت في المساء. قضيت أيامي يوماً وراء يوم، بينما -في الوقت نفسه- كانت المناقشات مع الشيخ حول الرحلة تمر بمازق بعد مازق، احياناً اعتقد ان الامور كلها قد حلت وأحياناً أخرى اجد صعوبات كثيرة تعترض طريقي.

لقد وعدني مبارك في البداية انه سيرسل معي رجالاً يرافقونني إلى الأحساء، ثم عاد وقال إنه من المستحيل إيجاد مثل اولئك الرجال ونصحني ان أستقل الباخرة إلى البحرين. وبعد أخذ ورد معه دون أي نتيجة سالته إن كان يسمح لي ان اسافر مع إحدى القوافل إلى بريدة ومنها إلى الرياض ثم الهفوف، وهو طلب رميته جزافاً ولكن لشدة دهشتي وسروري خدع به ووافق على طلبي. إلا انه عاد يطلب مني بعد وصول باخرة إلى الكويت، ان أرحل معها لانه قد يمضي وقت طويل قبل ان اجد قافلة مسافرة إلى بريدة. ولحسن حظي ان الباخرة أبحرت قبل ان انتهي من حزم امتعتي. وقد كان مبارك في ذلك الوقت مشغولاً باستقبال مبعوث تركي جاء يقدم له الوسام المجيدي اعترافاً بتأييده المادي لتركيا أثناء نزاعها مع إيطاليا على السيطرة على ليبيا.

وبينما كان الشيخ مبارك يواصل احتفالاته على مدى أيام قمت بالتعرف على المنصرين الامريكيين وكذلك على الممثل السياسي الإنجليزي الكابتن و. هـ. ا. شكسبير الذي قتل بعد ذلك في معركة كان يشارك فيها مع قوات ابن سعود. عندما قابلت الشيخ مبارك مرة

ثانية بعد رحيل الأتراك كان موقفه معي أكثر ليناً ؛ وبمساعدة الكابتن شكسبير عقدت اتفاقاً مع رجل عربي هو عبدالعزيز بن عثمان وهو ابن أمير الزلفي السابق. بمقتضى ذلك الاتفاق يمدني السيد عبدالعزيز بستة جمال ويرافقني مع خادمي وأمتعتي من الكويت إلى بريدة ثم عنيزة، وأخيراً إلى الرياض ومنها إلى الهفوف والعقير. وقد وافق الشيخ مبارك أن يمدني بخطابات تقديم جيدة إلى بريدة وإلى ابن سعود في الرياض. اما المتاع الزائد الذي لا احتاجه في رحلتي هذه فقد نصحني الكابتن شكسبير أن أرسله إلى المندوب السامي البريطاني في البحرين الكابتن د.ل.ر.لوريمر. هكذا اصبحت جاهزاً للسفر . يوماً بعد يوم كنت أنتظر رحيل إحدى القوافل لمرافقتها؛ إلا أن الأيام مرت ولم أعثر على قافلة مما حدا بي ان امضي معظم وقتي في السوق اتحدث مع أفراد القوافل المختلفة، ومع البدو اجتهاداً مني في معرفة كل ما تجب معرفته عن الكويت وايضاً -وهو الأهم- عن السفر داخل الجزيرة بعيداً عن البحر .

لاحظت ان السؤال المباشر يثير عدم الثقة ويجاب دون تردد بكذبة؛ ولهذا فقد وجدت من الحكمة أن أصوغ ملاحظتي بحيث استطيع خداع البدوي. كنت اقابل رجالاً من داخل الجزيرة ليس فقط في السوق، بل في قصر مبارك . ولان رجال القبائل يرتادون الكويت بكثرة فقد اتيحت لي فرصٌ كثيرة لازدياد معرفتي باوضاعهم. وجدت أيضاً رجلين من حاشية ابن رشيد في الكويت، لقد احضرا معهما رجلاً ثالثاً لمعالجته في البعثة الطبية الأمريكية. إلا انهما عادا ادراجهما بمريضهما؛ لأنه لم يشف بعد يومين اثنين فقط! عادا بنفس الطريق

الوعر الذي قطعا فيه مئات الأميال قبل أن يعطيا الفرصة للمريض المسكين أن يستريح من عناء الطريق الطويل. إن أبناء الصحراء هؤلاء يستعجلون في كل شيء، وصبرهم لا يزيد على صبر الأطفال، كما أن ثقتهم بالطب الأوروبي معدومة؛ ولهذا لم يتردد رجلا حائل في العودة بمريضهما من حيث أتيا.

بالإضافة إلى رجلي حائل قابلت في القصر تاجر لؤلؤ بحرينياً قدم إلى الكويت بحثاً عن عروس جديدة يتزوجها. كان يرافقه عبدان أسودان ماهران مشغولان دائماً بتحضير القهوة لسيدهما، وبإعادة تعمير أرجيلته ثم الاستمتاع بتدخين ما بقي منها. ولقد باح جعفر بمكنون قلبه إلى محمد الذي نقله بدوره إلى زوجته، التي أخذت تجوب الكويت بحثاً عن امرأة ترضي مقاييس جعفر في الثروة والسمنة، وفي الوقت نفسه تقبل بذلك الرجل الشبيه بالأوراغ أو تانغ. وحيث إنني كنت أسكن بجوار جعفر فقد كنت مطلعاً على دقائق المفاوضات حول ذلك الأمر وعلى تفاصيل العروض المختلفة، وما هو مقبول منها أو غير مقبول. لقد أعطتني محادثاتي مع المجموعة فكرة جيدة ومعلومات طيبة عن العادات المحلية ولكن المجال لا يتسع هنا للإتيان على ذكرها كلها.

هكذا مرت بي الأيام في ذلك العالم الشرقي، إنه عالم مليء بالغريب والجديد، ولكن له في الوقت نفسه جوانب غير محببة مما جعلني أهرب بين فترة وأخرى إلى مركز الوكالة السياسية البريطانية حيث هناك استمتع بالكرم والراحة الإنجلوساكسونية. أصبت أيضاً في هذه الفترة بحمى شديدة كادت تقضي علي، ولم تكد إشاعة مرضي

تنتشر حتى جاءني مرافقي عبدالعزيز مع أخيه يخبراني أن هناك قافلة تستعد للسفر، وإنني إذا لم أستطع السفر الآن بسبب مرضي فإن علي أن أدفع ثمن طعـام الإبل وبدلات تأخـيـرها فـتـرة الانتظار. وزاد عبدالعزيز، بأن بدأ يحسب كم سيكلفني ذلك كل يوم.

لحسن حظي أن نوافذ الغرفة كانت مغلقة، ولذلك فهي مظلمة فلم ير كم أنا كنت مريضاً. ومع ذلك رفعت بنفسي من فوق فراشي واجبت كم أنا سعيد أن القافلة أخيراً جاهزة لبدء الرحلة، أضفت إنني مستلق في الفراش لأنني سئمت الانتظار، وإنني سأكون جاهزاً للسفر خلال نصف ساعة . أسرع عبدالعزيز وأخوه بالهرب من الغرفة، وعندما رأيته مرة ثانية بعد أسبوع كنت بدأت فعلاً في استرداد قوتي بفضل العناية الطبية التي تلقيتها على يد الدكتور هاريسون[1] الطبيب في البعثة التنصيرية الأمريكية.

---

(١) بول هاريسون، طبيب أمريكي رأس البعثة التنصيرية المقيمة في البحرين لعدد من السنين، زار الرياض بعد دعوة الملك عبدالعزيز له لمعالجة الأمراض المنتشرة في نجد، ووصلها في منتصف عام ١٩١٧م، ثم تردد عليها أكثر من مرة بعد ذلك.

(٤)

من الكويت إلى اللصافة

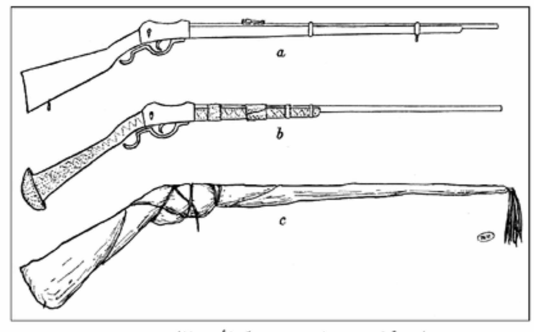
أخيراً جاء يوم الرحيل الذي طال انتظاره وهو ٢٤ فبراير ١٩١٢م. طلع علينا في ذلك الصباح الشيخ مبارك محاطاً بحرسه بينما الشمس ترسل أشعتها الصباحية الساطعة على الكويت. ودعت مضيفي الكريم عند باب غرفتي بالجزء الأوسط من القصر، وأخذ الشيخ طريقه بمشيته البطيئة الرزينة محاطاً بحرسه الخاص، بأزيائهم المزكرشة متوجهاً نحو السوق الرئيسية.

كانت جمالي تنوخ في ممر ضيق، بين جزئي القصر تنتظر تحميلها، حمل بعض رجال الشيخ أمتعتي وساعدوني في وضعها على ظهور الجمال، وبعد ان دفعت بعض النقود للجميع بدءاً بمحمد وانتهاء بالعبد الحبشي، الذي يصب القهوة أصبحت قافلتنا مستعدة لبدء الرحلة. تجنباً للسير في السوق الرئيسي المزدحم اخذنا طريقنا عبر أزقة ضيقة، كان بعضها من الضيق بحيث كانت الاحمال على ظهور الجمال تلامس الجدران من الجانبين؛ وبعد السير لفترة في تلك الأزقة المتعرجة طلعنا أخيراً على الطرف الجنوبي الغربي من السوق. كان الوقت ضحى وهو أكثر ساعات النهار نشاطاً وحركة في السوق، إذ ترى كل أنواع الناس بالبستهم المختلفة وقد اختلطت أصواتهم مع رغاء الإبل وثغاء الأغنام، توقفنا في الجانب الجنوبي من السوق بين خيام البدو حيث ناخت بعض جمال قافلتنا في انتظار تحميلها. تدريجياً انتهى تحميل الجمال التي كان رغاؤها يصم الآذان احتجاجاً على تحميلها. اخيراً اصبحنا مستعدين لبدء الرحلة.

دهشـت بعد ذلك عندما وجدت ان عـدد الجـمال في القافلة لا يزيد على العشرة بالإضافة إلى جمالي، وعندما سالت أين الباقي جاء الجواب إنهم ابتدؤوا سفرهم قبلنا بحوالي ساعتين. افترضت أن ذلك كذباً لأنه لوكان صحيحاً لأيقظني عبدالعزيز قبل منتصف الليل كي أنضم إلى المسافرين، إلا أن العرب هم هكذا ولان عاداتهم غريبة فهم يحتاجون إلى وقت غير عادي لتهيئة كل شيء عند الرحيل. ودون ان ازعج نفسي بمعرفة مصير باقي القافلة انهينا كل استعدادات رحيلنا وبدأنا السير في الساعة التاسعة صباحاً متجهين جنوب غرب فوق أرض منبسطة. وقفنا بعد نصف ساعة على بئر لملء قربنا بالماء لليوم القادم. لم يكن الماء نقياً صالحاً للشرب بل كان سيئاً مالحاً وله رائحة كريهة.

بعد مغادرتنا الآبار جاءني عبدالعزيز يقول: إن عليه ان يعود إلى الكويت؛ لأنه نسي أن يحضر معه ملح الطعام، وكذلك نسي أن يودع زوجته، بالإضافة إلى أعمال أخرى قال إن عليه ان ينجزها ولكنه وعد ان يعود إلينا في المساء. وحيث إنه كان لديه وقت كاف ليقوم بكل هذه المهمات في الأسبوعين الأخيرين؛ فإنني رفضت بإصرار أن يعود الآن إلى الكويت؛ إلا انه على الرغم من ذلك اختفى فجاة ولا ادري متى سأراه ثانية.

توقفنا للراحة في منتصف النهار ونصبنا خيمة صغيرة من قماش خفيف لتقينا حرارة شمس الظهيرة ، كان التوقف أيضاً فرصة لمطايانا لترعى . كان لون الأرض يميل إلى الاخضرار مع زرقة خفيفة بسبب الحشيش والأزهار التي نبتت بعد هطول الأمطار. استرحنا بقية النهار



A بندقية من نوع مارتين – هنري كما أنتجها المصنع.
B نفس البندقية كما يريدها العربي.
C وهنا نفس البندقية في جرابها.

وعند المساء ظهر لنا رجلان يقودان بعض الإبل إلا ان عبدالعزيز لم يظهر له اثر. لحسن الحظ كان معي ايضاً عثمان والد عبدالعزيز الذي اعتبرته رهينة لدي إلى حين عودة ابنه، على الرغم من أنني لم أفكر ان اجعله يصاحبني إلى ان نصل نجد، ولكنني الحت له انه لن يغادر القافلة قبل أن يعود ابنه.

بعد الساعة التاسعة مساء هبطت درجة الحرارة إلى اثنتي عشرة درجة وكانت السماء صافية والريح ساكنة، قبل ان تبدأ نسمات خفيفة تهب من الجنوب الشرقي.

٢٥ فبراير :

لم تات الساعة السابعة والنصف صباح اليوم الثاني إلا وكنا جاهزين لاستئناف رحلتنا، حيث تابعنا مسيرتنا متجهين جنوباً. الأرض هنا منبسطة وتنتشر فيها بعض شجيرات صغيرة وحشائش وبعض الزهور التي لم تتفتح كلية بعد، بينما تزداد كثافة الأعشاب في الأماكن المنخفضة. يطلق على المنطقة هنا "قرعة الكويت".

بعد مسيرة ساعة أخذنا ننحدر إلى منخفض واسع منبسط. إلى الشرق من خط سيرنا، وعلى بعد كيلومتر واحد يوجد بئر تسمى عرفجان، تبدأ بعدها الأرض في الصعود وتنتهي بسهل منبسط قاحل، وإلى الغرب من المنطقة توجد سلسة تلال منخفضة تسمى معدنيات. عند انحدارنا إلى المنخفض وقفنا على طريق دل شكله ان حركة السير عليه كثيفة، إلا انه سرعان ما تلاشى واتضح أنه الطريق الذي يسلكه سكان الكويت في بحثهم عن الأخشاب للوقود. تركنا ذلك الطريق الذي تلاشى اصلاً، وقمنا بشبه دورة حول تلال

معدنيات. ووجدت بعدها أننا إذا واصلنا سيرنا فترة طويلة هكذا دون ان نعرف وجهتنا فإن مخيمنا الثاني سوف يكون على نفس المسافة من الكويت كالمخيم الأول. توقفنا في الساعة العاشرة واربعين دقيقة في بقعة مرتفعة قليلاً جنوب تلال معدنيات. نصبنا الخيام واطلقنا الجمال لترعى، وبدأ الرفاق يعدون القهوة. وكما توقعت لم نر أحداً من بقية القافلة الذين قيل إنهم سبقونا في بدء الرحلة. سرنا في هذا اليوم مدة ساعتين وخمس عشرة دقيقة، بينما سرنا في الأمس مدة ساعتين وخمس وأربعين دقيقة. هكذا يمكن الحكم على مافطعناه من مسافة.

بعد أن استرحنا ساعتين كنا خلالهما مشغولين بشرب فناجين عديدة من القهوة، وبالنقاش الحاد حول ما إذا كنا نستأنف السير أو نبقى في مكاننا قرر العرب بعدها اختيار الوسيلة الأقل جهداً. رصت امتعتنا ومؤونتنا في أكوام فوق بعضها في وسط خيمتي الصغيرة. وتسميتها بالخيمة قد يكون خادعاً إذ هي ليست أكثر من قطعة قماش خفيف، على شكل مربع نصبت على قطعتي خشب لا يزيد طول الواحدة منها على مترين،وثبتت أطرافها بأوتاد غرست في التربة. لم يكن للخيمة جوانب صلبة ولذا فهي عرضة ان تقتلعها اي ريح قوية قد تهب، كما أن القماش رقيقٌ لدرجة انه لا يوفر اي حماية ضد المطر، أو الريح، أو هو إن وفر تلك الحماية فهي لا تكاد تذكر. لكن على أي حال فهو يظللنا من أشعة الشمس، نصب التجار وكذلك افراد القافلة من البدو خيامهم ايضاً حتى اصبح المكان دائرة كبيرة من الخيام والبضائع المكدسة والنار المشتعلة.

انضم بعد الظهر اناس آخرون مع إبلهم إلى المخيم، بينما لم يظهر اثر لعبدالعزيز. بدأ الجو يبرد قليلاً وتلبدت السماء بالغيوم، كما اشتدت قوة الريح المنصبة من أعلى نحو الأرض، حتى إنها هبطت بالدخان المنطلق من الحطب المشتعل إلى الأرض بعد ان كان يصعد إلى الأعلى. وبعد ان قرقع صوت الرعد مرتين متتاليتين بدأ المطر يهطل سهلاً في البداية لكنه سرعان ما انهمر. ومثل ما ابتدأ المطر والرعد فجأة سكتا فجأة، وهدأت الريح ونمنا ليلتنا تلك ملفوفين ببطانيات ثقل وزنها مما تشربته من ماء، وما علق بها من رمال وطين.

٢٦ فبراير:

بقينا في موقعنا في محطتنا الثانية. وجد المسافرون ان شدادات إبلهم قد بدأت تتمزق فشغلوا انفسهم بإصلاحها كما قاموا برتق ما تقطع من الأكياس التي كدسوا بها بضائعهم. وبين فترة واخرى كان اناس آخرون ينضمون مع إبلهم إلى القافلة.

وما زال لم يظهر اثر لعبدالعزيز؛ وفي وقت متاخر من النهار ظهر علينا رجل متجهم الوجه قال إنه مرسل من قبيلة مطير الدويش، وإن اسمه فيصل وإنه جاء يطلب ريالاً واحداً (حوالي ثلاث روبيات) على كل جمل وذلك إتاوة على مرور القافلة بالأراضي الواقعة تحت سيطرة قبيلته. تسيطر قبيلة مطير على كل الآبار الموجودة بين الكويت والزلفي ولهذا فلم يكن لدينا خيار سوى ان ندفع ما طلبه الرجل. وحيث إن المبلغ كان كبيراً فقد بدأت المساومات بينه وبين بعض افراد القافلة واستمرت لساعات والكل يصرخ حتى بحت اصواتهم قبل ان يصلوا إلى نتيجة.

٢٧ فبراير :

نفذ الماء الذي أحضرته من الكويت، وأرسلت أخا عبدالعزيز ليحضر ماء من بئر ملح، التي تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الشرق. أخيراً أصبح كل شيء جاهزاً للرحيل، وامتطينا إبلنا التي أخذت تتهادى بنا عبر الصحراء بتلك المشية التي لا يتقنها إلا جمل. سرنا مدة نصف ساعة متجهين نحو الشرق عبر أرض تناثرت بها التلال ذات السفوح الناعمة المستديرة. بعد فترة أخرى وصلنا إلى ارض طينية منبسطة حيث توجد آبار شيشة ملح وهي مجموعة آبار تتراوح فتحاتها بين متر او اقل وعمقها من ثلاثة إلى اربعة أمتار. وعلى الرغم من قربها من بعضها إلا أن مياه بعض منها جيدة صالحة للشرب، بينما مياه بعض آخر مالحة عفنة، وأخرى لا يوجد بها ماء بالمرة.

هناك طريق إلى الجنوب يوصل إلى الكويت، ولو أن الأعراب المرافقين لنا في الرحلة لم يخطئوا في معرفة الاتجاهات والطرق لكنا وصلنا هذه الآبار بعد اربع ساعات فقط من مغادرة الكويت ووجدنا الماء الصالح للاستعمال بدلاً من هدر يومين كاملين في السير على غير هدى وشرب ماء فاسد؛ ولكن يجب أن يكون المرء مهيئاً لتلقي الصدمات الناتجة عن انعدام البصيرة لدى بدوي الصحراء في شرق الجزيرة، مما قد لا يتفق وما هو معروف عنه؛ إذ إنه يفخر دائماً أنه سيد الصحراء يعرف أسرارها ودقائقها وإنه يتوقع دائماً أن يترك انطباعاً إنه بخرقه البالية وسحنتة التي تلمع من لهب الشمس مخلوق متفوق ومتميز. ملأنا قربنا بالماء من الآبار وعدنا إلى مخيمنا. هناك وجدنا كل

شيء كما تركناه. لم يصل عبدالعزيز بعد، ووجدنا نصف القافلة فقط اعدت نفسها لاستئناف السير. كما وجدنا ان الجدل مع المطيري حول حجم الإتاوة ما زال قائماً.

٢٨ فبراير :

انبثق فجر هذا اليوم مثل الأيام السابقة: سماء صافية، وريح هادئة. وحيث لم تكن هناك إشارات تدل على قرب الرحيل فقد قضيت اليوم استكشف المناطق الواقعة جنوب مخيمنا. كنا نستطيع من نقطة مرتفعة في مخيمنا أن نرى صخرتين متباعدتين ترتفعان مباشرة من الأرض المنبسطة. والمعروف انه عندما يكون الجو حاراً فإن سطح الأرض يرسل موجات من الحرارة تجعل الأشياء عن بعد تبدو أكبر من حجمها الحقيقي او تختفي كلية. ولهذا فإذا أردت أن اعرف كنه تلك الصخرتين فإن علي أن أسير إليهما. أردفت أخا عبدالعزيز خلفي على الجمل وتوجهت نحوهما. رفع رفيقي عقيرته بالحداء بنغمة واحدة رتيبة تواءم وقع لحنها مع خطوات سير الجمل. كان لون الأرض اخضر يميل إلى الرمادي قليلاً بسبب نوع النباتات العشبية التي انتشرت فيه والتي يحمل بعضها زهوراً صفراء ذات سيقان رمادية مثل: الشيح؛ والعوسج، وانواعاً أخرى من الزهور، التي تنبت في الصحراء وقت الربيع.

نقصت تدريجياً كثافة الأعشاب والزهور إلى أن عبرنا وادياً عريضاً، كان واضحاً أنه مجرى سيول وقت هطول الأمطار، وكان مجراه خالياً من النباتات كما ظهرت فيه مساحات كبيرة بيضاء دلت على عنصر الملح الموجود في تربته. لم يكن ايضاً على جانبيه اي من

النبـاتات التي ترى عـادة على جـوانب الوديان في الصـحـراء، إلا أننا شاهدنا ظهور نبات الحمض وبعض نباتات أخرى صغيرة متفرقة كان يزين بعضها زهور برتقالية مصفرة.

توقفنا قليلاً عند خيمتين، بدا لنا أن سكانهما فقراء ولكنهم قدموا لنا بعض اللبن قبل أن نستأنف سيرنا جنوباً. بعد مسيرة ثلاث ساعات من المخيم رقم ٢ وصلنا إلى صخرة وبرة.

يصل ارتفاع الصخرة إلى خمسة وعشرين متراً من سطح الأرض وهي كتلة من الحجارة الرملية وبها نتوءات من الأحجار الزجاجية في مثل حجم الجوز. لقد استطعنا رؤية تلك الصخرة من على بعد يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين كيلومتراً وهذا يدل على استواء المنطقة حولها.

ربطنا الأرجل الأمامية لإبلنا[١] وتسلقنا الصخرة التي ما إن أصبحنا على قمتها حتى فوجئنا بوجود بدوي جالس بهدوء كامل فوق القمة يحدق في الفضاء الذي حوله. لم يكن يراقب أي قطعان من الماشية حوله حيث لم يكن هناك أي ماشية كما لم يكن في الجوار أي خيام.

كانت الأرض الخضراء المائلة للون الرمادي، تمتد في كل الاتجاهات ما عدا الجنوب الشرقي، حيث يوجد على بعد ١٢ إلى ١٥ كيلومتراً سلسلة طويلة من التلال المنخفضة والمسماة برقان الصبيحية. شاهدنا على البعد خيمة بدو فهبطنا من قمة الصخرة وركبنا متجهين

---

(١) بدأ الرحالة طريقه إلى الصخرة ومعه جمل واحد كما قال.

غرباً مع جنوب غرب نحوها. رأينا عندما اقتربنا قطيعاً من الأغنام السمينة ترعى، كما رأينا بعض الحمير ولم نشاهد جمالاً. كان بيت الشعر الأسود من الحجم الكبير إذ نصب على تسعة أعمدة وثلاثة أعمدة في العمق، وقام في وسطه عمود ضخم بلغ طوله تسعة أمتار. إنه بيت الشعر النموذجي في تلك المنطقة من شرق الجزيرة؛ في الوسط من بيت الشعر هذا، قام حاجز من القماش المخطط قسم البيت الى قسمين: قسم للحريم وآخر للرجال. تنصب بيوت الشعر في هذه المنطقة بحيث تكون أطرافها إلى الشرق والغرب وواجهاتها نحو الشمال حيث يكون هناك ظلال طوال النهار وحيث تتعرض لنسيم الشمال دون أي موانع. قدم لنا صاحب البيت اللبن والتمر مع الزبدة وملأ لنا قربة باللبن.

أخذنا طريقنا للعودة إلى المخيم وسط حرارة شمس تبهر العيون وموجات هواء حار تتراقص امامنا. سرنا غرباً وعبرنا الوادي المالح وفي كل منخفض كان يخيل لنا أننا مقبلون على بحيرة ماء؛ لنكتشف ونحن على بعد خطوات منها أنها مجرد سراب. قابلتنا إبل جماعتنا ترعى بعيدة عن مقر المخيم دون ان يكون أحد معها.

عدنا إلى القافلة ووجدنا ان عدد المسافرين قد اكتمل تقريباً إذ بلغ مجموع الرجال خمسين بينما اصبح عدد الجمال أكثر من مائة. إلا ان دليل القافلة عبدالعزيز ما زال متغيباً. واخيراً وبعد الغروب اقبل العاصي الغائب يتخايل فوق راحلته بحلته الحربية الكاملة، بما فيها البندقية والسيف، والخيوط المزركشة الملونة تتدلى من شداد مطيته. ما إن رآه عثمان حتى انطلق يوبخه باعلى صوته قبل ان يقفل هو نفسه

عائداً إلى الكويت، بينما رسمت على وجه عبدالعزيز علامات الأسف وتانيب الضمير قبل أن أبدأ أنا أيضاً في توجيه اللوم له. وبعد دقائق قليلة نفض عن وجهه قناع الأسف، وأقبل على الرجل المطيري يصرخ فيه احتجاجاً على حجم الإتاوة التي يطلبها الأخير، الذي قابله بنفس نوع الصراخ حتى خيل لي أن كلبين يجلدان بالسياط. أما غير ذلك فقد كان المساء هادئاً والطقس مستقراً والجو صافياً.

٢٩ فبراير :

تهيأنا للرحيل من محطتنا الثانية في الساعة السابعة صباحاً، حيث سرنا في فلاة جرداء منخفضة، كما في اليوم السابق متجهين جنوباً مع جنوب غرب. شاهدنا نباتات عديدة مثل تلك التي شاهدناها في اليوم السابق. اتخذ أخو عبدالعزيز مكانه خلفي على ظهر الجمل. انفصلنا عن القافلة متجهين مرة أخرى نحو صخرة وبرة، حيث وجه إلينا البدوي الكويتي الذي استضافنا أمس الدعوة مرة أخرى عندما تشد القافلة رحالها من جديد. وصلنا المكان بعد مسيرة ساعة واستطعنا بعد صعوبة أن نعثر على الخيمة. قدموا لنا الرز والتمر والسمن واللبن. كان جزء من الخيمة قد خصص لإيواء صغار الخراف والماعز، وقد ربط حبل بين عمودين في ذلك الجزء لمنعها من الإفلات والهرب.

غادرنا الخيمة بعد أن قدم لنا صاحبها أحسن ما لديه من طعام وملأ إحدى قربنا باللبن الطازج. اتجهنا غرباً حيث مررنا بعد فترة وجيزة على خيمة أخرى دعينا لتناول القهوة فيها. وما إن استأنفنا مسيرنا، وعلى مسافة قريبة قابلتنا خيمة ثالثة حيث زودنا أهلها أيضاً باللبن

الطازج ملأنا به قربة أخرى. لم يكن في الخيمة الثالثة أي خراف أوتيوس صغيرة، بل رأينا بدلاً منها حصاناً مربوطاً إلى احد أطنابها. كان واضحاً أن ذلك الحصان هو أغلى ما يملكه صاحب بيت الشعر هذا. كان امام الحصان كومة من الأعشاب الجافة وكان ممتلئاً في وسطه وقصير الساقين وقبيحاً لكنه كان محل عناية صاحبه.

بعد فترة وجيزة من مغادرتنا لبيت الشعر الثالث، أقبلت إبل قافلتنا تمشي الهوينى وترعى أثناء سيرها. وصلنا محطتنا الثالثة قرب بئر الطويل بعد منتصف النهار بقليل. أمضينا فترة بعد الظهر في التزود بالماء إذ كان علينا بعد ذلك أن نسير ستة أيام قبل الوصول إلى اي مصدر ماء وهو بئر اللصافة في قلب الصحراء.

وكما في ملح يوجد هنا عدة آبار إلا أن الماء يؤخذ من واحدة منها على عمق اثني عشر متراً. منذ مدة لم تكن هناك آبار في هذه المنطقة، حيث كانت القوافل منذ خمس عشرة سنة أو عشرين سنة تتزود بالماء من بئر برقان الصبيحية الواقعة جنوب شرق الطويل. سحب الرجال الماء بواسطة دلو صغير أعدوه لذلك، وقد حل المساء قبل ان يكتمل ملء القرب كلها وتراخى القوم عن العمل واندمجوا في الأحاديث وشرب القهوة.

غرة مارس:

هب أفراد القافلة من نومهم قبل ساعتين من طلوع الشمس على صراخ وزعيق زملائهم يوقظونهم استعداداً للرحيل. وجدنا أن حصانين اختفيا أثناء الليل. جيء بالحصانين من العراق لبيعهما في نجد حيث

يجلبان ثمناً عالياً. شغل أصحابهما بالحديث والسمر وشرب القهوة، علاوة على انهم لم يفكروا في تقييدهما لمنع حركتهما. وهكذا كان من الطبيعي أن يهرب الحصانان ربما في اتجاه الكويت.

انطلق بعض الرجال على ركائبهم بحثاً عن الجوادين، وحوالي منتصف النهار عادوا والجوادان معهم.

على الرغم من أنه بقي من النهار سبع ساعات كاملة إلا أن أفراد القافلة لم يفكروا في الرحيل. بقوا في اماكنهم وكانه لا سفر امامهم، سعداء بعثورهم على الجوادين الضائعين يتحدثون ويشربون المزيد من القهوة. اما المطيري ذلك المخلوق صاحب الخرق البالية الذي يذكر الإنسان بالضبع والثعلب، والذي يطالب بالإتاوة فقد اصبح أكثر جراة في مطالبته، وكان يتكلم بقوة، ويضرب الأرض بعصاه مما اثار الغبار في عيون من حوله. اخيراً جاء عبدالعزيز بحيلة انطلت عليه، فقد ادعى انه يحشو بندقيته بالرصاص ثم وجهها نحو راسه، وعلى الرغم من أنه كان تمثيلاً فقط إلا انه ادى الغرض المطلوب.

اثناء وجودنا في المحطة الثالثة هذه قررت أن أشتري شاة واوزعها على رجالي. أرسلت احدهم إلى خيمة ليست بعيدة، وبعد فترة عاد ومعه أعرابي يجر معه شاة سمينة. طلب الأعرابي في البداية عشرة ريالات (جنيهاً واحداً). انخفض الثمن بسرعة إلى خمسة ريالات إلا انني اصررت على دفع أربعة فقط. واود ان اقول هنا انها المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً من الشرق لم يغره رنين الدراهم وهي تلمع أمام عينيه. اصر البدوي على الرفض وعاد بشاته من حيث اتى ولم يتمتع رجالي باللحم المشوي هذه المرة.

إن الأيـام التي نقضيـهـا دون حـركـة ليسـت مريحـة، فالرجـال لا يقومون باي اعمـال ما عدا احاديثـهـم التي لا تنتـهي والتي تصـبح مزعجة وخاصة في هذه القافلة التي لا يتعب الناس فيها من الأسئلة عن من اكـون، ومن اين اتيـت وإلى اين ذاهـب. يعـتـقـد بعـضـهـم انـني إنجليزي بينما يؤكد البعض الآخر –من إشاعات سمعوها في الكويت– انـني عـصـمـلي (تركي)، ويفـاخـر البـعض بمعلومـاتهم الجـغـرافـيـة وينسـبوني إلى فرنسـا او روسـيـا. إن هذه التخمينات والاسـتقراءات لا ضررمنها ولكنها تصبح شيئاً آخر عندما يبدأ التساؤل عن ديانتي. ويوماً بعد يوم تزداد النظرات العدائية نحوي واسمع اكثر فاكثر كلمة نصراني. كما أن الجميع ينظرون بارتياب إلى القلائل في القافلة الذين تربطني بهم علاقة طيبة. كـمـا ان كل ما اقوم به من حركات اصبح ينظر إليـه بشك وارتيـاب خـاصـة بعـد رحلتي إلى وبرة، التي اثارت فضولهم وحـفـيظتـهـم ضـدي. اصبح من الصعب القيـام باي عـمل يتطلب استخدام معدات علمية حيث إن مثل هذه المعدات لها تاثير سيئ على سكان المنطقة. إنهم حساسون من مثل هذه المعدات الحديثة لدرجـة انهـم يفـقـدون السيطرة على أنفسـهـم عند رؤيتـهـا، هذا إذا استثنينا الساعات والناظور والأسلحة .

يوماً بعد يوم تضاءلت رغبة المسافرين في التحدث معي، ونتيجة لذلك اصبح من شبـه المسـتحـيل الحـصـول على اي مـعلومـات عن الأراضي والمناطق التي نمر بها، فإذا أبديت اهتمامي باي شيء فلا اجد لدى العرب كلمـة واحـدة عنه. وإذا سالـت سؤالاً فربما اتلقى جواباً، ولكنه في غالب الأحوال جوابٌ خال من الحقيقة. ولم استطع الحصول

على بعض المعلومات الصحيحة إلا بعد ان أوجه سيلاً من الأسئلة أتحاشى ان تكون مباشرة.

لم تكن كل القافلة ذاهبة إلى بريدة، بعض المسافرين يريدون عنيزة، والبعض الآخر يقصد الزلفي، بينما هناك أناس وجهتهم شقراء. وتلك الحقيقة تجعل مهمتي من الصعوبة بمكان، حيث عليَّ أن ألجأ إلى طرق غير عادية للوصول إلى المعلومات والأهداف التي أريدها، فلو كانت القافلة كلها متجهة إلى بريدة لكانت مهمتي اسهل إذ علي عندها أن أتعامل فقط مع تزمت بريدة، ولكن والحال كما هو عليه فإن انباء وجود كافر في القافلة ستنتشر في شقراء وغيرها من البلدان قبل أن أصلها، وانتشار خبر كهذا مع ما قد يصحبه من إشاعات يجعل نجاتي بجلدي من أصعب الأمور.

٢ مارس:

تحركت القافلة من محطة الطويل في السادسة والربع صباحاً متجهة جنوباً – غرباً. لم يكن هناك طريق واضح تسير عليه القافلة بل سارت عبر القفار، ولا اعرف كيف ولا باي وسيلة كانوا يعرفون الاتجاه الصحيح، ناءت ظهور الإبل باحمال كانت تئن تحت وطأتها، واقتيدت في جماعات عبر السهول المنبسطة أمامها، في مقدمة القافلة سار أصحاب الإبل والتجار يتجادلون حول الاتجاه الصحيح. بعد حوالي ساعتين توقفنا لتناول القهوة والتمر بينما استمر سير القافلة على ان نتبعها بعد ذلك. إن جمع القهوة والتمر معاً والذي يستغرق بضع دقائق، يعتبر في هذا الجزء من شرق ووسط الجزيرة مقوياً للباه ويتناولونه باستمرار وباستمتاع كبير.

ازدادت حرارة الجو مع ارتفاع الشمس في السماء، وبدأ السراب يظهر حيث يختفي الأفق، وتظهر بدلاً منه جزر معلقة بين السماء والأرض تحيط بها المياه من كل جانب. وصلنا إلى بئر تدعى أم قادر لكنها لم تكن عميقة، ولا يوجد بها ماء في الصيف، إلا إذا كان الشتاء ممطراً ولم يكن هذا الشتاء كذلك . بعد أربع ساعات من السفر وبعد أن خرجنا من المنخفض الذي سرنا به تلك المدة اقمنا مخيمنا من جديد. كان أصحاب الحصانين اللذين هربا في اليوم السابق قد نسوا أن يملؤوا قربهم بالماء بسبب جدالهم حول من هو المسؤول عن هرب الجوادين، ولذا فقد ضاع باقي اليوم في عودتهم لملء قربهم بالماء.

٣ مارس:

شددنا رحالنا في الصباح الباكر متجهين جنوب غرب. بعد ساعة مررنا بثلاثة عشر بيت شعر، ترعى حولها قطعان من الجمال. الأرض هنا مسطحة وقد اختفت الزهور الصفراء وحل مكانها عشب أخضر، وفي وسط هذا البساط الأخضر قتلت أول حية، بلغ طولها حوالي المتر وكانت سامة، ولم أتمكن من فحصها بدقة خوفاً من إثارة عداوة رجال القافلة. يطلق على هذا المنبسط من الأرض الخضراء الكراع. بدأت تظهر لنا بعد أن عبرنا هذه المنطقة بعض الشجيرات القزمة الرمادية ولم تعد الأرض مسطحة والاختلاف في السطح ولو لبضعة سنتيمترات ينتج عنه اختلاف في النباتات : فهو عشبي في الأرض المسطحة، وذو نبتات وشجيرات في الأرض المنخفضة. وبين آونة وأخرى تقفز أرنبة مذعورة سرعان ما تختفي بين الشجيرات. اقمنا مخيمنا بعد العصر،

وأسرع المسافرون في اقتلاع الشجيرات ذوات الأوراق التي هي من الدقة بحيث لا ترى إلا بواسطة مجهر، ورميها في النار للوقود.

٤ مارس:

قبل السادسة صباحاً بقليل، كانت القافلة تتخذ طريقها مرة أخرى نحو وجهتها. اصبحت الشجيرات الآن اكثر وجوداً من الاعشاب. بدأ السراب في الظهور، كما يفعل دائماً في الجو الصحو عندما ترتفع الشمس في كبد السماء. إن هذه الظاهرة التي تمنع رؤية أي شيء لا يكون محيطاً بالمشاهد تستمر إلى ما قبل ساعتين من غروب الشمس وتكون اكثر وضوحاً قبل ولمدة ساعتين بعد منتصف النهار. شاهدنا جموعاً من الغزلان، إلا أنها كانت تختفي بسرعة البرق داخل السراب او خلف الأفق. من ناحية اخرى كانت الأرانب تبقى في مكانها إلى ان يطأ البعير فوق كومة العشب التي اختارتها لتاخذ قسطاً من الراحة او النوم. كان الإغراء كبيراً لاستبدال الطعام المالوف بلحم أرنب مشوي، إلا ان احتمال إصابة رأس بعير من مسدس، بدلاً من إصابة الأرنب نفسه كان كبيراً.

إن السهول التي كانت بالأمس اشبه ببساط اخضر، ولو أنه اخضرار بسيط، اصبحت الآن شبه جرداء، كما ان الشجيرات التي كنا نشاهدها أصبحت أقل وجوداً إلى ان اختفت كلية، وهكذا لم نكن نتوقع ان نجد وقوداً في محطتنا القادمة. وصلنا إلى موقع مخيم قديم ما زالت به معالم خيام نصبت وآثار نار أشعلت به، واهم من ذلك وجدنا اكواماً من بقايا روث الجمال. هجم المسافرون على الروث يجمعونه، واستانفنا بعد ذلك السير. مرة أخرى بدات بعض النباتات

والزهور تظهـر في المنطقـة. وجـدنا بعض النبـاتات في الأمـاكن المنخفضة، نباتات لا يزيد ارتفاعها عن بضعة سنتيمترات، يطلق على المنطقة اسم قارة. وبعد مسير تسع ساعات نصبنا مخيمنا. عملنا جاهدين على أن نجد مكاناً لمخيمنا قبل صلاة العصر حتى يكون لدى الإبل وقتٌ كي تقتات من الأعشاب في ضوء النهار، وتسخن القهوة حتى تصبح صالحة للشرب قبل أن يتوجه المؤمنون إلى عبادتهم. ولكي يتمكن المسافرون من التمتع بتناول فنجان قهوتهم المحبب؛ فقد أدوا صلاتهم بسرعة. كنا نسافر في اليومين الأخيرين في منطقة تكثر فيها الكماة التي يطلقون عليها الفقع. كانت من الكثرة بحيث ملأنا منها أكياساً كثيرة. إن الكماة تعد الآن من أهم مقومات الطعام ويحضر لي علي منها كل يوم طبقاً لذيذاً بالكاري.

أما ما هو سيئ فقد نفد الفحم الذي أحضرناه معنا من الكويت وكان علينا أن نستخدم روث الجمال، وهو وقود غير مستحب خاصة في تحضير الخبز. إن خبزنا يحضر على طريقة البان كيك حيث توضع العجينة مدورة بعد ترقيقها، فوق لوح دائري من الصاج يقوم على موقد من ثلاثة أحجار؛ إلا أنه لم يكن متقناً في ذلك المساء، مما اضطرنا إلى أن نملأ حقائبنا بخبز نصف ناضج. تناولنا عشاءنا بعد صلاة المغرب، وأقبلنا عليه بشهية نهمة. وعادت الجمال التي كانت ترعى بعد هبوط الليل يقودها رجالنا المسلحون. تجمعت في هدوء تعلو هاماتها فوق لون الشفق الأحمر، في وسط أكوام من الرماد كانت ناراً لأناس حطوا رحالهم قبلنا في ذلك المكان. وحرص أصحابها على عقلها حتى لا تستطيع مغادرة المخيم. أزيحت عنها سروجها التي

جلس خلفها رجال مسلحون يحرسون القافلة أثناء الليل. لا تنصب الخيام مطلقاً أثناء الليل؛ حتى لا يراها الأعداء، وكل شيء في ذلك السهل المنبسط ينبغي أن يكون أقرب ما يكون إلى الأرض.

رصت الأرغفة النيئة فوق بعضها البعض، ووضعت جانباً لليوم التالي، وأوشكت النار الموقدة على الانطفاء ونام الجميع، ما عدا الحراس. عندما انطلقت فجأة صرخة أعقبها صياح كثير؛ هب الجميع يركضون هنا وهناك في فوضى واضحة، كما علا الهرج والمرج من كل جانب. اندفع واحد من الرجال ببندقيته ولكن دون ذخيرة وركض آخر بذخيرة دون بندقية، وبعد كل هذا لم يتضح لماذا أطلق أحدهم الصرخة الأولى. قال حراسنا إنهم ظنوا أنهم رأوا شيئاً، وشيئاً يعني عدواً يهددهم. اتضح في النهاية أن إطلاق صيحة التحذير لم تكن بدون سبب إذ سرعان ما ظهر من قلب الظلام مجموعة من الرجال على ظهور إبلهم قالوا -عندما وصلوا إلى مخيمنا- إنهم مسافرون ولا ينوون بنا شراً، ونصبوا مخيمهم بجوارنا.

٥ مارس:

كالعادة نهضنا مبكرين واستأنفنا سيرنا متجهين جنوب غرب في منطقة القرعة نفسها. انضم إلينا الآن الأعراب الذين وصلوا الليلة السابقة – ولو أنهم بقوا في مجموعة منفصلة ساروا على يمين القافلة. كانت اشكالهم توحي بعدم الثقة بملابسهم الرثة وصراخهم مع بعضهم البعض كمجموعة من الغربان. بعد مسيرة خمس ساعات، ابتدأ وجه الأرض يتغير. والمنطقة التي تلي القرعة هي الدبدبة وهي أرض سهلة منبسطة تغطيها الحشائش الكثيفة. وصلنا بعد الظهر إلى

منطقة منخفضة واسعة يشقها واد يتجه شرقاً يدعى السُوبان، وهناك اقمنا مخيمنا - وهو المحطة السابعة. كان ذلك في الساعة الثانية وأربعين دقيقة بعد الظهر.

قبل غياب الشمس بنصف ساعة، وصلت للمخيم اخبار مزعجة عن راكب مقبل نحونا ويقوم بحركات تهديدية عنيفة، وهو على ظهر جمله. لقد رأينا بعض البدو إلى الجنوب من خط سيرنا وكانوا يسبقون إبلنا التي نتركها ترعى امامنا، وقيل ايضاً إن بعض هذه الإبل قد اختفت. تراكض الجميع يحملون أسلحتهم وسرى الهرج والمرج مرة اخرى وانتهى اخيراً عن ثمانية رجال من انشط افراد القافلة وقد قفزوا على ظهور جيادهم العارية، وانطلقوا يلوحون ببنادقهم ذات اليمين وذات الشمال، ولكن دون ان تقع اي حادثة. كان عبدالعزيز الذي نجده دائماً سباقاً إلى الدخول في معركة محتملة واحداً من الثمانية. خلع عباءته وغطاء رأسه وبقي في قميص داخلي فقط. كانت خصلات شعره التي جدلها إلى خمس جدائل تتطاير خلفه بإيقاع تناسق مع ركض حصانه . كان سلاحه يتكون من بندقية وخنجر ومسدسي الذي لم يعرف طبعاً كيف يستعمله. أعرت بندقيتي إلى عجمي، البدوي الآخر الذي يرافقني؛ وهكذا سلمت كل ما معي من سلاح إلى اناس لم تكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية استعمال هذا السلاح. هكذا تركت المتحمسين للحرب ينطلقون بينما جلست أتناول غداءً متأخراً، وانا على يقين أن نهاية الاستنفار ستنتهي على خير. كانت هناك امرأتان تمتان بصلة ما إلى بعض الذين انطلقوا على خيولهم، لم ينقطع بكاؤهما ونواحهما على ذويهما.

كلما كان عدد البنادق التي يحملها المتهيئون للحرب كبيراً كان تاثيرها اكبر على الطرف الآخر. كما انه من ناحية ثانية كلما ازداد عدد البنادق التي لا تعمل كان ذلك احسن؛ لأن العرب يصوبون بنادقهم كيفما اتفق، ويطلقون نيرانهم من مسافات بعيدة واحتمال إصابة العدو ضعيفٌ ويأتي مصادفة. وقد يحدث أيضاً ان انطلاقاً مفاجئاً لرصاصة يسبب كثيراً من الفوضى بين صفوفهم .

إن اشهر بندقية في الجزيرة هي المسماة: (مارتيني - هنري)، وهي تُهَرَّب من جيبوتي إلى مسقط ومن هناك توزع في أنحاء الجزيرة. وحالما يملك العربي واحدة من هذه البنادق يبدأ في إجراء تغييرات عليها. تكتسب البندقية بعد ذلك الصنعة العربية وتفقد قيمتها كسلاح فعال. اول شيء يزيحه العربي من البندقية هو مؤشرها الخلفي لانه لا يتفق مع ذوقه للجمال، كما انه يزيل المؤشر الامامي؛ يلف مكانهما شريطاً من النحاس او القصدير ويحرص على ان يبقيه لامعاً؛ وبعد ان يتخلص من المؤشرين، يأخذ في تشذيب بندقيته بحيث يزيل اكبر كمية ممكنة من خشبها ليجعلها اخف وزناً. ثم بعد ذلك يثبت بها أكبر عدد من المسامير ذات الرؤس النحاسية، يرتبها بحيث تاخذ اشكالاً معينة. بعد كل هذا يصنع للبندقية جراباً يضعها داخله ويضع الجراب خلفه على ظهر الجمل. ونادراً بل ربما لن يفكر البدوي بعد ذلك في تنظيف بندقيته او فكها إلى اجزاء لاختبار فعاليتها او تشحيمها. وهكذا فإن البنادق تصدأ من الداخل بينما يبقى خارجها لامعاً بسبب تنظيفها بالرمل او التراب.

ويبدو ان العربي يعرف جيداً ان البندقية تحتاج إلى فك اجزائها

وتنظيفها بين وقت وآخر إلا انه يخشى ان لا يستطيع جمعها بعد ذلك في قطعة واحدة. وهذا يفسر البطء غير العادي للبدوي كي يتعلم اي شيء جديد خارجاً عما ألفه في حياته اليومية. فعلى الرغم من ان بندقية (مارتيني – هنري) وجدت طريقها إلى الجزيرة العربية منذ اكثر من جيل مضى، إلا ان قليلاً من الرجال عرفوا ميكانيكيتها البسيطة.

توجد بعض انواع الأسلحة الاخرى بجانب المارتيني، مثل بندقية الموزر ذات الخرطوش. وغني عن القول ان هذه البندقية التي تتطلب عناية فائقة سرعان ما تعطب من سوء استعمالها، فيلجأ صاحبها إلى استعمال رصاصها في المارتيني مما ينتج عنه في احيان كثيرة عواقب وخيمة لكل من يكون قريباً منها عند إطلاقها بذلك الرصاص . عندما ينتهي الرصاص المستورد من أوربا يقوم البدوي بصنع طلقاته بنفسه من بارود ورصاص يشكل بطريقة بسيطة ثم يوضع بالفشك الفارغ الذي استعمله. تفشل الطلقات المصنوعة محلياً في خمسين في المائة من عدد مرات إطلاقها. وهي إذا أطلقت لا تصل إلى مسافات بعيدة.

عاد رجالنا بعد الغروب دون أن يصابوا بأذى، وجدوا أن البدوي الذي اقبل من الجنوب مطيريٌّ لا ينوي بجمالنا شراً. وهكذا عاد السلام مرة اخرى يخيم على قافلتنا.

٦ مارس:

استأنفنا سيرنا مبكراً متخذين نفس الاتجاه كما في الأيام السابقة. بعد السوبان صار الطريق وعراً مع ارتفاع متدرج خفيف نحو الغرب وبعض الأودية الجافة تجاه الشرق. بعد ساعتين ونصف من مغادرة محطتنا السابقة وصلنا منطقة منبسطة تغطيها الأعشاب

الكثيفة وتكثر فيها الأرانب البرية، وجدنا أيضاً كميات كبيرة من الكماة التي جمعنا منها أحمالاً كغذاء للقافلة في الأيام القادمة. ما زلنا نسير في منطقة الدبدبة التي وصلناها بعد مغادرة محطتنا السادسة. لم نقطع اليوم إلا مسافةً بسيطةً؛ لأننا لو سرنا مدة تسع ساعات لوصلنا إلى بئر اللصافة وهذا ما كنا نتجنبه بصفة خاصة. إن هذه البئر هي الوحيدة التي في دائرة قطرها مائة كيلومتر ويرد عليها ليس فقط القوافل بل يأتيها البدو من كل المناطق المحيطة بها. واي أناس يخيمون بجانبها يكونون عرضة للهجوم عليهم. وهكذا توقفنا قبل الظهر ونصبنا خيامنا وابتدأنا في طهي الكماة.

بينما نحن في موقعنا هذا، قام البدو الذين انضموا إلينا منذ أيام قليلة بحركة أثارت شكوكنا. عندما رأونا نتهيأ لنصب خيامنا انحرفوا يميناً أكثر مما كانوا من ذي قبل، واستمروا بمسيرتهم نحو اللصافة، خلافاً للوقت المتفق عليه لتوقف القافلة. أسرع رجالنا يحضرون الخيول الثمانية التي كانت ترعى على مسافة ليست بعيدة. كان أفراد القافلة قد غفلوا عن أولئك البدو عندما انشغل الجميع بالإعداد لإقامة المخيم الجديد؛ وعندما تنبه عبدالعزيز إلى غيابهم كانوا قد اختفوا وراء الأفق. وإذا كان أولئك الأعراب حريصين على الوصول إلى اللصافة فربما يريدون بذلك أن ينضموا إلى أصدقاء لهم بعد أن تجسسوا على قافلتنا لمعرفة مدى قوتها وضعفها. وهكذا أسرع ثمانية من رجالنا بالقفز فوق ظهور جيادهم العارية وسرعان ما اختفوا وراء الأفق في أثر البدو. مرت بضع ساعات عندما عاد رجالنا ببنادقهم يسوقون أمامهم أولئك البدو، الذين بدوا وكأنهم كلاب ذليلة خرجت لتوها من مستنقع بارد.

كان علينا بعد ذلك أن نراقبهم جيداً، وأن نبقي حاجياتنا المهمة وخاصةً خيولنا بعيداً عن متناولهم. ولكن على الرغم من ذلك فقد نجح أولئك البدو في سرقة أشياء صغيرة.

٧ مارس:

استأنفنا مسيرتنا فجر اليوم التالي في الساعة الثانية والنصف صباحاً؛ وما زلنا نسافر عبر منطقة الدبدبة. بعد ساعتين وصلنا منطقة وعرة تكثر بها الأحجار والصخور. سار معنا ضيوفنا البدو بصمت وخضوع تامين والجميع يراقبهم. وصلنا بعد شروق الشمس إلى منطقة منخفضة تنتهي من جهة الجنوب بارتفاع حاد تقوم فوقه قمم مستديرة تشكل نهاية الحدود الغربية لهضبة الصمان.

استمرت القافلة في طريقها وقد انتشرت على مسافة واسعة، مما مكن الإبل والخيول من الرعي أثناء سيرها. كان هناك راكبان يتقدمان القافلة بمسافة بعيدة كعيون لها، بينما حرص أصحاب الخيول على ربطها إلى مطاياهم حرصاً منهم عليها، ولم يترك طليقاً إلا حصانان ليرعيا أثناء السير. فجاة يقفز رجل على ظهر احد الحصانين وينطلق به باقصى سرعة. إنه المطيري الذي بدا واضحاً إنه كان يريد الخلاص منا، وبنفس الوقت يكسب حصاناً. أطلق صاحب الحصان صيحة عالية تردد صداها من أول القافلة إلى آخرها، فانطلق إثر ذلك راكبوا الجمال يسدوا الطريق على الهارب، بينما لمعت البنادق في كل الاتجاهات. اضطرب الحصان وتوقف عن الجري ملقياً براكبه على الأرض فوق شجيرات العرعر والشيح، وقد اكتسى وجهه بتعابير الخجل والخوف. نهض واخذ يتراجع بعيداً، بينما تاكد اصحاب الخيول ان كل خيولهم

مقيدة إلى جانبهم؛ ولكن البنادق بقيت مشرعة بيد أصحابها.

وصلنا في الساعة الثامنة منطقة صخرية مرتفعة، لا يدل مظهرها على وجود أي ماء فيها حيث إنها جافة وقاحلة. وفجاة وجدنا أمامنا وادياً على شكل إبريق ضخم محاطاً بصخور قائمة ذات لون أبيض يميل إلى الاصفرار. حتى قاع الوادي كان صخرياً رملياً قاحلاً ما عدا منطقة في وسطه نبت فيها عشب أخضر كثيف، يشكل تناقضاً ملحوظاً مع المنطقة حوله. في منتصف الطرف الداخلي للخضرة كانت هناك بقعة سوداء تحوطها دائرة رمادية. إنها بئر اللصافة. ظهرت أقدام الناس وآثار حيواناتهم حول البئر بشكل واضح. اتخذت جمالنا طريقها بشكل متعرج تنحدر بتؤدة وحذر عبر الممر الصخري القائم بجانب الصخور المرتفعة. توقفت القافلة عند البئر واقبلت الخيول على العشب الأخضر تلتهمه بسرعة ونهم.

اتخذ الحراس أماكنهم للمراقبة فوق المناطق العالية المحيطة بالمكان، ولكن بالرغم من ذلك، فإن كلمة "قوم" بقيت تتردد وتبعث الخوف في النفوس. وجدنا حول البئر آثار مخلفات الجمال ورماداً ما زال حاراً مما دل على أن زواراً قد وصلوا إلى البئر قبلنا بوقت قليل وارتحلوا قبل وصولنا بفترة قصيرة، مما وفر علينا صداماً معهم . ومما دل على أن أولئك القوم لم يكونوا مسالمين هو غياب أي أثر لقافلة متكاملة وغياب اي اثر لأغنام او ماشية.

أبقينا جمالنا في دائرة صغيرة، وعقلنا أرجلها بينما راح رجالنا يملؤون القرب بالماء من البئر بمصاحبة حدائهم ذي اللحن الواحد. يبلغ عمق البئر ثلاثين متراً، وعرضها ثلاثة أمتار وقد كسي الجزء الأعلى

منها بحجارة عارية. كان الماء يصب من الدلاء إلى القرب مصدراً صوتاً منعشاً. كان الرجال يروحون ويجيئون بقربهم اللامعة، يتحركون بين أكوام من المتاع يصك آذانهم رغاء الجمال، وتلفح وجوههم ألسنة اللهب المتصاعد من النار التي أوقدها الركب لتحضير القهوة. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء مما جعل صحن الوادي أشبه بفرن خباز. يحد الوادي من الغرب حائط متصل من الصخور الصفراء التي تكثر في تلك المنطقة. ولم يكن هناك سوى اربعة اوخمسة ممرات في الجوانب الاخرى للوادي يمكن النزول منها إلى البئر. هبت ريح عاصفة على الوادي فكانت تصفع وجوه الرجال المجهدين والحيوانات المتعبة بما تحملة من رمال واتربة. والسراب اليوم أكثر خداعاً من أي وقت آخر، فقد ظهرت قمم المرتفعات مختلفة عما هي عليه في الواقع، وكانت تهتز بفعل السراب. بينما ظهرت الشجيرات الصغيرة من بعيد ضخمة مكونة حائطاً متصلاً، يتراقص بفعل موجات الهواء الساخنة التي ترتفع أمام السراب، وتقترب وكأنها جيش متقدم. حتى الرجال الذين يتقدمون القافلة كعيون لها خدعتهم تلك المناظر الكاذبة. ولكن لم يكن هناك حوادث تذكر ما عدا أصوات تطاير ذرات الرمال وسماع حداء متقطع لرجال يستسقون من البئر.

كان رجل الحراسة يقف على صخرة في جنوب شرق الوادي ويشرف على البئر، فجاة اطلق ذلك الحارس صيحة سرعان ما تبعتها صيحات أخرى من حراس آخرين يقفون في أماكن أخرى فوق الوادي. اندفع الجميع إلى أسفل الوادي نحو البئر. توقف العمل فجاة وتجددت الفوضى، وعم الضياع كالعادة، وجرى الرجال في كل اتجاه يبحثون عن

أسلحتهم. سبب ذلك ان احدهم رأى مجموعة رجال فوق مطاياهم، يتجهون نحو البئر من جهة الجنوب الشرقي.

كانت هناك فعلاً خيوط تتراقص في الأفق المتوهج قادمة من ذلك الاتجاه، تظهر وتختفي وكلما عادت للظهور كانت اكبر من السابق. أدى رؤية القادمين إلى توتر اعصاب أفراد القافلة لدرجة الرعب. حتى الجمال نفسها سرت إليها عدوى التوتر فكانت تميل باعناقها الطويلة يميناً وشمالاً وتحاول ان تنهض من مناخها إلا انها تسقط ارضاً ثانية لان أرجلها مربوطة، فكانت لا تملك إلا أن ترفع أصواتها بالرغاء. أسرع المسافرون يحتلون المواقع العالية القريبة من البئر وصيحاتهم تتردد في أرجاء الوادي. إلا انهم وصلوا إلى مواقعهم متاخرين، حيث وصل قبلهم قائد المجموعة القادمة، الذي كان يقف في اعلى الوادي على ناقة صفراء جميلة. وما إن رأى رجال القافلة يركضون نحوه حتى أخذ عباءته ورفعها فوق رأسه ملوحاً بها يميناً وشمالاً. وفجأة هدأ كل شيء وانكشف الغموض إذ ظهر ان القادمين الجدد لم يكونوا أعداء.

اتضح أن القادمين كانوا أربعة مبعوثين من الإمام في الرياض في طريقهم إلى الشيخ مبارك في الكويت وإلى والي البصرة وحاكم حائل ابن رشيد الذي كان في ذلك الوقت يخوض حرباً في صحراء الحجرة شمال بئر الحفر. نزل القادمون إلى البئر وترجلوا عن مطاياهم وأناخوها ثم عقلوها. جلس قائد المجموعة على الأرض ووضع رمحه امامه، بينما أقبل رجال القافلة عليه ينشدون الاخبار. وبينما القهوة تدار على الجميع كتب بعض المسافرين خطابات وسلموها لرسل إمام الرياض ليوصلوها إلى ذويهم. استمر تبادل الأحاديث واستمر تناول القهوة

الساخنة. بعد حوالي ساعة حان وقت استئناف الأربعة لرحلتهم، وانقسموا إلى مجموعتين اتجهت الأولى شمال غرب إلى الحفر، والثانية سلكت الطريق الذي جئنا منه. وقف الجميع يشاهدون الرجال الأربعة، وقد اعتلوا ظهور إبلهم التي تزينت بشدادات جميلة مزركشة ملونة، وقد علق كل منهم رمحه بجانبه على الشداد، وسرعان ما اختفوا عن الأنظار.

بعد ذلك بفترة قصيرة غادرنا نحن أيضاً البئر متجهين مرة أخرى صوب الجنوب الغربي.

(٥)

من اللصافة إلى الزلفي وبريدة

كان صعودنا من أسفل الوادي إلى أعلاه من جهته الجنوبية الغربية أسهل من جهاته الأخرى، وسرعان ما أصبحنا خارج الوادي. كانت السماء ملبدة بالغيوم، وبدأت قطرات كبيرة من المطر تهطل. بعد نصف ساعة أشرقت الشمس ثانية. سرنا في وادي عشري الذي يبلغ اتساعه اثنين من الكيلو مترات إلى الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة حيث توقفنا بعدها ونصبنا مخيمنا التاسع. أقمنا حراسة مشددة حتى لا يستطيع المطيري الهروب مرة أخرى. كما أن المنطقة نفسها غير آمنة حيث لا ندري أين أصبح الأعراب الذين وردوا على البئر، كما أن هناك شعوراً بعدم الأمان عامة، مما حدا بنا إلى بث حراسة جيدةحولنا. كنا نسمع طوال الليل الصيحات تتجاوب بين حارس وآخر.

٨ مارس:

تركنا محطتنا التاسعة في الساعة السادسة إلا ربعاً. عبرنا في الساعة الثامنة حزماً ووصلنا إلى واد جديد، ثم توقفنا لتناول فنجان قهوة قرب رجم يقوم فوق مرتفع بسيط. في هذه المنطقة النائية دفن رجل كويتي كان في طريقه إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج. جعلنا الوادي الجديد إلى شمالنا وعبرنا بعض النتوءات الصخرية التي انحدرت من الهضبة الواقعة شمال طريقنا، ثم بعد عبورنا وادياً آخر بدأنا نسير في طريق متعرج صعد بنا إلى سطح هضبة الصمان.

أقمنا محطتنا العاشرة فوق هضبة الصمان في منطقة تسمى جو الثور. هنا غادرنا المطيري بدراهم الإتاوة التي جمعها، وبجانبها حلة

جديدة أعطيت له. كان رحيله راحةً كبيرةً لنا حيث تخلصنا من شكاواه المستمرة وطلبه الدائم للدخان.

٩ مارس:

رحلنا من مخيمنا الأخير قبل الساعة السادسة صباحاً، وبعد سفر نصف ساعة عبر الوادي خرجنا مرة أخرى إلى الهضبة الصحراوية التي تملؤها الصخور. توقفنا في منخفض صغير فيه بعض شجيرات السدر لتناول القهوة. ترتفع هذه الشجيرات في العادة إلى نحو ثلاثة أمتار، وتوجد في أماكن أخرى منخفضة في الصمان. في الساعة الثالثة والربع اقمنا مخيمنا الحادي عشر. نقيم مخيمنا دائماً في مناطق منخفضة؛ حتى لا ترى النار التي نشعلها. أقمنا الحراسة المعتادة حولنا لان ركباناً كثيرين يمرون بهذه المنطقة. اضاءت نارنا وجه الصخور الصفراء حولنا، بينما بقي دخانها يتماوج فوق رؤوسنا دون ان يصعد إلى اعلى.

١٠ مارس:

ياخذنا الطريق هذا الصباح عبر فلاة، كانت في البداية منبسطة ثم بدأت بها بعض الانخفاضات والارتفاعات عندما اقتربنا من الحدود الفاصلة بين الصمان وصحراء الدهناء. أصبحنا نشاهد الطعوس الرملية الناعمة أكثر فأكثر، اصبحت الرمال ترتفع إلى علو يقارب المتر حول النباتات التي تكافح لتبقى هاماتها فوق الغطاء الرملي.

هذا المساء في محطتنا الثانية عشرة كان الجو بارداً، مما جعلنا جميعاً نلتف حول النار المشتعلة. عندما عادت الجمال إلى المخيم مع هبوط الليل وجدنا ان واحداً منها -صاحبه رجل من قحطان- قد

فُقد. انتشر سائقوا الجمال في المنطقة المحيطة يبحثون عن الجمل المفقود، بينما اشعلت النيران حول المخيم لكي يهتدوا بها عند عودتهم. انضم للباحثين البدوي القحطاني نفسه طبعاً، وقد خفف نفسه من اعباء حمل بندقيته وذخيرته. ولهذا فعندما وجد الجمل الضائع بدأ البحث عن بندقية القحطاني وذخيرته. كان البحث في الظلام عن شيء بحجم بندقية وذخيرة أصعب من البحث عن بعير، ولكن البحث الدؤوب آتى اكله قبيل الصباح وعادت البندقية والذخيرة إلى صاحبهما.

١١ مارس:

نتيجة لآلام القحطاني تاخر رحيلنا اليوم عن الوقت المعتاد. ارتفع في الأفق البعيد إلى الجنوب تل رملي كبير يتلألأ بلونه البرتقالي تحت اشعة الشمس. يطلق على التل اسم نقاء المطوع وهناك حكاية تقول إن ابن احد مشايخ القبائل خرج على تقاليد عائلته وقبيلته وتزوج بجارية فطرد من القبيلة، وجاء إلى قمة ذلك التل وشتم قبيلته قبل أن ييمم وجهه شطر الكويت(١).

لم نر شجيرات السدر المنتشرة في الصمان، وعندما انحدرنا إلى منخفض واسع رأينا بدلاً من السدر نبتات يقال لها حليب ابو العشر. قيل لنا إن هذا المكان في الماضي كان ماهولاً ولكنني لم اشاهد أي آثار تدل على ذلك.

(١) المقصود بهذا هو ابن عبدالرحيم راعي أشيقر المعروف بالمطوع، وهذا النقاء من انقية الدهناء.

بعد مسيرة عدة كيلو مترات وصلنا إلى الصحراء الحقيقية. اقتربنا عند الساعة التاسعة من أول سلسلة من التلال الرملية حيث تعلو قمة نقاء المطوع، وعدد آخر من الطعوس الرملية الضخمة بلونها البرتقالي في ذلك البحر من الرمال. أكثر سلاسل الرمال انخفاضاً هي التي واجهتنا في البداية ثم تلاها ثلاث سلاسل أخرى أكثر ارتفاعاً. وصلنا بعد أن عبرنا ذلك الحزم، الذي كان بعرض كيلو متر واحد إلى منخفض خال من الرمال بلغ اتساعه أيضاً حوالي كيلومتر واحد، ويغطي ارضه الوعرة الطين المختلط بالرمال وبقايا الحيوانات. راينا هنا بعض النباتات العشبية كالتي سبق ان رأيناها قبل ان نصل إلى الدهناء. بعد ذلك عبرنا حزاماً رملياً آخر هو عرق جهام، عرضه حوالي خمسة كيلو مترات، ويتكون هو نفسه من عدد من سلاسل التلال الرملية. شاهدنا كثيراً من الهياكل العظمية البيضاء لحيوانات سقطت في السابق إعياء في أسفل تلك السفوح السحيقة لتلك التلال. إن بحر الرمال يتطلب تضحيات أكثر من تلك التي تتطلبها الصحراء الصلبة. أشرفنا من موقعنا على الطرف الغربي للحزام الثاني على واد يبلغ اتساعه حوالي ثمانية كيلو مترات، وتغطي أرضه الرمال والنباتات الشبيهة بتلك الموجودة في الوادي السابق. ارتفعت بعد هذا الوادي السلسلة الثالثة من التلال الرملية العالية التي من بينها نقاء المطوع وعدد آخر بمثل علوه.

خطر بذهني انه يمكن مشاهدة صحراء الدهناء بشكل أفضل من قمة أحد هذه التلال العظيمة، وقررت ان انقدم الركب حتى اتمكن من تحقيق رغبتي تلك التي كنت اعرف انها لن تكون سـهلة. تركت

القافلة وبرفقتي عبدالعزيز وعلي وعجمي حثثنا مطايانا على السير بأقصى سرعة تستطيعها، وبعد مسيرة ساعة صوب الجنوب وأشعة الشمس والرياح تضرب وجوهنا وعيوننا وصلنا إلى بداية حزام التلال العملاقة.

أخذت جمالنا المنهكة تتسلق بدايات السفوح العالية، وتوقفنا بها فوق سطح الخط الاول من التلال المنخفضة، ثم شرعت ومعي عجمي في تسلق اقرب قمة. عبرنا عدداً من التلال الأخرى، نما فوق بعضها خليط من الاعشاب والحشائش المختلفة، ووصلنا إلى سطح التل الأكبر وبدأنا نتسلق. اختفت الآن كل انواع الخضرة وقامت امامنا كميات هائلة من الرمال ذات اللون البرتقالي تتحرك في كل الاتجاهات وفقاً لحركة الرياح العشوائية. كانت الرمال في بعض الأماكن صلبة بحيث يستطيع الإنسان ان يسير فوقها، ولكنها في أماكن أخرى كانت ناعمة لدرجة تغوص فيها الأرجل إلى ما فوق الركبة؛ وعلى اي حال فقد عانينا كثيراً في طريقنا إلى قمة التل. كانت ريح شمالية غربية تهب فتثير سحباً من الرمال الناعمة تدفع بها إلى القمة، ثم تهبط بها كالمطر الاصفر فوق السفوح فتعود وتستقر من جديد في أسفل التل مصدرة اصواتاً مكتومة اشبه ما تكون باصوات فحيح جحافل من الحيات.

شاهدنا منظراً جميلاً للدهناء من فوق القمة. رأينا احزمة التلال والوديان ذات الألوان الخضراء الرمادية التي تفصلها تتجه كلها بانتظام من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. بدا لنا ان الطعوس الرملية كونت بفعل رياح جنوبية غربية. اما الطعس العملاق الذي وقفنا فوق

قمته فهو يرتفع حوالي ثمانين متراً عن قاع الوادي، وخمسين متراً عن سطح بحر الرمال الذي يحيط به. ومن قمة ذلك التل كان باستطاعتنا أن نشاهد سبعة تلال أخرى بمثل حجمه إلى الشمال الغربي وثلاثة عشر أخرى تجاه الجنوب الشرقي.

الوقت الآن منتصف النهار تماماً، الهواء يتموج فوق الدهناء بطريقة جعلت تلال الرمال البعيدة تختفي كلية بين آونة وأخرى، بينما ظهرت أحياناً وكأنها جزر برتقالية لامعة تسبح وسط السماء الزرقاء. هنا فوق قمة هذا التل العظيم يسود الهدوء والسلام الكاملان اللذان يوجدان فقط فوق قمة الجبال ؛ هدوء لا يعكره إلا الحفيف الذي تصدره حركة الرمال الناعمة.

فجأة ظهرت على البعد علامات تشير إلى وجود حياة في المنطقة. مجموعات من النقط السوداء تتحرك عن بعد، تظهر ثم تعود لتختفي، خلف شجيرات الأعشاب، أو في منخفض يمنع رؤيتها. كانت تتقدم بالمئات عبر الممرات التي يمكن اجتيازها بين الطعوس، وبين آونة وأخرى، وعندما تهب الريح باتجاهنا كان بإمكاننا سماع أصوات ثغاء خفيف قادمة من بعيد مخترقة السكون الشامل المحيط بنا.

كانت تلك قطعاناً من الماعز لبدو بني عبدالله ترعى في الدهناء في طريقها إلى الصمان. انحدرنا من القمة وعبرنا من وسط تلك القطعان عائدين إلى رفاقنا. كانت قطعان الماعز تلك بلونها الأسود البني وآذانها العريضة وشعرها الطويل وكثافتها كأنها سيل هادر يجرف كل شيء أمامه في طريقه إلى مصبه. رأينا في وسطها بعض الأغنام

بألْيَاتها السمينة التي تجرها وراءها. ولم نر إلا عدداً قليلاً من الناس ترافقها. شاهدنا بعض النساء متشحات بالسواد وأقدامهن عارية، كما شاهدنا طفلين بملابس بالية. رأينا أيضاً رجلاً يسير شبه عار يتكئ على عصا مقوسة يحث الماعز على المشي.

بنو عبدالله هؤلاء هم فخذ من مطير الدويش الذين تمتد ديارهم من عنيزة إلى الكويت ومن صحراء الحجرة إلى خط يصل بين وبرة والجمعة. تتكون قبيلة مطير الدويش من الأفخاذ التالية: العبيات، الصهبة، بنو عبدالله، البراعصة، الدياحين، الدويش، الجبلان، الحوامد، الحلاوية، الملاعبة، ميمون، الرخمان، الرشايدة، الصعران، وأسامة. ترعى القبيلة مواشيها في الشتاء في صحاري شرق الجزيرة، في الدهناء والصمان، بينما تنتقل في الصيف إلى المناطق الشمالية الشرقية وفي الايام الشديدة الحرارة يستقرون قرب الآبار حول الكويت أو في الكويت نفسها، ولو ان بعضهم يتجه جنوب غرب نحو جبل طويق أو قرب اللصافة.

وتمتد مناطق العجمان من جبل طويق إلى الخليج الفارسي، ومن اللصافة إلى الهفوف. وينتشرون في الشتاء في الدهناء والصمان، بينما يستقرون في الصيف عادة حول سلسة الآبار الواقعة بين الهفوف والوبرة.

عدنا إلى جمالنا في الوقت الذي كان فيه آخر جمل في قافلتنا ينشل أقدامه من الرمال الناعمة بعد أن توقفت القافلة للراحة. بعد تناول فنجان من القهوة التي شعر الجميع بالحاجة إليها استأنفنا السير حيث عبرنا وادياً قبل ان نصل إلى حزام آخر من الرمال بدا كأنه الأخير.

سرنا خمسة كيلو مترات في ذلك الوادي أوصلتنا إلى آخر الطعوس الموجودة في الدهناء . كانت هذه اقل ارتفاعاً من سابقتها كما كانت النباتات تغطي سفوحها.

كل يوم يمر كنت اجد حياة القافلة اقل متعة من سابقه. كما ان التعامل مع العرب اصبح أكثر صعوبة، حيث يزداد تطرفهم الديني اشتعالاً كلما اقتربوا أكثر فاكثر من نجد. إنهم كسالى أيضاً، فعندما تهاجم جيوش القمل الإنسان ويدرك انها تاتيه عن طريق رفاق السفر فالاحسن أن لا يحاول القضاء عليها لان ذلك غير ممكن. وتزداد شراسة القمل في الليل بصفة خاصة، ولا يمكن الحصول على أكثر من ساعتين من النوم المتواصل. إضافة إلى ذلك فإن لهيب الشمس احرق وجهي مما اضطرني إلى استعمال نوع من المرهم لتخفيف الألم. وهذا يمكن ان يكون مفيداً، لولا ان الجمال عندما ترفس باقدامها إلى الخلف اثناء الليل تثير عاصفة من الرمال تلصق بالوجوه، مما جعل من وجهي الذي صار يغطيه المرهم والرمل أشبه بورقة رملية. فإذا حدث أثناء النوم أن جذبت غطاء خشناً فوق وجهي فإن النتيجة تصبح عذاباً محضاً. ولهذا السبب فإن الأرق يصبح في هذه الحال نعمة عظمى. وعلى اي حال فإن من دواعي الأمن ان ينام الشخص ساعات قليلة وأن ينام نوماً خفيفاً. ولا بد من النوم على أي حال وما ينقصنا منه نعوضه أثناء النهار ونحن فوق ظهور الجمال. ويستطيع الشخص أن يعوّد نفسه بسرعة على النوم الخفيف. كما ان بإمكانه ان يختلس غفوة طيبة وهو على ظهر الجمل ويستيقظ دائماً عندما يكون على وشك السقوط. بالإمكان دائماً في الثانية الأخيرة

قبل السقوط أن يستيقظ النائم، ويتمسك بخشبة الشداد ويستعيد توازنه.

تعرض القحطاني اليوم إلى تقريع شديد من عبدالعزيز في الوقت الذي كانت الجمال تعود من مراعيها إلى المخيم. لقد رفض القحطاني أن يدفع الرسوم المطلوبة لقائد القافلة. كان المبلغ المطلوب منه ثلاثة ريالات، وعدم دفعها جعل عبدالعزيز يغلي من الغيظ. كان يتراقص يميناً وشمالاً بحركات مجنونة، وحمي غضبه لدرجة انه اوشك على قتل القحطاني بسبب ثلاثة ريالات تافهة. سرعان أيضاً ما سرت عدوى الشجار بين افراد القافلة الذين تراكضوا في كل اتجاه ليحضروا أسلحتهم. علا صياح الجميع وانفصلوا فجأة إلى فريقين واحتمى كل فرد خلف ما استطاع أن يجده من شيء يجلس خلفه. حاولت منذ البداية مع علي أن نتدخل لتهدئة النفوس الثائرة وعندما وجدنا أن ذلك صعبٌ لجأنا نحن أيضاً للاختفاء خلف صناديقنا لتقينا اي رصاصات قد تطلق. أثناء ذلك بدأت جمال القافلة تعود من مراعيها وبرفقتها بعض كبار السن من المسافرين الذين ما إن شاهدوا ما يحدث حتى اخذوا يهدئون النفوس، بالتوسل إلى المختصمين وبسوق بعض الحكم إلى أن نجحوا أخيراً في مساعيهم وانتهى النزاع.

١٢ مارس:

رحلنا من محطتنا الثالثة عشرة في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة. في البداية كانت الأرض مستوية وتكثر فيها الأعشاب الطويلة التي تشبه تلك التي شاهدناها في المناطق القريبة من الكويت. ولكنها تزيد عليها هنا بوجود الأحجار الرملية. تنحدر الأرض هنا تدريجياً

نحو وادي الرمة. كما بدأت تظهر بالتدريج تجمعات صخرية ترتفع فوق سطح المنطقة المنبسطة. أشرفنا في بداية الصباح على آبار الأرطاوية ولهذا فقد تقدم بعض رجالنا المسلحين كعيون لرصد المنطقة من نقطة عالية تشرف على الآبار. وعلى الرغم من اننا اصبحنا في المنخفض حيث توجد البئر إلا ان البئر نفسها لم تر حيث تحجبها بعض النتوءات التي تقوم حولها. كنا على بعد كيلو متر واحد من البئر عندما صاح احد رجال المقدمة ان هناك بعض الأعراب الغرباء عند البئر. انضم رجال القافلة بسرعة إلى بعضهم وحثوا مطاياهم على السير بأقصى ما لديها من سرعة نحو البئر، وهم يتصايحون بقوة وقد شهروا أسلحتهم. وتجاوبت الإبل مع الصياح والحث على السير واندفعت بقوة كبيرة دافعة بأرجلها إلى الخلف رافعة حناجرها بالرغي وثائرة؛ لدرجة انه كان على ركابها ان يبذلوا اقصى الجهود للبقاء فوق ظهورها. بهذه الطريقة العنيفة وصلنا البئر. لم نجد رجالاً عند البئر إذ يبدو أنهم عندما شاهدوا إقبالنا نحوهم بالطريقة التي كنا عليها فضلوا السلامة على المواجهة ورحلوا بسرعة، مخلفين وراءهم بعض الحمير التي راحت تنظر إلينا وهي ترفع وتخفض رؤوسها الكبيرة وتهز آذانها. سقنا الحمير امامنا على امل ان نجد اصحابها في الزلفي؛ لأننا خشينا ان لا تكون ملكاً لأولئك الرجال الذين هربوا قبل وصولنا إلى البئر.

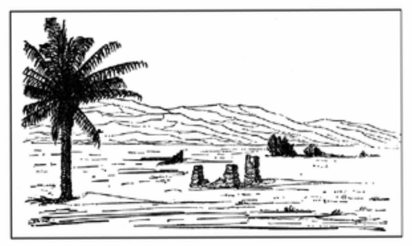
خرجنا من الوادي عند منتصف النهار وسرنا في فلاة وعرة تغطيها الحجارة ولا اثر للحياة فيها، بل هي اكثر انعداماً للحياة من الصمان. هبت في وجوهنا ريح شديدة الحرارة اثارت زوابع من الرمال

كـانت تلفح الوجـوه في ذلك الوقت من النهـار الذي كـانت قطع الصخور فيه تشع حرارة شبيهة بما يقابل وجهك لو وقفت أمام فرن؛ وكان انعكاس الضوء من القوة بحيث لجأنا إلى لف أغطية رؤوسنا فوق وجوهنا تاركين فتحات صغيرة فقط أمام عيوننا لنبصر الطريق. كنا نشاهد بين مسافة وأخرى بعض أشجار السدر، كما كان هناك أشجار الصمغ العربي التي يصل طول بعضها إلى ستة أوسبعة أمتارتعشش بين اغصانها بعض الطيور.

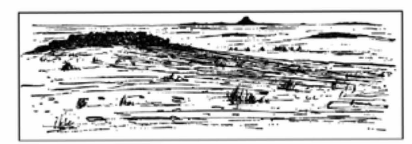
١٣ مارس:

تركنا محطتنا الرابعة عشرة في الساعة السادسة إلا ربعاً. اخذت الأرض المغطاة فقط بالصخور الصفراء تتلاشى تدريجياً، وبدأنا نرى بعض النباتات . كما ظهرت منخفضات أكثر اتساعاً مما واجهنا قبلاً، وبدأت النباتات أكثر تواجداً إلى ان هبطنا في الساعة السابعة صباحاً وادياً غطته الحشائش الكثيفة. انخنا ركائبنا هنا لنتناول القهوة ونودع بعض الرفاق المتوجهين إلى شقراء. انفصل عن القافلة أكثر من ثلث افرادها. اتجهوا جنوباً عبر واد متعرج، وسرعان ما اختفت خلف المرتفعات الصخرية آخر إبلهم.

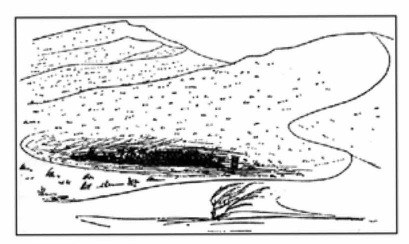
استانفت بقية القافلة طريقها عبر سهل يشبه الدلتا في المنطقة الواسعة المسماة السبلة، حيث ترتفع الأعشاب إلى ما يقرب من طول قامة الرجل، كما ان هناك دلائل تشير إلى ان المياه غمرت المنطقة مدة طويلة؛ لأنه لا يوجد لها منفذ تفلت منه. مررنا في الساعة الثانية والنصف على سلسلة من التلال الرملية المنخفضة، انتهينا بعدها من عبور السبلة ووصلنا منطقة جرداء صخرية ترتفع تدريجياً امامنا.



قرية الزلفي



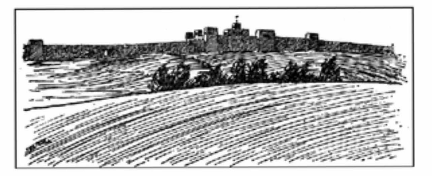
المنطقة حول برق



نقاء أبو حشول



الشماسية



بريدة



الشماسية

كانت جمالنا باحمالها تشق طريقها بصعوبة عبر الطريق الوعر المرتفع بينما شمس الظهيرة ترسل اشعتها الحارة فتزيد من حجم المعاناة. اخيراً توقفنا لبعض الراحة ولإعطاء الفرصة لجمالنا لعلها تجد بين الصخور ما تتقوت به من النباتات التي لايزيد طولها على بضع سنتمترات.

كانت الشمس تميل نحو المغيب، عندما أقبل راكبان من رجالنا المكلفين بالمراقبة، ينقلون إلينا أنهم رأوا شيئاً ما يتحرك في السبلة. كان علي على وشك ان يقدم لي عشائي "الممتاز" إلا انني بسرعة خطفت بندقيتي ومنظاري واسرعت مع اثنين آخرين نحو التلال القريبة لاستطلاع الأمر. صحيح! هناك شيء ما، نقط سوداء بعيدة تتحرك عبر السبلة مقبلة نحونا. مضى وقت قصير قبل أن تكشف تلك النقط السوداء عن سرها، فقد استطعنا أن نراها عندما اقتربت، ولم تكن إلا اثنين وعشرين جملاً كانت تسير بخط واحد خلف بعضها.

اصبح مخيمنا المحتمي بأسفل الوادي مثل خلية دبابير؛ رجال يركضون هنا وهناك وجمال تساق كيفما اتفق بين سحب الدخان ومواقد النار، بينما اصطف رجالنا المسلحون في صف واحد عبر الوادي.

اقترب الغرباء أكثر فأكثر دون ان يتأكدوا من خلو المكان، وسرعان ما أصبحوا بين الصخور المشرفة على موقعنا. خفتت الآن صيحات رجالنا وحل بدلها همس تخلله كثير من اللعنات، التي توقعنا أن تطالنا عندما تثار الطلقة النارية الأولى. اتخذ رجالنا وضع الرمي وهيؤوا بنادقهم وصوبوها نحو مدخل الوادي، الذي سيلجه القادمون الغرباء. اقبل الجمل الأول واضحاً مع خطوط شمس قبل

المغيب، وما إن رأى راكبه أن البنادق مصوبة نحوه حتى خلع عباءته بسرعة ولوح بها فوق رأسه: علامة السلام.

عدنا إلى المخيم في انتظار بقية القادمين الغرباء، دون أن نتخلص من أسلحتنا. وصل الباقون واستقروا في مخيمنا وتجمعوا حول ناري. ولكنهم سرعان ما أشعلوا نارهم وبدؤوا تحضير قهوتهم.

لم نطمئن لجيراننا الجدد. لم يكن بصحبتهم جمالٌ محملة، كما لم يكن معهم نساء، والرجال أنفسهم وكلهم مسلحون، يسوقون أمامهم عدداً من الجمال الصغيرة السمينة والعارية الظهور. كان علينا بالاختصار ان نتعامل مع واحد من أشرس الغزاة، ومعه مجموعة من رجاله، وهم ينتسبون إلى منطقة جنوب عنيزة. كان أولئك "الناس الطيبون" في طريقهم إلى بلدهم، بعد أن قاموا بإحدى غارتهم على الدهناء، وعادوا بذلك القطيع من الجمال الجيدة أضافوه إلى ممتلكاتهم. أمضيت ليلتي تلك قلقاً، لقد وصل أولئك الرجال في وقت غير مناسب. لقد نقص عدد رجالنا، بانفصال أهل شقراء عن قافلتنا، كما انه ينقصنا الرجال ذوي الخبرة الجيدة لأن عبدالعزيز أيضاً وقد أضناه الغرام لإحدى زوجاته التي تعيش في الزلفي، غادر القافلة ليطفئ لهيب شوقه في أحضانها. ولم يمض وقت طويل حتى بدات علامات المشاكل تظهر في الأفق، حيث انفجر شجار بين اللصوص وهم من قبيلة مطير وبين احد رجالنا وهومن عتيبة . كانت طبيعة الشجارساذجة طفولية إذ أخذ الفريقان يتفاخران في من هم الغزاة الأحسن من الآخرين ويعدد كل منهما عدد الأغنام التي سرقوها من المناطق المختلفة.

من العبث ان تتوقع علاقة منطقية بين سبب الخلاف والقتال الذي قد ينتج عنه من بدوي من شرق الجزيرة العربية. إن عقل ذلك البدوي سوف يقوده إلى انفجار عواطفه التي لا يستطيع السيطرة عليها سواء كان ذلك الانفجار بسبب جريمة قتل، أوسرقة شاة، او ربما الحرب التي قامت في العام الماضي بين قبيلته وقبيلة أخرى منافسة، أو قد ينفجر بالغضب إذا جرى الحديث حول تفسير شيء يخص عقيدته، هذا إذا لم نذكر ايضاً ان الصراع قد يكون حول ريال واحد، او قميص قديم . وعلى ذلك فإن وجود خمسين مخاً تفور كلها في آن واحد يعتبر حدثاً عادياً. ازداد الصياح اكثر فاكثر وبدت الأصوات اكثر خشونة، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الضربات المتبادلة تنزل مثل البرد على الجانبين. ثم جاء دور البنادق – أما الذين كان صياحهم قد بلغ عنان السماء فقد أخلدوا فجأة للصمت – بينما استمر هيجان الباقين. سدد رئيس اللصوص بندقيته نحو واحد من رجالي، عندما فاجأه آخر من رجالي بتوجيه ضربة صاعقة من كعب بندقيته على بطنه كان لها دوي قرع طبل، وجعلت رئيس اللصوص يسقط أرضاً ورجلاه في الهواء مصدراً عواء مخيفاً. انقسم المخيم بسرعة إلى معسكرين وجعلت صناديق واكياس المتاع متاريس حماية. وتلاشى كل أمل في حل سلمي.

اتخذنا وضع الاستعداد لإطلاق النار وبنادقنا موجهة، وعلى صدورنا علقنا بسرعة أحزمة الذخائر، عندما انطلقت فجأة صيحة من الجانب الآخر. لقد عاد زعيم اللصوص إلى وعيه بعد الضربة التي تلقاها في بطنه من كعب البندقية، ويبدو أن تلك الضربة تسببت

أيضاً في القضاء على روح القتال فيه؛ فصرخ في رجاله أن يكفوا عن التحدي. وضع السلاح على اثر ذلك جانباً والتف الجميع حول النار يشربون القهوة ويتجادلون فيمن بدأ الضربة الأولى وعلى من سقطت. ولكي اعالج الموقف ذهبت إلى القائد الذي تلقى الضربة وكان ما زال يئن من الألم، ودهنت بطنه بما وجدت معي من بعض الأدوية. كانت بعض المراهم حارة مما جعله يعتقد أن فائدتها مضمونة. أما باقي وقته فقد قضاه بين الأنين وتدخين السجائر والحديث مع اتباعه . شيئاً فشيئاً هدأ الشغب الذي حدث في القافلة؛ عندما غلب النعاس القوم وانقضت تلك الليلة بسلام، ولكن الحراسة الليلة كانت اقوى من المعتاد.

١٤ مارس:

غادرنا محطتنا الخامسة عشرة في الساعة الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة، وبعد السير نصف ساعة أصبحنا فوق احد التلال، التي تشرف على جبل طويق من جهة الشمال. قيل لنا إن المسافة من هنا إلى ديار ابن سعود، يعني إلى الرياض، تستغرق فوق ظهر الجمل ست ساعات إلى الجنوب.

بعد سفر ساعة من بداية اليوم عبرنا منخفضاً صغيراً، وصلنا بعده إلى سطح تل ظهر لنا عنده منظر بري لم نتوقعه. شاهدنا انكساراً فجائياً في سطح الأرض يبلغ عمقه حوالي المائة متر، ينتهي بواد شاهدنا فيه في البداية ولمسافة ألفي متر بعض النباتات والأعشاب تحولت بعد ذلك إلى غابة خضراء من أشجار النخيل. في وسط تلك الغابة من النخيل تقوم بيوت الزلفي وقلاعها، وبعد واحة النخيل هذه

تعود تلال الرمال العملاقة التي تحيط بالوادي وتشرف عليه بقممها ذات اللون البرتقالي. تمتد تلال الرمال هذه بمحاذاة جبل طويق بين الشمال والجنوب، وتبتعد عن الجبل حوالي ثلاثة إلى أربعة كيلومترات وتمتد على مرمى البصر.

ترجلنا عن مطايانا وقدناها بحذر من أسفل جبل طويق منحدرين عبر طريق ضيق نحو الوادي، سائرين بخط متعرج اتقاء الصخور التي تملأ المنطقة. استغرق ذلك وقتاً، مما حدا بنا ان نتوقف للراحة في ظل صخرة قائمة هناك. شربنا القهوة واستراحت الإبل قبل ان نستأنف سيرنا.

كان بعض المسافرين يقصدون بريدة، ولهذا فلم يتوقفوا بالزلفي بل ظلوا مستمرين في طريقهم تغوص اقدامهم واخفاف إبلهم في رمال الصحراء القفراء، بينما توقف الباقون للراحة لبقية اليوم، وللتمتع بضيافة عبدالعزيز، قبل ان يستأنفوا رحلتهم ويلحقوا بالباقين.

دخلنا القرية من باب منخفض في احد الأبراج المقامة حولها ووجدنا أنفسنا في البداية وسط فسحة، بها بعض أشجار النخيل وبعض البيوت القديمة الخربة ولكننا لم نر اناساً. سرنا في شارع ضيق متعرج إلى أن وصلنا بيت عبدالعزيز ودخلنا مجلس استقبال الضيوف وهو مكان وضعت فوق أرضه الرملية بعض الحصيرات، وقام في أحد جوانبه "وجار" وضعت فيه دلال القهوة، كما ثبت على الجدار فوقه أرفف من الطين، وضعت في مربعاتها دلال اخرى للقهوة . كانت هناك بضع فتحات في الجدار وفتحة اخرى بالسقف وهذه جُعلت

لتسمح للنور بالدخول منها وللدخان بالخروج . عقد من جديد مجلس للمصالحة استمر لبضع ساعات، تناول خلاله الجميع اللبن وطعموا الخبز والتمر وشربوا القهوة، ثم بعد ذلك تبادلوا القبلات على الوجوه والرؤوس مما أكد على ان حادثة الليلة السابقة قد نسيت تماماً. وكدليل إضافي على نسيان ما قام به رئيس مجموعة الغزاة فقد أهدينا له قميصاً قطنياً وغترة وبعض الاشياء الاخرى البسيطة. بعد ذلك ركب الجميع وغادروا الزلفي مستانفين رحلتهم ما عدا عبدالعزيز واخاه وعلي وانا.

تاخذ مدينة الزلفي شكلاً مربعاً تقريباً، واطوالها من جميع الجهات لا تزيد على الثلاثمائة متر. يقوم في الجانب الغربي منها بوابة عريضة وعالية، بحيث يمكن لراكب الجمل ان يدخل منها دون ان يترجل عن راحلته. يقوم فوق البوابة طبعاً برج، كما توجد ثمانية ابراج اخرى، عبرنا نحن واحداً منها إلى المدينة. يوجد امام البوابة الرئيسية فسحة واسعة تقف بها الحيوانات. لكن ذلك لا يضير حركة السير حيث لا توجد في المدينة أي سيارات، أو أي عربات بمحركات من أي نوع . كل شيء قائم في المدينة بني من الطين المجفف، الجدران والأبراج والبيوت، ويبلغ طول جدران المنازل ستة امتار في المتوسط بينما ترتفع جدران الابراج إلى تسعة أمتار مع وجود فتحات للمراقبة . يوجد في المدينة مئذنة واحدة متواضعة في وسط البلدة. اما فتحات الضوء في جدران المنازل فهي تاتي في مجموعات من ثلاث وحدات في كل مجموعة، وباشكال مثلثة. كما يوجد داخل الغرف نفسها رفوف مثلثة الشكل ايضاً توضع فوقها لمبات الغاز، ولو ان بعض الناس

لا يملكون مثل تلك اللمبات. وتصبغ الجدران حول تلك الرفوف باللون الأبيض .

توجد معظم بساتين النخيل بالزلفي، في جهتيها الغربية والجنوبية وتحيطها جدران من الطين ترتفع إلى ثلاثة أمتار، يعلوها سياج من سعف النخيل للحماية . يزرع في الزلفي بعض القمح ويسقى مرة كل أسبوع، ويحصد بين شهري أبريل ومايو بعد أن يكون مضى على زراعته حوالي ستة اشهر . تنبت حول بساتين النخيل أيضاً بعض أشجار الدوم التي تستخدم جذوعها في البناء والوقود.

تعد حدائق النخيل في الزلفي ضاحية صغيرة للمدينة. ارسلت إلى هناك لمعاينة رجل مسن مريض وجدته مستلقياً على الأرض، تحت اشعة الشمس وجيوشٌ من الذباب تنهش وجهه وعيونه. كان هزيلاً لدرجة كبيرة ما عدا أن بطنه كان منتفخاً مثل بالون قرمزي. أعطيته جرعة كبيرة من الزيت الأمريكي، على أمل أن ما يؤلم قد ينفع حسب الاعتقاد العربي.

كل الدلائل في الزلفي تشير إلى أنها كانت في الماضي مدينة أكبر مما هي الآن. هناك دلائل في كل مكان وخاصة في الجهة الغربية تجاه الصحراء، مثل بيوت وجدران مهدمة وآبار مهجورة وأشجار الدوم الذابلة، كلها تشير إلى مجد سابق للمدينة، ما تراه العين الآن هو تلال رملية غزت الأشجار واستراحت على الجدران. هنا نجد ذلك المظهر الطبيعي المعروف في مناطق مثل الصحراء الليبية وشرق تركستان، ألا وهو مظهر الرمال المتحركة التي تعمل ببطء على إغراق وخنق الواحات.

يدعو المؤذن المؤمنين لصلاة العشاء ويتردد صدى صوته بعيداً خلف الحيطان المنهارة . ويحل الظلام وتصمت الأصوات، إلا تلك التي تصدرها بعض الصراصير في هدوء الليل . ويختفي عبدالعزيز داخل منزله بحثاً عن متعة أخيرة مع زوجته قبل الرحيل، بينما استسلم أنا لسلطان النوم فوق أرض الغرفة المتربة قرب النار التي بدأت تخبو، ومن خلال فتحات الضوء الموجودة في السقف تطل نجمة أو اثنتان تتلصصان على ما يدور داخل المنزل الصغير. يظهر عبدالعزيز في الساعة الواحدة صباحاً، حيث يوقد النار ثم يسخن القهوة، وبعد ذلك توضع الشدادات فوق ظهور الجمال وفوقها الأحمال. بذلك اصبح الركب جاهزاً لاستئناف الرحلة، التي بدأت فعلاً في الساعة الثانية صباحاً.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، والظلام دامساً لدرجة أن المرء لا يستطيع رؤية ما امامه، إلا ان المطر لم ينزل، وبقي الهواء ساكناً. اتجهنا شمالاً وحثثنا إبلنا على السرعة، ولكن في ظلام كثيف حجب الرؤيا بحيث لم نتمكن من رؤية بعضنا بعضاً؛ ولجانا بين فترة واخرى إلى نداء كل واحد باسمه، حتى لا ينفصل احد عن الركب. بعد فترة وجيزة اتجهنا شمال غرب ودخلنا ارضاً رملية. اخذت الإبل تغوص في الرمال وتجاهد لتستمر في سيرها، وقد اختفت قوائمها في الرمال الناعمة العميقة وهي تصعد الطعوس المرتفعة، وتسقط ثم تنهض، بينما ركابها يتارجحون يمنة ويسرة فوق ظهورها، ويقفزون من فوق ظهورها احياناً؛ لإيجاد طريق اقل ارتفاعاً واسهل عبوراً. اخيراً وبعد ان لاحت تباشير النور امكننا ان نجد سبلاً اسهل نسبياً

للعبور وتمكنا من عبور الكثبان الاقل ارتفاعاً وهبطنا نحو الأرض المنبسطة.

لقد وصلنا الآن إلى منطقة صحراوية أكثر وحشة وغموضاً ومناظر اخاذة من أي شيء تصورناه. كان على الجانبين من خط سيرنا تلال من الرمال يبلغ متوسط ارتفاعها ستين إلى سبعين متراً تحيط باسفلها منحنيات إلى الداخل، تثور بزوابع رملية عند أدنى هبوب للريح. كما يوجد في اسفلها مجموعات من النباتات تكافح لإبقاء أطراف رؤوسها فوق الرمال العاتية. بقينا نشق طريقنا عبر وديان عميقة بين سلاسل من الكثبان، يبلغ طول بعضها كيلو متراً كاملاً وتسقط كلها نحو منحدر يشكل حذوة حصان، تشبه التكوين المعروف في النفود شمال الجزيرة العربية.

انحدرنا في الساعة الثالثة نحو واد عميق، رأينا في قاعه مابين عشرين إلى ثلاثين نخلة يابسة. قيل إنه كان في ذلك الوادي في السابق أعداد كبيرة من النخيل والبساتين ويسمى نقرة السلطان، وكان اهل الزلفي يجنون رطبه. بعد ربع ساعة أخرى وصلنا وادياً مماثلاً به بعض اشجار النخيل أيضاً، وبعض ابراج المراقبة لحماية التمر من البدو الذين يتسللون وقت الرطب لسرقته، قبل ان يتمكن أهل الزلفي من جنيه. هذا المكان يدعى نقاء أبوحثول. بعد ربع ساعة أخرى من السفر وصلنا إلى واد ثالث به أيضاً بعض أشجار النخيل، ويسمى الحُمَيدّية. يعيش النخل في هذه الوديان دون سقي لأن المياه الجوفية لا تبعد أكثر من مترين عن سطح الأرض. إنها مناطق رومانسية تلك الواحات الخضراء القائمة وسط كثبان الرمال والخالية من البشر، والتي لا يعكر

سكونها إلا أصوات صراصير الليل العالية تسري في سكون ذلك المكان، عبر الغطاء الأخضر الكثيف الذي صنعته الواحة.

نشطت الريح وبدأت تهب من ناحية الجنوب الغربي حاملة معها زخات من ذرات الرمال تحملها من مكان وتنشرها في مكان آخر فوق الكثبان محدثة خشخشة وهمساً، واهتزت الأطراف العليا للنباتات مع هبات الريح تميل برؤوسها يمنة ويسرة وكأنها تتحاشى لسعات ذرات الرمال التي تضرب سطح وريقاتها، وطاطات إبلنا رؤوسها بينما أقدامها تغوص في الرمل الناعم، تنقلها بصعوبة عبر التموجات الرملية التي كونت حدوداً طبيعية لواحات النخيل قبل أن تنتهي هذه في جوف ذلك البحر المعربد من المرتفعات الرملية التي ذكرتني قممها بقمم أمواج عاتية في بحر هائج.

ازدادت كثافة الغيوم، وأصبح النور الذي يطل بصعوبة من بين طياتها أقل إضاءة وأكثر ظلاماً. وثارت الزوابع وبدأ هطول الأمطار. ازداد مع المطر رغاء الجمال التي غرقها المطر، ورفضت أخيراً أن تتحرك، مما اضطرنا إلى التوقف من جديد لحين تحسن الطقس.

سقطت الجمال إعياء من التعب عارضة رقابها ضد الريح القوية بينما احتمينا نحن بها للحصول على بعض الدفء والحماية، حيث استمر المطر يهطل بغزارة مع ريح شديدة باردة. مكثنا هكذا مدة نصف ساعة إلى أن خفت حدة المطر استأنفنا بعدها السير للحاق بقافلتنا عبر فلاة خفت بها كثافة الرمال لقربها من نهاية المنطقة الرملية. لحقنا بهم وهم على وشك الرحيل وسرنا معاً مدة ساعتين ونصف الساعة خرجنا خلالها من المنطقة الرملية. سرنا في البداية في

منطقة جرداء لاحظنا في بعض أجزاء منخفضة منها مساحات بيضاء دلت على وجود الملح فيها. إضافة إلى ذلك راينا تكوينات صخرية داكنة ربما كانت بقايا براكين قديمة. بعد ذلك وصلنا منطقة ترابية منبسطة تشقق سطحها بسبب الجفاف، ثم دخلنا منطقة صخرية وعرة تحيطها التلال التي نصبت فوق قممها بعض الرجوم مما يدل على أن بعض الناس حطوا رحالهم قربها. في هذه المنطقة اقام عبدالعزيز بن رشيد امير حائل معسكره من عشر سنوات مضت. لقد دلت الرجوم وتلك الأماكن المحاطة بالحجارة التي تستخدم للصلاة وتشير إلى القبلة وايضاً المباني الحجرية الصغيرة التي تقام لقضاء الحاجة وللوضوء، كلها دلت على الوقت التقريبي الذي أقيمت واستخدمت فيه.

توقفنا بعد الظهر فوق حافة واد شديد الانحدار ووجدنا أن المنظر قد تغير هنا فجاة كما حدث عندما وصلنا الزلفي. كان الوادي هنا اكثر ضيقاً إلا انه محاط على الجانبين بتلال عالية من الرمال. سلكنا في قاعه طريقاً ضيقاً متعرجاً قادنا إلى واحة تسمى الشماسية. شاهدنا جملاً وثوراً هزيلين يقومان بسحب المياه من البئر. ذكرني ذلك الثور الهزيل ذو الأكتاف المرتفعة بالبقر الهندي.

الصوت الوحيد الذي كان يسمع في ذلك الوادي الضيق والذي يكاد ينصهر من لهيب حرارة الشمس التي تلفحه هو صوت السواني وهي تئن وتتوجع اثناء خروجها من البئر محملة بمائها الذي تصبه بصوت مسموع في بركة صغيرة يوزع منها على مربعات النخيل. راينا شجيرات النخيل وهي تتوهج وتتراقص تحت سياط اشعة الشمس المسلطة عليها. راينا ايضاً اعواد القمح الخضراء المزروعة

في أحـواض النخـيل. وخلف أشــجـار النخـيل بدت جـدران القـرية وابراجها.

استأنفنا رحلتنا مختـرقين شوارع القرية ومنها إلى الصحراء مرة اخـرى. بعـد سيـر نصف سـاعـة وصلنا إلى اعلى تل رملي ومن هناك نظرنا خلفنا إلى الواحة الخضراء التي تضم الشماسية التي يقول الرواة: إن أهلها الشجعان دافعوا عنها ببسالة مدة خمسة عشر يوماً واستطاعوا في النهـاية ان ينقـذوها من السـقـوط في أيدي قـوات إبراهيم باشـا الغازية.

توقفنا عن السير في الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة وكان اليوم هو ١٥ مارس. ولكن ما إن رحلنا في الصباح إلا واكتشفنا ان بعضاً من المسافرين قد غادروا المخيم قبلنا. استأنفنا السير دون نظام أو خطة مما دل على قرب الوصول إلى وجهتنا النهائية. بعد السير ثلاثة أرباع الساعة وصلنا منطقة جرداء منخفضة ذات تربة مالحة. إنها المنطقة المشهورة المعروفة بوادي الرمة، والتي يطلق عليها السكان هنا اسم الوادي فـقط، وهو يجـري من المدينة إلى البـصـرة ويمد القـصـيم والمناطق المحيطة بها بالماء. يبلغ اتساع الوادي في هذه المنطقة خمسة كيلو مترات ويتجه من الجنوب إلى الشمال.

في منتصف الوادي تماماً ينفصل الركب الذاهب إلى عنيزة ويتجه نحو الجنوب الغربي. وبينما يختفي القوم خلف الأفق تتخذ هياكلهم أشكالاً مشوشة بتاثير السراب. أخيراً نصل إلى الطرف الأقصى للوادي حيث نجد سهلاً منبسطاً وبعض الآبار التي زرع حولها بعض الذرة، ولكننا لم نشاهد نخلاً. المكان هنا يطلق عليه طعمية. نستمر في

سيرنا عبر أرض رملية ارتفعت بها الكثبان ونعبر حزماً رملياً يظهر خلفه امامنا منظر يدق له قلبي بقوة.

على بعد بضعة كيلو مترات وخلف سلسلة من التلال ترتفع جدران بلون الرمال تتخللها مجموعة من الأبراج، وخلف الجدران تقوم منازل ذات أحجام مختلفة، وقلعة ضخمة مشيدة من نفس طين المنازل، وبها عدة أبراج وفتحات في الجدران للمراقبة. ظهرت كذلك مزارع النخيل وسمعنا صوت سواني المياه تنوح باستسلام وصبر. إنها بريدة مركز التجارة والتزمت كما اكتشف دوتي لسوء حظه منذ جيل مضى. صرت الآن استعجل السير كي أرى إن كانت ما زالت كما قال عنها دوتي أم تغيرت.

سرنا في ارض سهلة وعبرنا حدائق نخيل اصبحت على وشك ان تدفن تحت اطنان من الرمال الزاحفة، لكنها ما زالت قائمة وما زالت سوانيها ترسل انينها بصمت وشجاعة. وصلنا إلى اسوار المدينة وقد غطى الدم وجوهنا وايدينا من جراء التعرض للعواصف الرملية. وجدنا قرب الأسوار رجالاً يجلسون بكسل ولم يكلفوا أنفسهم السلام علينا. لاحظت ان مرافقي علي كان مكتئباً وصامتاً، وأعتقد انني شاهدت عينيه تلمعان بدمعة. وجدنا احد رجال الأمير الذي جاء ليدلنا على مكان إقامتنا. عبرت جمالنا البوابة وأحمالها تتأرجح فوق ظهورها. هانحن اخيراً في بريدة.

(٦)

من بريدة إلى الرياض

قادونا بسرعة عبر البوابة إلى فناء مفتوح داخل المدينة، حيث عبرناه إلى ممر ضيق يمر قرب مبنى القلعة الضخم الموحش، ووصلنا إلى باب خشبي كبير. اناخوا الجمال في الشارع الضيق الذي يغطيه التراب، وانزلوا الأحمال بسرعة وسحبوها إلى الداخل، ثم أدخلوا الجمال نفسها عبر البوابة الخشبية الكبيرة، وكان هناك رجلان من رجال الأمير حرصا على إبعاد الناس الذين تجمعوا حولنا يدفعهم الفضول لمعرفة القادمين الغرباء. اغلق الباب وعاد الزقاق الذي يشع حرارة من أشعة الشمس المنصبة عليه إلى هدوئه من جديد.

كان الانتقال من اشعة الشمس الساطعة إلى داخل المبنى المعتم مفاجئاً لدرجة اننا مكثنا بضع ثوانٍ لا نكاد نرى شيئاً إلا ان عيوننا استعادت شيئاً فشيئاً قوة إبصارها مما مكننا من رؤية الأشياء حولنا. كنا نغوص في التراب إلى ركبنا. لا يزيد اتساع الغرفة التي دخلناها على خمسة أمتار مربعة إلا أن جدرانها الطينية ترتفع إلى ستة أمتار. يوجد على مساحة قصيرة تحت سقفها فتحتان تسمحان بدخول بصيص من النور يزيد من كآبة المكان، كما تنبعث منها روائح التراب ودخان الحطب المحروق الذي صبغ جدرانها باللون الاسود وخاصة في اعلاها.

للغرفة باب واحد هو الذي دخلنا منه. هناك درج يصعد من

أحد الجدران شيدت عليه حافة من الطين، وينتهي بما يشبه الشرفة المسقوفة. ولقد بدا لي أن الغرض من وجود تلك الشرفة، هومراقبة ما يدورفي الغرفة مما أزعجني إلى حد كبير.

سألني علي بصوت هامس اين سيضع متاعي. طلبت منه ان يفرش سجادتي تحت الشرفة المتهمة وأضفت قائلاً بزهو: "هانحن في نجد ياعلي. وقد وصلت بريدة عندما صممت على الوصول إليها كما ترى. الست سعيداً أننا بلغنا هذا المكان في سفرنا؟: "نعم ياسيدي". أجاب علي وقد ترقرقت الدموع في عينيه وأدار راسه بعيداً.

كان عبدالعزيز وعلي يتحدثان بهمس في الممر الضيق الذي يؤدي إلى الباب الذي يفتح على الزقاق الضيق، عندما وصل رجلان مسلحان من رجال الأمير واقتادا عبدالعزيز معهما. عاد علي إلى الغرفة وجلس صامتاً، وحاولت لوقت طويل أن أعرف ماذا جرى ولكن دون فائدة. ولم يتكلم إلا بعد ان اكدت له ان اعصابي اقوى بكثير على احتمال المكاره من اعصابه – إذ أخبرني عند ذلك أننا كنا قاب قوسين أو أدنى من الموت قبل ساعتين من وصولنا إلى بريدة.

والحكاية كما قصها علي هي أن ثلاثة من أفراد القافلة الذين سبقونا إلى بريدة من معسكرنا السابع عشر نقلوا إلى الناس هناك ان نصرانياً يرافق القافلة القادمة إلى المدينة. أثار الخبر لدى سماعه صدمة حملت بعض المتشددين على حمل سلاحهم، والقيام بغزوة للقضاء على كل من في القافلة قبل وصولها المدينة. في آخر لحظة أوقف الأمير الغزوة ليس بسبب اي حب او تسامح ولكن بسبب الخوف، لأنه كان قد عرف انني اسافر تحت حماية الشيخ مبارك، وانني احمل خطابات

توصية لزعماء نجد . عندما سألت عليّاً لماذا هو حزين الآن طالما لم نصب باذى وما زلنا احياء؟ كاد ان يبتسم إلا انه عاد وقطب ما بين حاجبيه. اتساءل احياناً عما يمكن ان يحدث لي لو ان علياً هذا الذي اثق به اكثر من الجميع، ولا استغني عنه فكر ان يتمرد علي. ويبدو انه في طريقه إلى ذلك. وفي هذه اللحظات لم يكن حسه الفكاهي يخونه بل ذكاؤه ايضاً تخلى عنه. لقد أصبح بليداً وغامضاً وترك نفسه فريسة لليأس.

الوقت الآن الظهر. يجلس علي بشكل دائم في أحد أركان الغرفة، بينما يجلس قبالته فهد احد رجال الأمير، بعباءته السوداء وشماغه الازرق. وضع فهد الكحل في عينيه وحواجبه مما جعل منظره يبدو لي اكثر تجهماً. كان يجلس على ركبتيه ويتكيء على بندقيته ويراقبنا بصمت. كان الذباب في السقف يقوم برقصات غريبة ويرسل طنينه الذي ينخفض ويرتفع طبقاً لحدة طيرانه. ومن الطاقة الموجودة في الحائط تسلل وميض نور من أشعة الشمس كان يتحرك ببطء غير محسوس عبر الحائط المقابل. وانكسر الصمت فجاة باصوات صياح أتت من الخارج تبعها فوراً طرق شديد على الباب. إنهم مجموعة من المتزمتين يحاولون الدخول علينا عنوة. ويبعدهم فهد بعيداً عن الباب مستخدماً عقب بندقيته. ومرة أخرى يسود الصمت وطنين الذباب.

يطرق احدهم الباب من جديد. يفتح فهد ليدخل عبدالعزيز ورجل آخر من رجال الأمير. كان عبدالعزيز يرخي رأسه ويهمهم وما لبث ان رمى نفسه ارضاً، واسند راسه إلى الجدار وراح يبكي بهدوء وجسمه كله يهتز. استنتجت ان مقابلته مع الأمير لم تكن

على ما يرام. جاء بعد ذلك أحد مطوعي الأمير واسمه مبارك. كان وجهه سمحاً ويلبس عباءة سوداء مقصبة ويتمنطق بخنجر فارسي. حيانا بادب إلا أن وجهه بقي ينطق بعدم تقبلنا. اصدر بعض أوامره لرجال الأمير بصوت خفيف صارم ثم امر علياً ان يتبعه. ومرة اخرى يغلق الباب خلفهم ومرة أخرى أجد نفسي مع وحدتي بينما فهد يقوم بدور المراقب وعبدالعزيز يبكي وشعاع الشمس يتحرك فوق الجدار والذباب يستمر في طنينه في جو الغرفة الترابي الهادئ.

كنت اتساءل كيف يتصرف علي الآن فيما يتعرض له أياً كان. ذلك كان همي وعليه تعتمد أشياء كثيرة. إن الروح العالية هي اهم ما نملكه في الوقت الحاضر. إن الهدوء التام والكبرياء الذي لا يخجل من نفسه يخدمنا الآن اكثر من اي شيء آخر. اخيراً عاد الملا ومبارك ومعهما علي الذي توقف الآن عن البكاء، واتخذ مظهراً جاداً وهادئاً. طلب منا الآن ان نذهب لمقابلة الأمير. كان ينتظرنا في الخارج رجال مسلحون لمرافقتنا سرت في وسطهم مع الملا وعلي، وكانوا يحيطون بنا بشكل يجعل إطلاق النار علينا من اي نقطة من فوق السطوح صعباً وقد يصيب أولئك الرجال المسلحين دون إصابتنا. كان هناك رجال آخرون من حرس الأمير يسيرون امامنا، وبايديهم عصي طويلة يبعدون عنا الفضوليين من سكان المدينة الذين تجمعوا في الشوارع القريبة. توجهنا جميعاً إلى السراي. سرنا في نفس الطريق الذي جئنا منه وعبرنا نفس الفسحة أمام القلعة وشاهدنا جملين عاريين من الشعر يتمرغان في التراب.

طرق الملا باباً مواجهاً للقلعة ففتحه عبد زنجي. عبرنا إلى ردهة

شعرنا فيها ببعض الهواء البارد، وخفت فيها حدة ضياء الشارع ومنها عبرنا باباً آخر، وجدنا انفسنا بعده في قاعة استقبال الأمير. إنها قاعة مربعة واسعة تضيئها فتحات مثلثة جعلت في جدرانها. أرض القاعة مغطاة بالحصر والمفارش، وعلى جدرانها علقت السيوف والبنادق حيث يضعها الحراس عندما يدخلون القاعة. يجلس في صدر القاعة على الأرض متكئاً على بعض المساند أمير بريدة فهد بن معمر[1]. امام الأمير يوجد وجار، وبجانبه عبد اسود يحضر القهوة. وعلى جانبي القاعة يجلس رجال الأمير واتباعه في صفين طويلين يشاهدون القادمين الغرباء بفضول واضح. تبادلنا التحيات وجلست انا وعلي بجانب الأمير.

أمير بريدة رجل متوسط العمر وعادي بكل المقاييس. شعره اسود مجعد ينحدر على كتفيه دون تجديل. إحدى عينيه عمياء يملؤها الغمص والأخرى رمداء وشفتاه غليظتان ووجهه منتفخ واصابعه سمينة. يحمل بيده مسبحة ذات حبات زجاجية كبيرة صفراء. نظر بعينه السليمة إلى ضيوفه بينما سقط خيط من الضوء على عينه العمياء – ثم حرك شفتيه الضخمتين الرطبتين وابتدأ استجوابه الحاقد لي: من انت؟ من أين اتيت؟ لماذا اتيت إلى نجد؟ هل انت إنجليزي؟ هل تعرف والي البصرة؟ هل تأخذ صوراً فوتوغرافية؟ هل أنت طبيب؟

---

(١) فهد بن عبدالعزيز بن معمر -يرحمه الله- أمير بريدة، كان شجاعاً فارساً شهماً جواداً ذا قوة وعزيمة مهاباً محبوباً ورعاً، وكان من أرمى أهل زمانه بالبندق (بواردي) وخيال يشار له بالبنان، ومحارب صنديد، وله في الحروب المواقف المشهودة والآثار الجميلة.
وكان قوي البنية طويل القامة، قمحي اللون، كثيف شعر الوجه، ضخم الاطراف، غليظ الشفتين، واسع العينين. فقد بصر عينه اليسرى وهو شاب، قيل عنه: إنه كان اليد اليمنى للملك عبدالعزيز -يرحمه الله- في تأسيس المملكة، وكان عمره يوم مقتله يقارب ٥٧ عاماً، استشهد في موقعة فتح حائل في السادس من شوال عام ١٣٣٩هـ الموافق الثاني والعشرين من يونيو ١٩٢١م.

هل تجمع حجارة أو نباتات من البلاد؟

ماذا تريد من ابن سعود؟

هل زرت اي مكان هنا في القصيم حيث يوجد الذهب؟

هل تسجل ماتشاهده في كتب؟

كم من الوقت قضيته مع مبارك؟

ما اسم المكان في القصيم الذي يوجد فيه الذهب؟

كيف جرات على المجيء إلى بريدة؟ غير المؤمنين لا ياتون هنا.

من أرسلك إلى هنا؟ إلخ ... إلخ ...

هكذا استمر يسالني لفترة طويلة، يغير صيغة اسئلته احياناً، يخلطها أو يغير كلماتها، ولكن دون أن ينجح في حمل ضيفه غير المرغوب فيه على إعطاء اي اجوبة متضاربة. لم يحاول ان يتعرف على خطاب التوصية الذي حملته معي من مبارك، واخيراً حول الحديث إلى امور اخرى. استفسر مني عن خط رحلتي واخبرته انني انوي المسير من بريدة إلى عنيزة ثم الرياض، ومنها أعود إلى الأحساء. تلقى جوابي ذلك برفض واضح وعداء غريب واعلن بسرعة انه لن يسمح بذلك وان علي ان اعود إلى الكويت بنفس الطريق الذي اتيت منه.

اجبت ان مسؤولية منعي من السفر سوف تقع على راسه إذا اختار أن يظهر عداءه لمبارك وابن سعود وأطلعته على الخطابات التي احملها معي إلى الرياض. اتخذ الحديث بعد ذلك منحى آخر، إذ سالني فجاة إن كنت احمل اي خطابات لامير عنيزة. لم يكن معي خطابات لأمير عنيزة، ولكن قال إنه سيزودني بخطابات له ولكنه سوف يستفسر منه اولاً إن كان يوافق على استقبالي. داخلتني

الشكوك مما قال ابن معمر ولكنني شكرته على اي حال، واضفت أنه إذا كان الأمير يرفض استقبالي فبإمكاني ان اتجنب الدخول إلى بلده وأنا في طريقي إلى الرياض.

قدم لنا العبد ذو الملابس البيضاء الشاي بعد ان قدم لنا القهوة. وبينما استمر ذلك الرجل الأسود يقدم القهوة والشاي تباعاً، سألني الأمير عن آخر اخبار الحرب بين الاتراك والإيطاليين في طرابلس. بعد ذلك سأل علياً عن الأحوال في بغداد ثم اعطاه نسختين من جريدة عربية تطبع في إسطنبول يبدو أنه مشترك فيها. تصل تلك الجريدة من إسطنبول عبر المدينة إلى بريدة في حوالي ثمانية عشر يوماً.

بقي رجال الأمير وزواره جالسين بصمت في أماكنهم مستندين إلى الجدران بينما استمر حديث الأمير برتابة لا يقطعها إلا صوت حبات مسبحته، وقرقعة فناجين القهوة التي استمر العبد يديرها على الحاضرين. فجاة اعطى الأمير إشارة معينة ففز على اثرها فهد صاحب الشماغ الأصفر، واشار لي ولعلي أن نتبعه إلى خارج المجلس. خرجنا من باب غير ذلك الذي دخلنا منه، ووجدنا أنفسنا في ممر مظلم. دفعنا فهد إلى السير أمامه وتلمسنا طريقنا إلى درج تنفذ إليه بعض خيوط من شعاع الشمس اضاءته لنا. تسلقنا الدرج وسؤال كبير يدور برؤوسنا عما ينتظرنا عند نهاية الدرج حتى وصلنا إلى السطح. هنا وجدنا عبدالعزيز، كما وجدنا مائدة وضعت على الأرض في وسطها صينية كبيرة من النحاس. وجدنا عبداً يذود الذباب عن الطعام باستخدام مروحة كبيرة من سعف النخيل، وبينما نحن نغسل ايدينا في طاسات من النحاس جاءت زبادي إضافية مليئة باللبن والسمن.

كما احضروا أيضاً كميات من الخبز؛ وبينما الشمس تصب أشعتها الذهبية بعد الظهر فوق الأسطح، جلسنا نحن نتناول طعام العشاء.

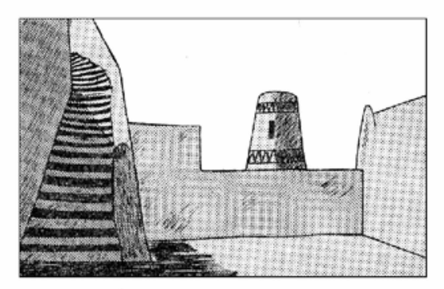
ترددت أنا وعلي في الجلوس إلى المائدة قبل ان نعرف من سيشاركنا الطعام. فهم رجال الأمير الإشارة وجلس اثنان منهم للعشاء معنا. صنعت الأكلة من خلطة من الرز والقمح والشعير، وأي حبوب اخرى استطاعوا ان يجدوها وطبخ كل ذلك بالسمن. وضع على قمة الخلطة قطع من لحم الضان الحار الذي انبعثت منه رائحة كريهة. وضعوا أيضاً بعض الزبادي الصغيرة المملوءة بالسمن الحار في أطراف الصينية الكبيرة نفسها، كما كانت هناك ايضاً زبادٍ ملئت لبناً ورصت مع ارغفة الخبز حول الطبق الكبير. طريقة الأكل هي غرس اليد اليمنى في الرز الحار مباشرة واخذ ملء الكف من تلك الخلطة ثم تكويرها باصابع اليد اليمنى أيضاً وغمسها في السمن الحار ثم دفعها بالإبهام إلى الفم وهي تلمع من السمن الذي يسيل منها. اما اللحم فإن الأيدي تمتد إليه في وقت واحد ويقطع كل شخص من الطاعمين قطعاً يرميها في فمه. وهم يحرصون على إبقاء قطع اللحم وسط الصحن فوق الرز. قد يشرب بعضهم اللبن أثناء تناول الطعام ولكن الاغلب انهم يشربونه في نهاية الوجبة.

سرعان ما انتهينا من الأكل وساعدنا أحد العبيد في غسيل أيدينا ووجوهنا. قادنا فهد بعد ذلك في طريق آخر غير الذي جئنا منه وطلب أيضاً أن نسير أمامه بينما هو خلفنا يوجهنا يميناً أو شمالاً. عبرنا عدة ممرات ضيقة إلى ان هبطنا اخيراً درجاً متهالكاً. سرنا بعد ذلك في ممرات اخرى ضيقة ومعتمة نتلمس طريقنا بالاحتكاك بالجدران وعبرنا

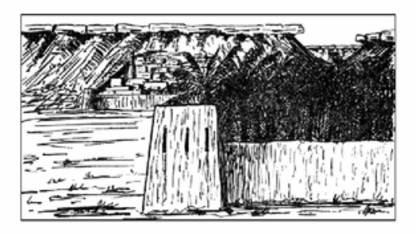
عدداً كبيراً من الردهات. كنت اتساءل طوال الوقت عما يراد بنا. اخيراً فتح باب وعبرناه لنجد انفسنا وسط ضوء النهار وعلى بعد خطوات من غرفتنا. دخلنا مجلسنا المعتم المليء بالغبار، وقفل الباب خلفنا وجلسنا نفكر كيف سينتهي ذلك اليوم في بريدة.

هناك احتمالات كثيرة، اكثر مما نحن بحاجة إليها. ولكن ليس كل ما فكرنا فيه كان منطقياً. اختفى الآن شعاع الشمس الذي كان يضيء الغرفة، واصبحت شبه مظلمة بينما انطلق صوت المؤذن يدعو المؤمنين لصلاة المغرب. كان صوت المؤذن يصدح في المنطقة، احياناً عالياً حزيناً واحياناً منخفضاً شجياً. ما إن انتهى المؤذن من النداء للصلاة حتى نهض فهد ورجال الامير الآخرون وغادروا الغرفة لاداء الصلاة.

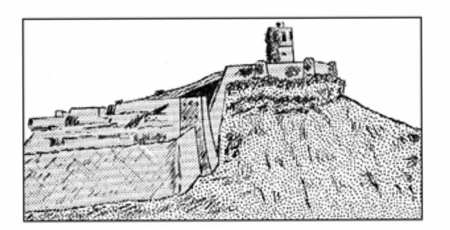
انتهزت الفرصة وصعدت الدرج الموجود بالغرفة بسرعة والذي يؤدي إلى تلك الشرفة الحقيرة. لم اجد شيئاً هناك ما عدا باباً فتحته ووجدت أنه يؤدي إلى سطح خال. من ذلك السطح يصعد ايضاً درج مهترئ يقود إلى سطح آخر أعلى من سطح غرفتنا. صعدت الدرج هذا والقيت نظرة على بعض أجزاء المدينة إلا انني اسرعت بالنزول عندما سمعت اصواتاً في الأزقة الضيقة المجاورة، ورايت اناساً على سطح المسكن المقابل. رأيت من السطح المنخفض فناء آخر ووجدت ان كل تلك الفناءات والأسطح وما شابهها متصلة بعضها ببعض كما انها تصل بين بيوت مهدمة بما فيها من جدران وبعض المآذن الأسطوانية. هناك على السطح رايت عدداً من الفتحات دون أبواب تفتح على ادراج، تهبط إلى ظلام دامس لم احاول ان استكشفه.



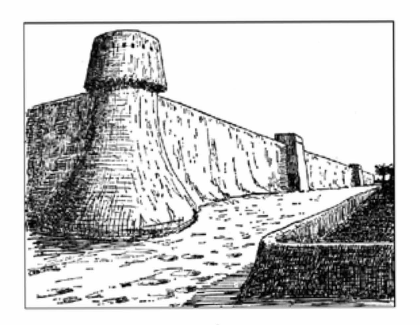
سطح منزل في بريدة ويبدو خلفه مئذنة على شكل كشتبان



الغاط



الجمعة وقلعتها



سدوس

رسمت بسرعة بعض المناظر التي رأيتها وعدت أدراجي إلى علي ووصلت الغرفة لحظة واحدة فقط قبل عودة فهد.

هبط الليل واحتضن فهد بندقيته واستلقى للنوم عند الباب بينما استسلمنا نحن ايضاً للرقاد. حوالي منتصف الليل سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب أفزعنا فهببنا من نومنا مذعورين. فتح فهد الباب ودخل مبارك مطوع الأمير يتبعه رجال مسلحون. أعلن مبارك عن رغبته التحدث مع علي وانفرد الاثنان جانباً، واخذا يتحدثان بهمس لبعض الوقت . بعد ذلك جاءني علي يقول إن مباركاً يسال إن كنت احضرت اي هدية للأمير. كنت تحدثت حول هذا الأمر مع مبارك امير الكويت، وأصر ان لا آخذ أي هدايا معي لأمراء نجد قائلاً إنني ضيفه وضيف ابن سعود وإنهما لا يقايضان ضيفهما بهدايا.

اتضح لي الآن ان الشيخ النبيل فهد بن معمر لديه راي مخالفٌ حول هذه المسألة وانه قرر بحكم مركزه ان يحصل على هدية مني. وجدت ان علي تحت الظروف الحاضرة ان ادرس كل الطرق المتاحة لي لاخرج من ذلك الموقف الصعب، وباقل قدر من المعاناة حتى اتمكن من استئناف رحلتي. خطر لي بسرعة ان اعلن انني أحضرت مسدساً ممتازاً يسعدني ان أقدمه للأمير؛ وحتى لا اطالب بشيء آخر اسرعت أضيف إن لدي ناظوراً أحتفظ به لأمير عنيزة، وبندقية سوف اقدمها لإمام الرياض. ثم رجوت مباركاً ان يعود عند طلوع الشمس لاستلام المسدس وطلقاته المائتين حتى تكون جاهزة لتقديمها للأمير عندما يجلس في مجلسه في الصباح، غادر مبارك الحجرة مع اتباعه ولجانا نحن للنوم ساعات أخرى نسينا فيها متاعبنا.

١٦ مارس:

بعد ثلاث ساعات من طلوع الشمس عاد مبارك وأخذ المسدس. وبعد ساعة أخرى عاد به ليخبرني، أن الأمير رفض المسدس لأنه غير جيد وإن سلاحاً مثل هذا لا توجد به اي زخارف لا يليق ان يقدم لأمير بريدة. كدت أقول إن رصاصة واحدة من رصاصاته إذا استعملت بالطريقة الصحيحة تكفي هدية للأمير، إلا انني أمسكت نفسي عن قول ذلك وقلت بدلاً منه، إنه إذا كان المسدس لم يعجب الأمير فإنني أنا بحاجة إليه واستطيع استخدامه بطريقة ممتازة.

عاد مبارك إلى استكمال رسالة الأمير التي قطعتها بجوابي، وقال إن راكباً وصل هذا الصباح إلى بريدة قادماً من عنيزة، واحضر رسالة من اميرها يقول فيها إنه لا يسمح لي بدخول بلده. واضاف مبارك ان الأمير يقول إنني حيث لن اذهب إلى عنيزة فإنني لست بحاجة إلى الناظور الذي سأقدمه هدية لأميرها وإنه لهذا يود أن يعاينه لعله يجده أقل تفاهة من المسدس ويقبله. عاد المطوع بعد وقت قليل وافاد ان الأمير اعجب بالناظور واحتفظ به. اضاف مبارك انه يرى على الرغم من ذلك أن الناظور وحده لا يشكل هدية تليق بامير، وإنني لو اضفت المسدس إليه فإن الأمير سيسر، وانال على ذلك رضاه. ولإنني كنت أستعجل الرحيل، فقد ناولت المسدس لمبارك ليعطيه للأمير ويسأله ايضاً إن كان يرغب في اي شيء آخر. وعاد مبارك مرة اخرى بعد نصف ساعة يقول إن الأمير اقتنع بالهدية ولا يرغب بشيء آخر وانسحب من الغرفة. مرت الساعات بعد ذلك بطيئة متثاقلة هادئة لا يسمع فيها إلا طنين الذباب ولا يرى إلا ذلك الشعاع الذي وجد

طريقه، مثلما فعل بالأمس من إحدى الفتحات الصغيرة الموجودة بالحائط، لم نحصل على اي طعام وفي الواقع لم ناكل شيئاً منذ البارحة بعد الظهر.

جاءني مبارك بعد العصر واخبرني ان الأمير سوف يرسل معنا رجلاً لمرافقتنا إلى الرياض، رجل من رجالات ابن سعود يرشدنا إلى هدفنا ذلك الذي طالما تطلعنا إلى الوصول إليه، يقودنا إليه بسلام.

تقرر ان نغادر بريدة صباح اليوم التالي وان نتجنب الدخول إلى عنيزة، ونتوجه جنوباً مخترقين وادي السر. ذهب رجالي إلى السوق لابتياع ما نحتاجه للطريق ولكنهم سرعان ما عادوا مطرودين؛ لأن اصحاب الدكاكين في بريدة رفضوا ان يتعاملوا مع أي عرب يخدمون كافراً.

قبل مغيب الشمس جاء مبارك مرة أخرى يخبرني ان الأمير لا يسمح لنا بالسفر عبر وادي السر؛ لأن الطريق غير مامون، ولأنه لا توجد بلد نتوقف فيها بين عنيزة وشقراء. رأيت أنه من غير المفيد ان اعترض على راي الأمير وعليه لم يبق لدي من خيار إلا العودة إلى الزلفي، ثم أتوجه من هناك إلى الرياض عن طريق جبل طويق. صدرت تعليمات الأمير لرجله فهد الذي عينه حارساً علينا، ان يرافقنا إلى الرياض .إن هذا الرجل الذي اوكلت إليه مهمة مراقبتنا منذ وصولنا كان وهابياً كئيباً متزمتاً زاد من تجهمه الكحل الأسود الذي يصبغ به دائماً عينيه وحواجبه. إنه يمد الكحل خارج عينيه لدرجة ان جفونه تبدو وكانها متصلة باذنيه .

في المساء رغب الأمير في محادثة علي، وتحدث معه طويلاً

محاولاً إثناءه عن إكمال الرحلة معي، والبقاء في بريدة ولكن عليا رفض. احضر لنا فهد في المساء بعض الخبز القديم وماء سيئاً للشرب. أصبح كل شيء جاهزاً للرحيل وبتنا ليلتنا تلك جائعين.

١٧ مارس:

احضرت إبلنا إلى الممر الضيق أمام غرفتنا وحملت عليها امتعتنا. لم تكن هناك اي إشارات للحياة في المدينة في ذلك الصباح البارد ولم نر إنساناً واحداً. لم نغادر جميعاً سوياً بل اتجه عبدالعزيز واخوه إلى السوق، في محاولة اخرى لشراء بعض ما نحتاجه للطريق بينما اتجهت انا وعلي ومعنا فهد لتوديع الأمير وقد تقمصت وقتها شخصية المحب له. شربنا لديه فنجانين من الحليب الحار ثم كان وداعاً شديد البرودة امتطينا بعده ظهور جمالنا، وخرجنا من البوابة نفسها التي دخلنا منها. كان معنا ثلاثة جمال للركوب ورابع لحمل المتاع. هناك بعيران آخران للاحمال سيظهران فيما بعد مع عبدالعزيز. وقف بعض المتطفلين عند البوابة، ولكن عصا فهد التي يعرف كيف يستعملها سرعان ما فرقتهم.

استقبلت جمالنا الطريق الصحراوي تشقه بكبرياء واضح كما ارتفعت ايضاً معنوياتنا نحن بعد ان تخلصنا اخيراً من مرحلة من اشد المراحل صعوبة، واقلها بهجة قابلناها في رحلتنا.

توقفنا بعد مسافة قصيرة عند إحدى الآبار لملء قربنا وسقي اباعرنا وانتهزت الفرصة وقمت برسم بعض المناظر قبل ان نستانف سيرنا وسط بساتين النخيل. بعد سير ما يقرب من ساعة وخروجنا من

الرقعة الزراعية في بريدة توقفنا عند سفح تل غطته بعض الشجيرات البرية والقينا نظرة أخيرة على أبراج بريدة، التي ارتفعت عند الأفق. كانت الرمال لا تزال تحمل صقيع الليل كما ان ريحاً أشد برودة تهب علينا من الشمال مما جعلنا نرتعد من البرد، ولكن ذلك لم يمنعنا من أكل بعض التمر وشرب القهوة حتى يلحق بنا رفاقنا. مرت الساعات ولم يظهر عبدالعزيز إلا عند الظهر، حيث وصل مع أخيه ومعهما بعض اهالي الزلفي الذين كانوا في بريدة؛ لشراء بعض مستلزمات غير متوافرة لديهم مثل العجلة التي تستخدم في سحب الماء من الآبار.

استأنفنا سفرنا متلازمين نصعد التلال الرملية، ونهبطها حتى وصلنا وادي الرمة وقد توسطت الشمس كبد السماء، واصبحت الرؤية صعبة بسبب قوة السراب الذي حجب عنا طريق الوادي في اتجاهيه الجنوبي والشمالي، كما ان الرؤية البعيدة عموماً اصبحت أكثر صعوبة بعد أن فقدت منظاري الذي كنت ارى به الفضاء امامي. حرصنا على البقاء متقاربين من أجل سلامتنا. لاحظت أيضاً أن الأمزجة في القوافل الصغيرة تكون سيئة، وهكذا مرت فترة ما بعد الظهر في صمت يبعث على الكآبة.

في الساعة الثالثة وصلنا إلى الضفة الشرقية للوادي، وقطعنا بعدها كيلين بين الكثبان قبل أن نتوقف لإشعال نار، وطبخ طعامنا وكذلك لإعطاء فرصة للجمال كي تاكل. لم تكن نقطة توقفنا هذه تبعد كثيراً عن المكان الذي توقفنا به عندما كنا في طريقنا إلى بريدة ولكننا لم نجرؤ على نصب خيامنا والمبيت هنا الآن؛ لأننا ما زلنا قريبين من بريدة ونخشى على انفسنا من متشدديها.

طبخ علي دجاجة أحضرها من بريدة، وما إن تناولنا عشاء سريعاً حتى أحضرنا إبلنا وأعدنا متاعنا فوق ظهورها واستأنفنا سفرنا. سرعان ما حل الظلام وبدأت القافلة الصغيرة تتفرق عن بعضها بسبب الكثبان الصعبة والظلام الدامس. اختفى فهد الذي أزعجني سلوكه طوال النهار، وبقيت أسير ورفاقي وسط الظلام بينما هم يتجادلون حول أسلم الطرق التي توصلنا إلى الزلفي أحياء. إضافة إلى انزعاجي من سلوك مبارك؛ فقد كنت قلقاً أيضاً بسبب حادثة حصلت لي في واحة الشماسية عندما مررنا على تلك الواحة في ١٥ مارس.

التقطت في ذلك اليوم في واحة الشماسية بعض الصور الفوتوغرافية، وكان ذلك قرب بئر هناك كما التقطت صوراً أخرى فيما بعد، بعد أن تركنا بساتين النخيل وأصبحنا نسير فوق كثبان الرمال . كنت في كل مرة أعمل جاهداً على إخفاء معدات التصوير قدر ما أستطيع تحت عباءتي. إلا أن هبة هواء مفاجئة أزاحت عباءتي عن معدات التصوير التي سرعان ما لمعت بالشمس أمام عيون الرفاق الذين دهشوا للمنظر. حتى رجالي أنفسهم اتخذوا مني موقفاً غير ودي وأدركت أنني أتعرض لخطر طردي من القافلة كلية إذا لم أتوقف عن التصوير. هكذا كانت العودة الآن للشماسية والمبيت فيها شيئاً لم ينشرح له صدري أبداً، كما أن العودة أصلاً للزلفي كان شيئاً لم يسرني إطلاقاً . هناك أماكن قليلة في العالم تكون العودة إليها مرة ثانية أكثر مأساوية مما هي عليه في الجزيرة العربية. إنها غلطات مميتة يقترفها الضحايا وتكون نتيجتها الاعتداء على الرحالة أو اغتيالهم كما حدث لسيتزن عام ١٨١٠م وبيركهارت في عام ١٩٠٩م.

تزداد حدة الظلام شيئاً فشيئاً وخاصة بعدما ثارت عاصفة قادمة من الجنوب. ونستمر نحن في شق طريقنا فوق الكثبان الرملية. بين آونة وأخرى تبرق السماء وتتلالأ الصحراء لثوان بنور ساطع، ما يلبث ان يعقبه ظلام دامس. كان تاثير الطقس سيئاً على رجالي فقد ازداد شعورهم بالإحباط والتشاؤم خاصة مع وجود فهد ومراقبته الدائمة. لقد اكتشف ذلك الوهابي الماكر أكبر نقاط الضعف في عبدالعزيز وعلي وابتدا من اليوم الأول يستغلها ضد الأول لصالحه. كان عبدالعزيز هذا قد قتل منذ بضع سنوات واحداً من رجال ابن سعود والآن لا يترك فهد فرصة دون ان يساله كيف يتوقع ان يكون استقباله في الرياض.

كان يكرر على علي انه يتعهد بأن يوصلنا بسلام إلى الرياض ولكن ما يحدث بعد ذلك ليس مسؤولاً عنه. والآن وقد اختفى فهد بعد ان افصح عما في نفسه ازدادت مخاوف عبدالعزيز وعلي وحاولا بكل الوسائل المتاحة لهما أن يتنصلا من إكمال الرحلة إلى الرياض. اشتد الجدل بيني وبينهم إلى ان وجدنا انفسنا فجاة نهبط منحدراً رملياً حاداً اشبه ما يكون بجدار بئر. بجهد كبير استطعنا أن نصعد منه عبر منزلق عال ووجدنا انفسنا فوق قمة جبل رملي يحد الشماسية من غربها. امتدت الرمال أمامنا في الظلام وبدا الوادي غارقاً في سواد لا يكسره إلا بعض وميض نور قادم من بين أشجار النخيل في اسفله.

انحدرنا بسرعة إلى الوادي ومررنا ببساتين النخيل النائمة لا يقطع سكونها إلا اصوات صراصير الليل، وهناك تحت صخرة معلقة فوق جرف وجدنا فهداً وباقي افراد القافلة. هنا حططنا رحالنا واقمنا

المعسكر التاسع عشر، واحضر فهد بعض الرز واللحم من أمير الشماسية.

١٨ مارس:

سرنا من الشماسية في اليوم التالي على الطريق نفسه، الذي اتينا منه ونحن في طريقنا إلى بريدة. تلبدت السماء بالغيوم وهبت الرياح قادمة من الجنوب، وساقت معها الغيوم، وعندما وصلنا ارضاً رملية غرب الزلفي هبت علينا ريح عاتية، ابرقت الدنيا وارعدت وهطل المطر غزيراً واغرق قافلتنا بالماء، استمرت الإبل تشق طريقها عبر الكثبان تعلو وتهبط فوقها وهي تنوء بما تحمل. كانت العاصفة تشتد احياناً لدرجة تجعل الحيوانات غير قادرة على السير، كانت تقف وتميل باعناقها عكس اتجاه الريح العاتية غير قادرة على التحرك، وقد ارخت رؤوسها وراح ماء المطر المنهمر يسيل بغزارة من اجسامها. مضت ساعتان على تلك الحال قبل ان يتوقف المطر، ثم يهب نسيم خفيف جفف الإنسان والحيوان.

في وقت متاخر من الظهر نصبنا مخيمنا العشرين في الموقع نفسه الذي نزلناه عند قدومنا.

١٩ و ٢٠ مارس:

شددنا الرحال قبل طلوع النهار، ووصلنا الزلفي الساعة الثامنة صباحاً. مرة ثانية قصدنا بيت عبدالعزيز. من الممكن أن يصاحب عودة الشخص لمكان سبق أن جاءه شعور بالراحة، لولا ان ذلك الشعور فيما يخص بيت عبدالعزيز ياتي مصاحباً بذكرى مريرة، هي ان هناك من كان يقوم بالتجسس بصفة دائمة. كل يوم يمر كنا نشعر بازدياد

الخطورة علينا وأن المستقبل يبدو مظلماً . لقد كنا نعاني من تأثير فهد الكئيب على رجالي، ومن خوف عبدالعزيز من الموت أخذاً بالثار وإلحاحه على العودة إلى الكويت، ومن مخاوف على مصيرنا جميعاً في الرياض. وأخيراً كنت اعاني من الاضمحلال التدريجي لما احمله من نقود ومن حقيقة ان المرض يزداد علي يوماً بعد يوم وإن كل هذه الحقائق مجتمعة كونت عوائق كبيرة خطرة أمام خططي.

بعد رحيلنا من بريدة، وعندما كان علي ان أجلس فوق تلك الرمال الباردة لساعات طويلة أنتظر رجالي، اصبت بمرض معوي يشبه الدزنتاريا انهكني باشتداده علي يوماً بعد يوم، وسبب لي كثيراً من القلق. لم تعد لدينا بعد الآن قافلة نلجأ إليها عند الحاجة. اصبح علي الآن ان اكمل الرحلة إلى الرياض تحت هذه الظروف البائسة بصحبة اربعة رجال فقط وأربع بندقيات، الوحيدة منها التي تعمل هي بندقيتي، إضافة إلى ان الرجال الأربعة ليسوا محل الثقة وجمالهم أيضاً متعبة.

استرحنا اليوم في الزلفي وانتهزت الفرصة في إعادة ترتيب أوضاعي طبقاً للظروف الصعبة التي اصبحت أواجهها. وضعت كل حاجياتي الخاصة مثل المذكرات اليومية، والرسومات والخرائط والصور وغيرها من معداتي الضرورية، وضعت كل ذلك في خرج وحملته معي على البعير الذي أمتطيه كي اكون على يقين انني لن افقدها، إلا إذا فقدت حياتي نفسها. حاول فهد كل جهده أن يجعل أمير الزلفي يرسل معنا دليلاً إلى الغاط ولكن دون جدوى. ومضى اليوم بينما عبدالعزيز يقوم بزيارات لشرب فنجان من القهوة مع اصدقائه بالزلفي.

٢١ مارس:

غادرنا الزلفي متجهين جنوباً بمحاذاة واد يمر بالمنطقة. بعد السير ساعتين شاهدنا رجلاً يلحق بنا سريعاً اتضح أنه من قبيلة قحطان ويرغب في مرافقتنا، كان حاسر الرأس يغطي جسمه بثوب بال ويحمل بيده اليسرى صرة وضع بها حاجياته البسيطة، كما حمل باليمنى حربة بطول مترين استخدمها كعصاة يتكئ عليها في سيره. واستانفنا السفر فوق الخط الفاصل بين الأرض الصلبة واطراف بحر الرمال، ذلك الخط الذي يمتد على مد البصر.

شاهدنا قبيل منتصف النهار زوال شخصين يتجهان نحونا، وانتظرنا لنرى إن كانوا أكثر من اثنين. وعندما تاكد لنا أنه لا يوجد آخرون ذهب فهد لمقابلتهم. سلم القادمان خطاباً إلى فهد وعادا أدراجهما وتركانا نتعامل مع مفاجاة غير سارة. لقد حمل لنا الخطاب تحذيراً من امير الغاط بأنه لن يسمح لعبدالعزيز، والذين معه ان يدخلوا الغاط وإذا دخلوها بعد هذا التحذير فلن يلوموا إلا أنفسهم. كان لتلك الرسالة تاثير مزدوج متناقض، فقد أثارت الرعب في قلبي عبدالعزيز وعلي بينما أكسبت فهداً شعوراً بالمسؤولية. وعلى ذلك فقد أرسلناه امامنا ليمهد لدخول القرية. لم يكن لنا خيار غير ذلك، لأن رجوعنا سيكون دليلاً واضحاً على رعبنا من التهديد. كما أنه ليس بإمكاننا المرور خارج القرية لأنه، بغض النظر عن اي شيء آخر، كان علينا ان نتزود بالماء.

اختفى فهد وراء الأفق، وبينما مجموعتنا الصغيرة تشق طريقها ببطء تحت وطأة حرارة الشمس الملتهبة في تلك الفلاة القاحلة حدث

شيء كـان مؤلماً لدرجة ان الإنسـان لا يتمنى ان يحدث له ثانيـة في حياته كلها. كان فهد قد تفوه بكلام غير مناسب عن ابن سعود بالرياض، وقد أثر في رجالي الذين شقوا الآن عصا الطاعة ضدي صراحة، واعلنوا رفضهم الاستمرار في السفر نحو الرياض. وجاء عبدالعزيز باقتراح مجنون وهو ان نعود إلى الكويت ثم نرسل إلى الرياض نستاذن في القدوم وإذا سمحوا لنا نسافر إليها؛ واقترح الآخرون زيادة في الحيطة ان نقيد فهداً بعد ان نمر بالغاط، ونضعه على ظهر جمل، ثم بعد أن نتوقف على بئر الأرطاوية ونحصل على ما نحتاجه من الماء نزوده هو ايضاً بالماء والزاد ونترك له اختيار الجهة التي يرغب الذهاب إليها. ثم بعد ذلك نعود نحن إلى الكويت.

لقد تصورت نفسي في تلك اللحظة عائداً إلى الكويت معلناً انني قمت بآخر مغامراتي، ومقدماً نفسي لاميرها الشيخ مبارك الذي تصورت انه سيستقبلني في مكان مختلف غير الذي استقبلني فيه سابقاً وعلى وجهه ابتسامة انجلوساكسونية؛ وللحظة وجدت أنا أيضاً ان الموقف يبعث على الضحك، ولو ان الامر لا يدعو إلى الضحك. ومع تدهور حالتي الصحية، وضعفي العام، وخوفي من الغدر بي في تلك الصحراء المقفرة في قلب الجزيرة العربية، تصورت ان الموت يحدق بي وكدت أستسلم لمصيري الذي رأيته قادماً لا محالة.

اخذ النقاش يزداد حدة وعداوة. كنا نمر بمنطقة ظهرت بها بعض أشجار النخيل، وبعض الزراعات الاخرى، باستخدام مياه السيول التي تاتي من جبل طويق. وفي مكان ظليل ارتفعت فيه اشجار النخيل وبعض اشجار اخرى توقف الرجال قليلاً ليزيدوا من ضغطهم علي

لاتخاذ قرار العودة إلى الكويت. اجبتهم انني ساتخذ القرار ولكن ليس قبل ان نمر بالجمعة. اردت ان اعرف كيف سيكون استقبالنا في الغاط وفي الجمعة، وإذا وجدت بعد ذلك انه لابد من عودتنا امكننا بدء العودة من الجمعة، إما عن طريق اللصافة او حتى عبر الصحراء إلى الاحساء.

هكذا استمر الجدل إلى ان وصلنا إلى نقطة انحدار مفاجئة في الجهة الشرقية من الهضبة المرتفعة التي كنا نسير فوقها، والتي اظهرت لنا وادياً متعرجاً عميقاً امتلات جوانبه بالصخور الضخمة التي انحدرت على جانبيه. شاهدنا في نهاية الوادي حديقة نخيل وحيطاناً. كانت تلك واحة الغاط. استرحنا نصف ساعة قبل ان نستانف السير بصمت وامزجة متوترة نحو البلد. لا شيء يمكن ان يخرجنا من كآبتنا اقل من صدمة عنيفة، وهذا ما حدث فعلاً، ولو انه كان يمكن ان تاتي بنتيجة عكسية. لقد شاهدنا شيئاً يتحرك عن بعد بين الأحجار الكبيرة التي تملا الوادي. كان يتقدم مسرعاً نحونا، وكان يختفي بين آن وآخر بين الصخور دون ان نعرف ما هو اوكم هو. كان لدينا كما ذكرت ثلاث بنادق، وفي تلك اللحظة كانت حياتنا نفسها تتوقف عما إذا كان لدى القادمين بنادق اكثر. نسينا بسرعة خلافاتنا وتقدمت انا وعبدالعزيز وأخوه نحو القادمين، الذين ما زلنا لا نعرف من هم بينما بقي علي يحفظ مؤخرة الركب. اخيراً ظهر لنا مخلوقان غريبان يتسلحان ببندقيتين، وكانا يركضان نحونا غير عابئين بصيحات التحذير التي اطلقناها نحوهما؛ واصبحا من القرب بحيث لو اردنا ان نطلق النار عليهما لأصبناهما. صوبنا بنادقنا نحوهما ولما رايا ان

أسلحتنا تفوق ما معهما انحرفا بسرعة، ووقفا غير بعيدين وبنادقنا لا تزال مصوبة نحوهما. ولما تكلما قالا إنهما بدويان من قبيلة عتيبة، ولم يزيدا على ذلك بل أسرعا مبتعدين جنوباً، قبل أن تبتلعهما الصحراء مرة أخرى.

قابلنا فهد قبل أن ندخل الغاط، وقادنا في نصف دورة حول المدينة حيث توقفنا بعد ذلك لإقامة معسكرنا الثاني والعشرين في الجانب الجنوبي من المدينة، التي تقع قريباً من الحزام الصخري الذي كنا نسير بحذائه والذي يحدها من الشمال. أحضر لنا فهد طعاماً من الرز واللحم من المدينة، على الرغم من انه لم يكن هناك اتصال بيننا وبين السكان ما عدا تلك الرؤوس التي كنا نراها تعلوا وتهبط، تتطلع نحونا بفضول من المناطق المرتفعة حولنا. وزارني امير الغاط قبيل المساء. كانت المقابلة جافة، ولم يتفوه الرجل باكثر من عشر كلمات طيلة الزيارة. كما انه احضر معه شيخاً هرماً بادي العداوة نحوي، كنت قد رأيته قبل ذلك بيوم واحد في بيت عبدالعزيز بالزلفي؛ لقد جاء ذلك الرجل ركضاً في الليلة السابقة من الزلفي إلى الغاط فقط ليهيئ الناس هناك لإعداد استقبال حار لي، وهذا هو الذي جعل الرجلين اللذين لحقا بنا امس يعطياني خطاب التحذير، الذي ذكرته سابقاً. وهكذا فقد كان من دواعي سروري أن أشرب القهوة مرة ثانية مع ذلك المتطرف العجوز، الذي فشلت خطته للإيقاع بي بالرغم من جهود فهد، والذي لم يكن امامه الآن إلا ان يسكت على مضض.

٢٢ مارس:

غادرنا الغاط في الصباح الباكر، واتخذنا طريقاً متعرجاً بين التلال

وعبر أودية متقطعة بعد مسيرة نحو كيلو مترين اختفت الخضرة والأشجار، وارتفعت حواف الوادي الذي نسير فيه إلى ما يقرب من خمسين،أو ستين متراً إلى أعلى إلى أن وصلنا بعد حوالي ثلاث ساعات ضاحية قرب الغاط حيث ينتهي الوادي فجاة. اخذت جمالنا تتسلق بصعوبة طريقاً ضيقاً يمر عبر الصخور حتى صعدنا إلى هضبة طويق. الهضبة عارية تقريباً وليست أكثر من صحراء حجرية متموجة. وبينما نحن نسير في ذلك الفضاء الميت شاهدنا فجاة بعض ركاب الأبل واسرعنا نعد بنادقنا لأي طارئ. ملنا إلى اليمين ووجدنا أن الركاب انفسهم مالوا في الاتجاه المعاكس كي يتجنبونا. تقدم فهد نحوهم ووجد أنهم مسافرون مسالمون ظنونا قطاع طرق. بعد ذلك بوقت قصير شاهدنا إلى الجنوب من موقعنا مجموعة أخرى من راكبي الإبل، كما أسرع نحونا راع يسوق قطيعه في نفس وجهتنا وحذرنا من القادمين الجدد. قبل الظهر بقليل وصلنا إلى وادٍ يقطع التلال وبه واحة تسمى الخيس ثم وصلنا وادياً آخر يدعى الروضةرأينا به اطلالاً لأبراج وحيطان قديمة. شغل عبدالعزيز وفهد نفسيهما بشرب اللبن واضعنا بذلك نصف ساعة، وفي الحقيقة أراد الاثنان ان تنتهي مسيرة ذلك اليوم في ذلك الوادي، إلا انني وعلي تابعنا سيرنا، مما حدا بالاثنين ان يلحقا بنا بسرعة. قادنا الوادي الضيق الذي كنا نسير فيه إلى واد عريض استغرق اجتيازه ساعة كاملة. وفي ذلك الوادي فقد علي دفتر مذكراته الذي كان دون فيه أشياء وحوادث كثيرة مرت به، لقد كان فقد ذلك الدفتر خسارة كبيرة. في الساعة الثالثة بعد الظهر توقفنا للراحة وركب فهد إلى المجمعة ليحضر لقدومنا. وبعد استراحة نصف ساعة

استأنفنا السير حيث وصلنا المجمعة في الساعة الخامسة مساء.

عبرنا الوادي الذي تقوم في بطنه تلك الواحة الواسعة، واقتربنا من المدينة المحاطة بأسوار وأبراج، والمقامة على تل صخري يشرف على الجانب الجنوبي من الوادي. قادونا تحت نظرات الاستطلاع الفضولية من السكان إلى منزل تابع للأمير قريب من السور. استقبلت استقبالاً طيباً وزارني الأمير نفسه وهورجل في منتصف العمر دمث الأخلاق واسمه عبدالله بن عسكر. تحدث الأمير مع فهد وكانا متجهمين حول كيفية استقبالنا من قبل الإمام، كما أن معنوية عبدالعزيز وعلي لم تكن عالية ابداً بل كانت منخفضة بمقدار درجتين. إضافة إلى ذلك فإن الطريق بين المجمعة وجلاجل ليس آمناً على الإطلاق إذ ذبح فيه منذ أيام فقط رجلان.

٢٣ مارس:

استأنفنا الرحلة في الساعة الخامسة وخمسين دقيقة صباحاً متجهين شرقاً وسط بساتين من الخضرة. سرنا في الوادي الذي يبلغ عرضه حوالي خمسمائة متر مدة ساعة، ثم خرجنا منه وصعدنا حزماً يقع على قمته رجم عندما يمر المسافرون به يضيفون مزيداً من الحجارة فوقه حيث يقولون إنه المكان الذي رجم فيه أعرابي اعتدى على أخته!

كنا نمر طيلة هذا اليوم على واحات. كانت الأولى هي التويم التي يبدو من آثارها أنها كانت أهم مما هي الآن؛ وفي الوادي نفسه أيضاً مررنا على اطلال واحة الروضة التي بدا أيضاً من ما بقي من سورها وآبارها أنها كانت كبيرة. في واد آخر مررنا على واحة صغيرة تسمى

الحصون، ثم بعد مسافة قصيرة ثلاث واحات أخر هي: حوطة سدير والجنوبية والعطار. عبرنا حزماً آخر ودخلنا في واد آخر حيث عبرنا واحة العودة وهي الآن صغيرة ولكن آثارها وبقايا أسوارها العالية تشير إلى أنها كانت ذات ماض عريق. انخنا مطايانا هنا وارسل لنا الأمير طعاماً من اللحم. اجتمع بعض رجال القرية وكانت نظراتهم وكلماتهم تعبر عن عدم ارتياحهم لرؤيتي، ولما ازدادوا في توجيه الإساءات لي واعلنوا انهم لا يستطيعون النظر إليّ، سالناهم لماذا إذن يبدون حريصين على ذلك؟ إلا أن ذلك لم يجد معهم شيئاً مما حدا بعلي أن يصدر أمره بإخلاء موقعنا منهم حتى نتمكن من التنفس بحرية.

غادرنا العودة وسرنا بطريق صخرية مرتفعة في هضبة مدة عشرين دقيقة. وعندما وصلنا القمة استطعنا أن نرى هضبة طويق وما يتخللها من مجاري السيول. وما عدا مجاري السيول هذه فإن سطح الهضبة متشابه في جغرافيته، من حيث ارتفاعه ما عدا بعض التلال الصغيرة التي قد ترتفع إلى مائة متر عن المستوى العام. كان اتجاهنا جنوب شرق، وسرعان ما بدأنا ننحدر نحو واد عريض كثيف العشب. نبهنا بعض افراد مجموعتنا بعد ذلك، انه رأى شيئاً يتحرك بالوادي وأسرع فهد وقد اتخذ مظهر المحارب يستكشف الأمر. وعاد يقول إنه لم يستطع أن يتحقق مما إذا كان مارآه سراباً، أم غزالاً، أم إنساناً. مضينا في السير بينما كانت الشمس تنحدر نحو المغيب وعيوننا تراقب المنطقة حولنا بحذر واضح. وتستمر قافلتنا الصغيرة في تقدمها وتغوص ارجل الجمال في مجاري السيول الرملية الجافة وتعبر من خلال اغطية كثيفة من الأعشاب والشجيرات التي فاقت أطوالها قامات

الرجال، ويحاول دليل القافلة أن يجنب الجمال المرور فوق النباتات الجافة حتى لا تصدر أصواتاً عالية. وبين آن وآخر يقف ليتصنت لعله يسمع أصوات المتلصصين إن كانوا حولنا.

أصبح الطريق بعد الخروج من الوادي أكثر وعورة. بعد ساعتين من مغيب الشمس وصلنا منطقة حادة الارتفاع تصل إلى نقطة عالية فوق ظهر حزم، تمهلنا لنتدبر أمر إرسال واحد منا لرصد الطريق، إلا ان الجمال كانت متعبة لدرجة انها توقفت نهائياً؛ ورفضت استئناف السير ووجدنا صعوبة في منعها من الرغي. خلع عبدالعزيز وأخوه ثوبيهما، وأسرعا في الظلام فوق الصخور نصف عاريين وبندقيتاهما في أيديهما. عادا بعد قليل وأفادا انه لا يوجد شيء يثير الشكوك في الجانب الآخر من الحزم، فاستأنفنا صعود الجزء الأخير من العقبة. عند القمة كان علينا أن ننحدر من ذلك المرتفع العالي. هذه المنطقة التي لا توجد فيها طرق واضحة تسمى ثادق.

توقفنا بعد ذلك لكي نلف كل متاعنا بقطع من القماش؛ حتى لا تصدر أي أصوات تدل علينا. بعد ذلك استأنفنا زحفنا بموازاة حائط الصخور الذي وصلناه الآن. كانت جمالنا توازن نفسها بعناية غريبة وهي تسير بجانب حائط الصخور ذلك، بينما على جانبها الآخر قام واد سحيق، بينما بقيت تلك الحيوانات تميل بأحمالها ذات اليمين وذات الشمال تحاذر من الاصطدام بالصخور والسقوط في الوادي. وعاد عبدالعزيز الذي تقدم لاستطلاع الطريق ليهمس لنا أن هناك أناساً في أسفل الوادي على شمالنا. أصبحت أحجام الصخور على الطريق الآن من الضخامة بحيث أصبح السير عبرها في ذلك الظلام مستحيلاً.

ومن ثم ترجلنا من فوق ظهور مطايانا وقدناها في ذلك الانحدار المخيف جاهدين ان نشدد قبضاتنا على اعنتها حتى لا ترغى وتدل على موقعنا.

شيئاً فشيئاً خرجنا إلى سهل أقل وعورة. قبل منتصف الليل بساعة توقفنا مرة أخرى أمام مرتفع صخري عال، لم نكن نعرف أي الطرق نسلك لنرقى إليه. يصعد إليه عبدالعزيز للاستكشاف ثم يعود ليعلن انه لا يوجد هناك طريق للصعود. وهكذا نستانف سيرنا بمحاذاة حائط الصخور لندور حول ذلك الجزء من الهضبة. مرة أخرى نتحرك شرقاً وقبل منتصف الليل تتراءى لنا اطياف اسوار واشجار نخيل ونصل إلى فضاء واسع خارج الاسوار. لقد وصلنا إلى واحة ثادق، كان الجميع نياماً، ولا يسمع إلا غناء الصراصير في أرجاء الواحة.

عند طلوع شمس ذلك النهار،٢٥ مارس، ننقل معسكرنا إلى مكان آخر خارج البلدة، حيث ننتظر ساعتين لكي يعود فهد الذي ذهب ليأتي لنا بمبعوث الأمير. ونغادر المكان وبصحبتنا عشرون راكباً. شاهدنا في العاشرة صباحاً مجموعة من الركائب إلى الجنوب من موقعنا، إلا انهم سرعان ما اختفوا حيث كانوا أقل عدداً منا. المنطقة هنا اسمها الصفرات ومنها نعبر وادياً فسيحاً إلى الشرق حيث نشاهد بعض آثار حضارة قديمة قبل أن نصل الأرض المرتفعة. كانت المنطقة إلى يميننا ما زالت اكثر ارتفاعاً وتربتها غالباً طباشيرية، وربما هي الأعلى في جبل طويق. تخبطنا مدة ساعتين في سيرنا، نسير مرة في اتجاه معين ثم نعود ونغير في تلك الأرض الصخرية إلى ان قررنا

أخيراً -في الساعة الثانية ظهراً- ان نهبط إلى قلب الوادي. لقد بلغت الآن مرحلة من الضعف والوهن بحيث انني اجد اشد الصعوبة في امتطاء ظهر جملي.

انضم إلينا بالإضافة إلى دليلنا في ثادق مطوع. كان شاباً شديد التزمت بحيث بز حتى الوهابيين. كان يضع نفسه أمام القافلة نصف ساعة قبل وقت كل صلاة، ثم يضع إبهاميه في أذنيه ويؤذن للصلاة بصوت قوي، لكن الرجال يبتسمون فقط بينما يستمرون في سيرهم. وعندما ينتهي من الاذان يكتشف أنه اضاع جهده بين صخور الصحراء فيعدو سريعاً خلفنا وهويصرخ بكلمات غاضبة.

وصلنا بعد العصر إلى حريملاء وهي قرية كبيرة نوعاً ما وبها علامات تدل على انها مثل غيرها من بلدان نجد كانت اكبر في الماضي مما هي الآن. وفي حريملاء اقمنا معسكرنا الخامس والعشرين خارج أسوار البلدة.

نصبنا خيامنا بينما اخذت السماء تتلبد بالغيوم . وعند هبوط الليل وبعدما وصل العشاء من بيت الأمير وجاء هو ايضاً لزيارتنا بدأ المطر يهطل. وبعد العشاء وعاصفة رعدية ممطرة نخلد إلى النوم داخل خيامنا، ملتفين ببطانيات غارقة في الماء، ولو ان خيمتي لا تحميني من المطر؛ ولا تحميني في الحقيقة من لفح الشمس الحارة.

٢٦ مارس:

غادرنا حريملاء مبكراً وسرنا ساعة ونصف دون فهد، وصلنا إلى أسفل هضبة تحد الوادي من الجنوب، وهناك توقفنا ليلحق بنا مع اربعة وعشرين راكباً آخرين. تسلقنا الهضبة وسرنا عبرها متجهين جنوب

شرق إلى الوادي الذي تقع فيه سدوس. وسدوس قرية تحتفظ جيداً بكيانها وشؤونها، وبها اسوار وابراج قوية. اختفى بسدوس نصف الادلاء خلف الأسوار وبساتين النخيل بالرغم من اعتراض فهد. غادرنا بالعدد القليل الباقي معنا من الجهة الجنوبية للبلدة ووجدنا انفسنا مرة أخرى نسير عبر أرض مرتفعة تقودنا إلى الهضبة بينما يتسلل باقي الادلاء كل إلى وجهته، إلى ان وجدنا انفسنا وحيدين ما عدا المطوع. كان يجري بجانب الجمال وقد اقنع فهد ان يحمل له حاجياته البسيطة الملفوفة في صرة على ظهر احد الجمال.

لقد رفض ان يسمح لأي من رجالي ان يحمل متاعه لأنهم يعملون في خدمة كافر؛ ولكنَّ فهداً أغاظه بتسليم صرة امتعته لعبدالعزيز قائلاً: حيث إن كل القافلة ملك لي فلا فرق ان يكون متاعه هنا أوهناك.

وجدنا انفسنا بعد الظهر امام واد انتشرت فيه أشجار الأثل بينما قامت على جوانبه بعض الأسوار المهدمة، إنه وادي حنيفة الذي ما زال يحمل آثار الدمار الذي أحدثه إبراهيم باشا، منذ ما يقرب من قرن من الزمان في العيينة وهي واحدة من اقدم واهم مراكز الوهابية. استرحنا في الوادي مدة ثلاث ساعات في ظلال اشجار كثيفة قريباً من الآثار المدمرة. انتحى المطوع بعيداً حاملاً امتعته وجلس في ظل حائط مهدم يتناول طعامه بمنأى عن الأعين العاصية.

لم تعد العيينة بلداً ولم تعد توجد فيها أشجار النخيل، لكننا شاهدنا في بقع متفرقة، وبين اشجار الأثل والآبار المندثرة حقولاً صغيرة، زرعت ذرة على الرغم من اننا لم نشاهد اصحابها.

شاهدنا أيضاً بعض الأكواخ الصغيرة التي شيدت كيفما اتفق وبما تهيا لأصحابها من مواد مثل اعواد الشجر الجافة، أو الطين، أو القش. يعيش الآن في هذه المنطقة اناس مُعْدَمون محدودو التفكير، لا يكادون يجدون قوت يومهم بينما الخرائب التي يقطنونها الآن كانت يوماً ما بيوتاً كبيرة حسنة البناء، اقام بها أناس موسرون في ذلك الجزء من قلب الجزيرة في القرن الثامن عشر الميلادي.

استأنفنا السير مرة اخرى عند حلول المساء، متجهين شرقاً بمحاذاة الوادي متوخين الحذر، كي لا نسقط في احد الآبار الكثيرة المهجورة والتي كانت فوهاتها مستعدة لابتلاع كل من شاء حظه التعس ان يغفل عنها. عاد فهد الذي كان قد سبقنا في الطريق، عاد يخبرنا أن هناك بعض الرجال المسلحين يتبعونا ويسيرون على الجانب الآخر من الوادي.

تمهلنا قليلاً لنستعد لأي طارئ ولجأنا إلى الاحتماء خلف سور متهدم ولكن عندما لم يحدث ما يهددنا، استأنفنا السير وكلنا عيون وآذان لما قد يكون متربصاً لنا في ذلك المكان الشديد الظلام بين اشجار الأثل. وصلنا إلى منخفض وقع عليه اختيارنا للمبيت فيه، وقبل أن نقيم خيامنا سمعنا صوت بكاء طفل وفجاة انطلقت رصاصة مرت من فوقنا جاءت من الجانب الآخر للوادي تحذيراً لنا .

اعلن فهد بصوت عال عن وجودنا وجاءنا رجل قادنا عبر ازقة متعرجة تهدمت جدرانها، إلى أن أوصلنا إلى فناء صغير مفتوح يقع في منتصف القرية المهدمة التي لا يزال يعيش فيها اهلها وهناك قررنا قضاء الليلة.

٢٧ مارس:

استانفنا السير في وادي حنيفة الذي غص قاعه بالخضرة والأشجار التي كان طول بعضها يزيد على خمسة أمتار. وصلنا بعد ثلاث ساعات إلى واحة تسمى الملقا[١] حيث انحدر الوادي قليلاً فاصبح يتجه جنوباً بشرق. استمر سيرنا في بطن الوادي الوعر حيث وصلنا بعد ساعة إلى واحة وارفة اسمها العلب[٢] امتلات باشجار النخيل، ثم بعدها مباشرة اتينا الدرعية التي وجدت انها ليست اكثر من اسم. لم يعد لهذه المدينة من ذكر سوى ان منها خرج الجيش الوهابي الذي تحت قيادة عائلة آل السعود استطاع ان يخضع الجزيرة العربية. عبرنا بلدة الدرعية ومن ثم خرجنا من وادي حنيفة وسرنا عبر هضبة بها بعض التعرجات البسيطة. شيئاً فشيئاً تلاشت اصوات أنات السواري واصوات خرير المياه، وهي تصب من القرب في الوادي ولم يعد هناك امامنا الآن إلا أرض قفراء. كنا نرى مع ذلك بعض رؤوس أشجار النخيل كلما اقتربنا من الوادي، وعند منتصف النهار أشرفنا على عرقة[٣]. بين وقت وآخر كنا نشاهد أطلالاً مما دل على ازدهار الدرعية وتوسعها في الماضي. اصبحنا الآن قريبين من الرياض، وتقدمنا فهد نحو المدينة لكي يخبر الإمام بوصولنا.

---

(١) الاصل في لتسمية الملتقى، من التقاء عدة أودية في منطقة واحدة، وهي تقع بعد تجاوز وادي حنيفة منطقة الوصيل، وهي الآن من أحياء شمالي الرياض، والموضع به مواقع اثرية ظاهرة على السطح.

(٢) قرية من قرى وادي حنيفة دخلت الآن في مدينة الدرعية بها سدّ يعرف باسمها، واصل كلمة علب الأرض الغليظة التي لو امطرت لم تنبت.

(٣) مدنية قديمة تعرف بهذا الاسم الآن، أما اسمها القديم فهو العوقة، يجري وادي حنيفة في وسطها، دخلت الآن ضمن أحياء مدينة لرياض.

استرحنا مدة نصف ساعة في واد صغير مليء بالحجارة، وكنت طوال الوقت الاحظ ان الروح المعنوية لدى رجالي يزداد انخفاضها تدريجياً وخاصة لدى عبدالعزيز .استأنفنا سيرنا عبر فلاة وعرة وشاهدنا بقايا مبان قديمة اخرى، وعند العصر طلعنا إلى منطقة مرتفعة قليلاً تكشف لنا منها ابعاد المنطقة المحيطة بنا. إن هذا ما يسمى البعد الأفقي وهوبما يراه الإنسان في بلدان شرقية كثيرة، ولكنه يبقى على الرغم من ذلك ذكرى قوية في وجدان الشخص الذي عاشه، وهو ما يمكن أن نشبهه بما يشعر به الحاج عندما يلمح لأول مرة أسوار وأبراج مدينته المقدسة ترتفع فوق الأفق.

يمتد امامنا الآن في الوادي حاجزٌ ضخمٌ كثيف من شجر النخيل ويرتفع امام الواحة الكبيرة ذات الخضرة النضرة أسوار وابراج، ظهرت اكثر وضوحاً مع أشعة شمس ما قبل الغروب التي سقطت عليها. إنها الرياض المدينة الرئيسية للسلطة الوهابية، ومقر عائلة آل سعود التي هزت يدها الحديدية منذ قرن مضى العالم الإسلامي من اساسه.

(٧)
من الرياض إلى الهفوف والعقير

انتابت المجموعة الصغيرة مشاعر متفاوتة اثناء فترة الانتظار بالصحراء المفتوحة خارج الرياض، إلى حين عودة فهد من لدن الإمام؛ ولم تكن كل المشاعر طيبة خاصة وان فهداً هذا بذل كل جهد في قتل الروح المعنوية لدى الباقين من اللحظة التي ارسل فيها لمراقبتي في بريدة إلى الساعة التي غادرنا فيها إلى الرياض. ومما جعل الامور اكثر سوءاً ان علياً تأثر بما قاله حتى إنه كان يبكي بصمت وهو فوق ظهر جمله وإن حاول ان يخفي ذلك بإرخاء عمامته فوق وجهه. لقد أصبح مهموماً دائماً وصامتاً. إن مخاوفه في الفترة الأخيرة وفي ظل الجو المتزمت الذي احاط بنا جعلته غير قادر على الحصول على معلومات كافية عن المناطق التي مررنا بها، كما ان الأدلاء الذين انضموا إلينا اثناء الطريق جعلوا وضعنا اكثر صعوبة لعدم ثقتنا بهم. اضف إلى كل ذلك حالتي الصحية، فقد وصلت درجة من الاعياء بحيث لم أعد اتمكن من السير بضع خطوات دون ان أسقط على الأرض.

لقد سافرت طوال الأسبوع الأخير وانا بحالة الإعياء عبر صحراء قاسية كي أصل إلى هذه النقطة التي اجد نفسي فيها الآن -بعد كل العناء والمجهود والمرض الذي الم بي- اتمدد بلا حراك فوق صخرة صماء أصوب نظري تجاه البلدة التي تشكل مركز الالتزام وأفكر في خطواتي القادمة وفي مصيري نفسه.

اين الإمام نفسه؟ ذلك هو السؤال الذي شغلنا منذ وصولنا إلى

الزلفي، والذي أثار الكثير من تخميناتنا وافتراضاتنا. لقد سمعنا أن الإمام عبدالعزيز بن سعود[1]، وهورجل في الثالثة والثلاثين من العمر، غادر الرياض منذ يومين، متجهاً غرباً مع فرسانه لمهاجمة قبيلة عتيبة التي دأب رجالها في الفترة الأخيرة على مهاجمة قوافل تابعة له والذين على أي حال لم يعترفوا بسلطته على الرياض. طبقاً لمعلومات حصلت عليها من أصدقاء للإمام فهو حاكم محارب وشجاع، لكنه في الوقت نفسه رجل سعيد ومرح، ويحب أن يمتع نفسه بمباهج الحياة طبقاً لمفهوم الوهابية؛ وقد قيل إنه أغضب المتزمتين من أتباعه باستخدام الجراموفون في معسكره. كنت أود كثيراً مقابلته وكان لدي خطة في مد خط رحلتي في اتجاه معين، إلا أن عبدالعزيز -وهو المسؤول عن إبلي- قال -والسرور بادٍ على وجهه-: إننا قد لا نجد الإمام عبدالعزيز بالرياض. وما ضايقني أكثر لعدم وجود عبدالعزيز بالرياض هو أن أباه عبدالرحمن بن سعود سيكون نائباً له بالرياض أثناء غيابه.

ومعروف عن الإمام عبدالرحمن أنه سلفي ملتزم وعليه فلست في غاية السعادة للتعامل معه.

جلس عبدالعزيز وأخوه صامتين حزينين، يتطلعان عبر الأفق إلى حدائق النخيل حول الرياض. وراح علي يذرع الأرض جيئة وذهاباً ناقلاً عصاته من يد إلى أخرى، بينما كانت جمالنا تحرك رقابها الطويلة يمنة ويسرة وقد أرخت رؤوسها إلى الأرض تبحث بين حجارة الصحراء عن شيء تأكله.

---

(١) والصحيح أنه يستخدم لقب الإمام للملك عبدالعزيز بينما كان هذا اللقب يطلق على والده الإمام عبدالرحمن.

أخيراً أقبل نحونا راكب ليضع نهاية لانتظارنا القلق؛ إنه فهد. امتطينا ظهور إبلنا وسرنا خلفه ببطء نحو الرياض التي أطلت علينا بأسوارها وحدائقها؛ كان الوقت بعد الظهر والبلدة صامتة صمت القبور فلم نر إنساناً واحداً يتحرك في ذلك الوقت من النهار.

صرنا على مقربة مائتي ياردة من بساتين البلد عندما ظهر لنا راكب حسن الملبس يمتطي صهوة حصان. عندما اقترب منا حيانا باحترام واعلن انه واحد من رجال الإمام ثم قادنا إلى بستان يقع خارج البلد إلى الشمال. كان حصانه صغيراً وسميناً ولا ينطبق عليه وصف "العربي الأصيل".

عبرنا داخل بوابة كبيرة في حائط جيد من الطين إلى فناء واسع يطل على بستان نخيل، به بئر كبيرة يحيط بها ثمانية حمير على الأقل تسحب منها الماء. إلى اليسار يقوم بيت به عدد كبير من فتحات الإضاءة بعضها مربع وبعضها مثلث. انخنا أباعرنا وقام اثنان من خدم الإمام بإدخال متاعنا إلى المنزل. إن المكان باكمله حالم، فهناك البستان الذي يقع على مسافة قصيرة من الرياض بأشجار نخيله العملاقة وخضرته اليانعة، وتلك الآلة الخشبية مصدر النماء حيث لا تكل ولا تشتكي من الأنين، وتلوي أضلاعها والماء ينساب جداول رقراقة من جيوبها العديدة عبر قنوات تأخذه لسقي النباتات العطشى دائماً. لم يُسَرَّ عبدالعزيز بوصولنا إلى تلك الواحة الباسمة.

لقد كان على يقين أن كل أمل له في الحياة قد انتهى، واستلقى على الأرض بلا حراك ينتظر مصيره؛ ولم افلح في جعله يتحرك ليتفقد الجمال او ليقوم باي عمل آخر. إلا انه بعد فترة قصيرة وبعد ان لمس

لطف رجال الإمام عاد إلى نفسه، وسرعان ما عادت الأمور إلى طبيعتها وسار كل شيء على مايرام.

٢٨ مارس:

ابلغوني انني سوف اقابل الإمام عصر هذا اليوم؛ لم يكن ذلك عبدالعزيز الذي خرج فعلاً لغزو عرب عتيبة، ولكنه والده عبدالرحمن. اتخذت كل الاحتياطات الضرورية لحماية كلب كافر حل في تلك المدينة شديدة التدين.

توجهت محاطاً بحراس مسلحين يصحبني علي، واتخذنا طريقاً دائرياً بعيداً عن البساتين والعمران وامامنا يسير رجال مسلحون لكي يبعدوا من حولنا اي فضوليين. سرنا عبر ارض رملية منخفضة وفوق بعض مرتفعات وعرة إلى ان وصلنا إلى بستان نخيل يحميه سور جيد ويقع على مسافة نصف كيلو متر إلى الشرق من سور الرياض. كان هذا بستاناً آخر للإمام وكان اكبر واحسن من الذي اقيم فيه. سرنا بين النخيل إلى ان وصلنا إلى بقعة خالية من الأشجار فرشت بها سجادة عجمية وقام عندها رجل أسود يعد الشاي والقهوة. جلست فوق السجادة وما هي إلا لحظات واقبل الإمام عبدالرحمن من بين النخيل يحيط به رجاله. بعد السلام عدت إلى مكاني وجلس الإمام في مكانه واتكأ كل منا على مسند. جلس علي امامنا بينما اتخذ رجال الإمام أماكنهم أبعد قليلاً.

إن عبدالرحمن شيخٌ عظيم الوسامة، يحمل مظهره الكلي روح المغامرة ونبل الفخامة، ويوحي للناظر إليه أنه بطل قصة حقيقية من

قصص ألف ليلة وليلة. إنه لطيف ولكنه جاد ووقور له عينا صقر ولحية بيضاء. تحدثنا ونحن نشرب القهوة والشاي بالتناوب عن الكويت وعن غزوة عبدالعزيز وعن مطامع إنجلترا وتركيا في الجزيرة العربية والحرب التركية -الإيطالية واخيراً عن نفوذ الدول الأوروبية المختلفة. حول النقطه الأخيرة وخاصة فيما يخص سياستها الأفريقية- الآسيوية، لم أستطع إلا ان أؤكد راي الإمام الاكيد بنفوذ الإمبراطورية البريطانية.

أخيراً وعدني عبدالرحمن بعمل الترتيبات اللازمة كي أنضم إلى قافلة سوف تغادر غداً إلى الأحساء. ودعت بعد ذلك الحاكم الوهابي الكبير الذي سرعان ما اختفى مع رجاله بين أشجار النخيل الكثيفة التي تملأ البستان، بينما عدت أنا مع أصحابي إلى بستان ضيافتنا.

استقبلت بعد وصولي هناك رئيس القافلة المسافرة إلى الهفوف وفهمت من حديثي معه أنه قبل بصحبتنا معه؛ لأنه أجبر على ذلك. إنه يتنفس تطرفاً وتزمتاً مع ضحالة في الذكاء، وقد توقعت صعوبات كثيرة بصحبته إلى الأحساء ولكن حيث إن الإمام أصدر أمره بالسفر بهذه الطريقة فلن أعصي أمره. بالإضافة إلى ذلك فقد حذر الإمام رئيس القافلة أنه سوف يحاسب حساباً عسيراً إذا عاد دون أن يحضر معه خطاباً مني يذكر أنه أحسن معاملتي.

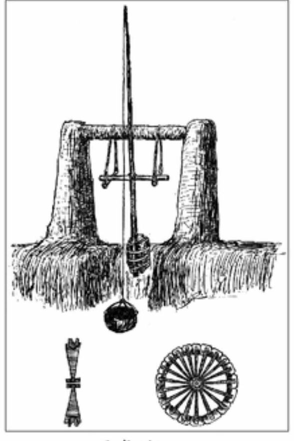
احضروا لنا في المساء سمناً وارزاً يكفي لأربع رحلات إلى الهفوف لي ولرجالي. وعندما تأكدت الآن أن كل شيء قد جهز على ما ينبغي، أسلمت نفسي لنوم طويل هادئ قبل أن أبدأ رحلتي الصحراوية من جديد. إن وجودي بالرياض على قصر المدة قد أعاد إليّ



منظر للرياض من الشمال الشرقي



(خشم) العان



بئر ومعدات السقي



صخور في قرب الهفوف كما تبدو من شرقها

بعضاً من نشاطي وصحتي، ووددت لو أتيح لي أن أكمل رحلتي إلى اماكن اخرى جديدة.

٢٩ مارس:

ايقظونا مبكراً صباح اليوم التالي، وبينما طلائع النور تظهر على الكون كنا نحن نجمع امتعتنا ونحملها على جمالنا. امتطينا إبلنا وغادرنا البستان إلى فضاء الصحراء الواسع، وتوقفنا عند مرتفع صخري يبعد حوالي كيلو متر واحد إلى الشرق من سور المدينة ننتظر قدوم القافلة المتوجهة نحو الاحساء التي سرعان ما بدأت تظهر طلائعها في مجموعات صغيرة يتبعها المودعون من الأهل والأصدقاء. كنت أستلقي على الارض بجانب جملي وكنت مريضاً ومرهقاً وارتدي ملابس قذرة مقطعة وعباءة ليست احسن حالاً من ثيابي مما جعل الناس يمرون بي دون أن اثير انتباههم. انتهزت الفرصة اثناء الانتظار وقمت برسم بعض المناظر للمناطق المطلة على الرياض.

شعرت بنوع من الاطمئنان عندما لم ينتبه احد إلى وجودي لانني كنت إلى تلك اللحظة بدون حماية. لقد عاد الرجال المكلفون بحمايتي إلى الرياض لبعض شانهم، ومن رجالي لم يكن معي الآن إلا علي الذي لم يكن مسلحاً بينما عاد عبدالعزيز واخوه أيضاً إلى الرياض لقضاء بعض الحاجات. لم أكن انا نفسي مسلحاً فقد أعطيت بندقيتي وذخيرتها إلى احد رجال الإمام كهدية؛ لأنه لم يكن لدي نقود. اما الاشخاص الذين كانوا في حراستي وخدمتي في الرياض فقد منحتهم بعض الهدايا من اشيائي مثل ذلك المطوع الذي اعطيته نسخة جيدة من القرآن وقد قبل بها بعد جهد وإقناع من

قبل علي؛ لأنه كوهابي لا يمكن ان يأخذ كتاباً مقدساً من يد كافر.

عاد عبدالعزيز في الساعة الثامنة، واستأنفنا السير متجهين شمالاً شرقاً عبر أرض صخرية قاحلة. بعد حوالي ساعتين أخريين لحق بالقافلة رجلان من رجال الإمام جاءا لكي اعلِّمهما كيفية استعمال البندقية التي أهديتها يوم أمس، ويعلم الله كم من الوقت امضيت في تدريبهما على استعمالها. وبعد ساعتين ونصف إضافية من التدريب ما إن امسك بها صاحبها الجديد إلا واقترف عدة اخطاء خطيرة اكبرها أنه وضعها فوق الرمال فامتلات بذرات الرمل مما جعلها حالاً غير صالحة للاستعمال. اصر الرجل من جديد ان يتلقى مزيداً من التعليمات عن استخدام نفس البندقية، وبعد أن أجبته إلى طلبه غادر عائداً إلى الرياض. إنني أعجب من ضآلة المقدرة، ومن عدم التزام بعض العرب بابسط طرق التصرف السليم.

شاهدنا في المنخفض الذي سرنا فيه مجموعة من بيوت الشعر تقطنها مجموعات من قبائل قحطان الذين كانت إبلهم تملأ المنطقة على مد البصر. يوجد على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام إلى الجنوب من الرياض سلسلة واحات، كما يقول الرواة العرب، حيث يتجه بنو قحطان إليها في أشهر الصيف الحارة ويعيشون تلك الفترة على إنتاجها من التمر والذرة. والمنطقة تسمى هزاث: Hazath[1].

إلى الشرق من النقطة التي سرنا فيها يوجد حزم طويل يطلق على أعلى نقطة فيه العان[2]. قبل العان بحوالي ميلين وفي منتصف النهار

---

(١) هكذا سماها المؤلف ويقول المترجم الإنجليزي إن هذا الاسم غير معروف وانه يوجد بعد مسيرة يومين أو ثلاثة من الرياض الحوطة HAWTAH وربما قصد المؤلف منطقة حرض.

(٢) يقصد خشم العان.

نصبنا خيامنا كي يتمكن باقي المسافرين من اللحاق بنا. يبلغ مجموع المسافرين في هذه القافلة مائة وخمسة وسبعين شخصاً، حوالي ثلاثين منهم فقط يمتطون ظهور الجمال، ويحمل حوالي عشرة منهم بنادق. أما الباقون فهم مجموعة من المشاة الحفاة العراة لا يحملون معهم اي متاع، ومسلحون بعصاة أو سكين تساعدهم على صيد السحالي وحفر الارض لاستخراج بعض جذور الاعشاب لاكلها. كان معظمهم من الشباب الذين يقصدون جزر البحرين للعمل في صيد اللؤلؤ.

كان الإمام يدرك بدون شك ان رفاقي في السفر ليسوا من خيار الناس لانه بعد أن مضى ساعة على نصب الخيام وتكامل عدد المسافرين وصل اثنان من رجال ابن سعود حيياني بحرارة ثم دعيا جميع أفراد القافلة للجلوس حولهما على شكل دائرة. عندئذ القى أحد الرجلين كلمة قصيرة طيبة ضمنها بعض التحذير الذي يمكن إيجازه فيما يلي: إنني صديق لابن سعود وإن اي رجل يجرؤ على رفع إصبع ضدي سيقتل فوراً.

انطلق الرجلان بعد ذلك عائدين إلى الرياض وعدت وحيداً مرة أخرى في معسكر القافلة تحت سماء غائمة وريح باردة؛ أخذ الرجال الآن ينظرون إلي بشيء من البرود وعدم الاهتمام حتى رجالي أنفسهم ما عدا علياً الذي تخلص، بعد الإقامة الممتعة في الرياض، من مخاوفه وأصبح رفيقاً جيداً مرة أخرى جديراً بالثقة ويؤدي خدماته على أكمل وجه.

٣٠ مارس:

غادرنا محطتنا التاسعة والعشرين في الساعة السادسة والربع صباحاً، ميممين وجوهنا شطر الشمال الشرقي. كان الجو غائماً مع ريح جنوبية غربية معتدلة. سرنا ساعة باتجاه مرتفعات خشم العان قبل أن نصل إلى منطقة صخرية ترتفع حوالي خمسين متراً لتصل إلى جرف في أعلى المرتفعات.

لاحظت ان التربة والنباتات هنا تشبه إلى حد كبير تلك التي شاهدتها في الصمان. اتجهنا الآن شمالاً وما إن وصلنا قمة الهضبة حتى بدات بعض قطرات المطر تهطل، ولكن لم تلبث القطرات ان أصبحت أفواه قرب مفتوحة صبت مياهها فوق رؤوسنا فاغرقتنا. استمر الحال على ذلك مدة ربع ساعة توقف المطر بعدها وما لبثت الشمس ان ظهرت مرة أخرى وهبت ريح معتدلة جافة. لوكنا في أي بلاد أخرى يملك أهلها اقل قدر من الحس المنطقي لاستمر السفر، ولكن استمراره هنا يعد غير عربي بالمرة؛ ولهذا فقد أصر القوم على نصب خيامهم وفي منطقة منخفضة لا يصلها الهواء ومكثنا نتحدث ونشرب القهوة وثيابنا مبلولة، لأن الأشجار حولنا والأرض كانتا رطبتين طبعاً والهواء لا يصلنا.

٣١ مارس:

غادرنا محطتنا الثلاثين مبكرين، وسرنا في فلاة صخرية ذكرتنا بالصمان، وعبرنا بعض المرتفعات البسيطة التي تمتد بينها مساحات سهلة ذكرتني بالمنطقة حول الشماسية والزلفي. وصلنا في الساعة الثانية بعد الظهر منطقة صخرية، اتجهنا بعدها نحو الشمال الشرقي

حيث انحدرنا بعد ذلك إلى واد عميق متعرج نصبنا على جنباته مخيمنا الحادي والثلاثين. المنطقة هنا تسمى فدك الشعيب. شاهدت أشجار السدر والصمغ التي بلغت أطولها خمسة أمتار على جانبي الوادي، كما كانت هناك بقع خضراء متناثرة في كل مكان. اشتريت نعجة من رجل مسافر مع القافلة ويسوق معه قطيعاً من الأغنام. اقتطعت لنفسي ولعلي أحسن أجزاء الذبيحة، بينما احتفظ عبدالعزيز واخوه بالباقي.

أول أبريل:

استأنفنا سفرنا صباح ذلك اليوم في بطن وادي الشعيب الوعر حيث الصخور التي تشكلت على مرور الزمن باشكال عجيبة؛ وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى منطقة صخرية أخرى تسمى العرمة التي لم يكن السير بها أسهل من السير في المنطقة التي أتت قبلها.

اخذ سطح الأرض تدريجياً يصبح أقل وعورة، إلى ان بدات تظهر لنا في منتصف النهار الكثبان الرملية، التي كانت في البداية منخفضة وتغطيها الحشائش. كانت تقف أمامنا على البعد التلال الرملية الذهبية الجرداء التي ترتفع بهاماتها متحدية الرياح القوية التي تضرب قممها. قبل كيلين من بحر الرمال الماثل امامنا اقمنا مخيمنا فوق مرتفع رملي أيضاً قرب بئر ابو جفان، وهو مصدر الماء الوحيد في هذه المنطقة بين الرياض والهفوف.

هناك عدة آبار أخرى تتراوح اعماقها بين عشرة إلى اثني عشر متراً

لكن مياهها غير صالحة تماماً .

كـان يخـيم في المنطقـة المحيطة بالبـئـر بدو من قـبـيلتي بنو مـرة وقحطان إلا أن قافلتنا مكثت قرب البئر ليوم ونصف سقينا أثناءها إبلنا والشياه التي اصطحبها المسافرون، ونجحنا ايضاً في إجراء بعض المبايعات مع البدو حيث اشترينا منهم جمالاً وحصلنا على أسعار مناسبة. زارني كثير من البدو ملؤوا خيمتي بأعدادهم، وبينما كنت اعالج عيونهم وجراحهم كانوا لا يتوقفون عن شتمي، ولا يخفون رغبتهم في أن يختفي ذلك الكلب الكافر من أمامهم.

كـان من الممكن ان تتـحـقق رغـبـاتهم تلك لأنه لم تكن هناك حراسة مما اضطرني أن أبقى مـسـتـيـقظاً طوال الليل يساورني الشك ان الليلة قد لا تمضي بسلام . بعد منتصف الليل بقليل اقبل رجلان مسرعان نحو المعسكر مرا بالقرب مني وخرجا من الجانب الآخر من المعسكر . كنت على يقين أن قدومهما على ذلك الشكل وبتلك الساعة من الليل لا بد وان وراءه ما وراءه، ولذا اتخذت وضع الجلوس واشعلت غليوني وجلست انتظر. عاد الرجلان نفساهما بعد خمس دقائق من نفس الجانب الذي خرجا منه . كانا هذه المرة مسلحين ببنادق يتبعهما رجل مسلح ايضاً يمتطي ظهر جمل. اقبلوا جميعاً نحوي ووقفوا على بعد أمتار مني. وعندما رأوني جالساً أدخن غليوني اضطربوا -يبدو انه كان من الأسهل لهم ان يقتلوني وانا نائم- وبعد أن تهامسوا مع بعضهم توجهوا إلى قائد القافلة طالبين إليه ان يسلمني لهم حيث ابلغوه انهم ينوون قتلي ثم يقتسمون ممتلكاتي. اقنعهم بعد جهد جهيد ان قتلي سوف يعود عليهم بانتقام رهيب. تراجعوا

أخيراً بعد لأي.

غادرنا بئر أبو جفان يوم الثالث من ابريل في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، متجهين شرقاً مخترقين أعداداً كبيرة من بيوت الشعر لبدو من بني مرة . بعد السير حوالي الساعة اشرفنا على صحراء الدهناء بتلالها الرملية العالية، إلا ان أعلى تل رملي هنا لا يزيد ارتفاعه على ثلاثين متراً على عكس ما عليه التلال ذات الارتفاعات العالية في نفس صحراء الدهناء شمال شرق الزلفي.

الكثبان الرملية هنا تمتد شمال غرب بجنوب شرق، مما يدل على انها تكونت بفعل رياح غربية. تجنبنا المرور فوق خمسة من الكثبان العالية بالدوران حولها واختراق كثبان أصغر حجماً منها لكنها مغطاة بالأعشاب الكثيفة. إن سلاسل الكثبان العالية هنا تمتد على مد البصر نحو الجنوب. لم يات منتصف النهار إلا وقد عبرنا منطقة الرمال، وفي الساعة الثانية وأربعين دقيقة بعد الظهر اقمنا مخيمنا الثالث والثلاثين. مررنا في طريقنا هذا على أعداد كبيرة من بيوت الشعر لبدو من قبيلة مرة وقد أحس أفراد القافلة الذين يسوقون امامهم إبلاً صغيرة سمينة لبيعها بالاحساء، أحسوا بالخوف في كل مرة نقترب فيها من خيام بني مرة.

أحسست بالحاجة الماسة إلى سلاح ناري كي أبقي تابعي عبدالعزيز تحت سيطرتي. إن هذا المخلوق الذي اثبت إلى الآن انه أهل للثقة حسب المفهوم العربي لذلك، اصبح فجاة غامضاً تماماً. لقد استولى على كل الأشياء التي حصلت عليها في الرياض من بيت الإمام ولم اتمكن انا او علي من ان نعيده إلى صوابه . وفوق كل ذلك

فقد سرق اليوم كميات من اللحم الخاص بي، والباقي الذي تركه افسده عنوة بما وضع فوقه من رمل. كما أنه انتهز الفرصة ليبدد ماء الشرب من قربي وإعطائه للمسافرين المتجهين إلى البحرين لصيد اللؤلؤ. إضافة إلى كل ذلك فقد وقع في حب امرأة تسافر مع القافلة وأصبح يعمل كل ما في وسعه لجذب انتباهها بما في ذلك سرقة أشيائي وإعطائها لها مما سبب توتراً كبيراً ليس لي فقط ولكن لرفاقي الآخرين.

٤ أبريل:

رحلنا من آخر معسكر لنا في الساعة الخامسة صباحاً، متجهين شرقاً بشمال شرقي شاقين طريقنا عبر سهل رملي منبسط. وفي الساعة العاشرة وصلنا منطقة وعرة صخرية كثيرة النتوءات ضاعت فيها معالم الطريق، كما أن نتوءاتها كانت تكبر أكثر فأكثر كلما توغلنا فيها حتى وصلنا اخيراً إلى الصمان. عبرنا عدداً من الحزوم القليلة الارتفاع قبل أن نصبح فوق الهضبة نفسها التي نصبنا فوقها مخيمنا الرابع والثلاثين.

٥ أبريل:

غادرنا هذه المحطة قبيل الساعة الخامسة صباحاً، وسرنا مدة ست ساعات في أرض سهلة ليس فيها ما يثير الانتباه عدا الحجارة التي غطت سطحها . بعد ذلك بدات تظهر طبقة طينية فوق سطح الأرض التي لم تعد تسمى الصمان بل أصبح اسمها الربيدة. سرنا فوق ذلك الجزء من الربيدة إلى الساعة الرابعة عصراً، حيث وصلنا إلى تل صخري متآكل ذكرني بالمنطقة التي تقع جنوب غرب اللصافة. ترجلنا هنا من



رسم لباركلي رونكيير



الهفوف: ضباط أتراك وقد وضعوا العُقُل والغتر العربية فوق رؤسهم مع احتفاظهم بالزي العسكري الرسمي

فوق مطايانا في واد موحش يسمى الشعب حيث نصبنا خيامنا وكان الوقت آنذاك الساعة الثالثة عصراً.

ازداد الآن الخلاف بيني وبين عبدالعزيز من جهة وبينه وبين علي من جهة اخرى؛ مكثنا بفضل سرقاته ثلاثة ايام لا ناكل طعاماً بالمعنى الصحيح بل اقتتنا ببعض الخبز الناشف وقليل من الماء السيئ. أصبح توقف القافلة ايضاً مزعجاً مع مرور الأيام، فقد تفجر السلوك العدواني لصيادي اللؤلؤ، كما اصبحوا يقترفون كل عمل غبي يمكن ان يخطر على بالهم في تلك الرحلة الصحراوية. لم يهملوا فقط في إقامة حراسة ليلية بل اصر المحترمون على إشعال نار ضخمة طوال الليل توشي بمكان القافلة على بعد اميال عديدة. اعتادوا أيضاً على الرقص بحركات غريبة حول النار. كما أنهم كانوا ينشدون بعض اغانيهم بكل ما أوتوا من قوة باصوات أشبه بعواء الذئاب منها إلى الغناء. ولم يكتفوا بحركاتهم المجنونة التي كانوا يقومون بها، والتي تتمثل بالرقص الهستيري حول النار مشرعين بنادقهم فوق رؤوسهم ورميها من واحد إلى الآخر من فوق النار المشتعلة، بل إن الحماس المجنون قد دفعهم فاخذوا يطلقون رصاص بنادقهم في كل اتجاه دون مراعاة اي اتجاه يطلقون فيه رصاصهم. فعندما كنت اتناول عشائي مثلاً في مخيمنا الرابع والثلاثين مرت فوق رأسي رصاصة ربما لم يكن مرورها بهذا القرب مني مجرد صدفة. والآن ونحن في المخيم الخامس والثلاثين فإن الرصاص يتطاير في كل اتجاه بينما يستمر الرقص ورائحة البارود تعبق الجو مما جعل حتى بعض افراد القافلة من العرب يشتكون من رائحته.

في الساعة الخامسة إلا ربعاً في اليوم السادس من أبريل غادرنا معسكرنا وسرنا شرقاً عبر الشعب ثم عبرنا وادياً واسعاً يتجه شمالاً- جنوباً يسمى الفروق. يتميز هذا الوادي بكثافة أعشابه ووفرة الشجيرات فيه. خرجنا من الوادي وسرنا في أرض رملية جافة، وعندما أصبحنا في أرض مرتفعة ظهرت لنا مجموعة كبيرة من الرجال يتجهون نحونا على ظهور إبلهم. ما إن رآهم أفراد القافلة حتى دبت الفوضى بينهم. لكنهم قرروا أن يجعلوا النساء والرجال والكبار والأطفال وحيوانات النقل خلف تلال قريبة من القافلة، بينما تقدم الرجال القادرون المسلحون وهم يطلقون بنادقهم باتجاه الركب القادم. حتى صيادي اللؤلؤ ركضوا أيضاً نحو القادمين مطلقين صيحات الحرب ومشرعين ما معهم من أسلحة مثل العصي والسكاكين والخناجر التي كانت تلمع تحت أشعة شمس الصباح.

رأى القادمون ذلك الهياج والصياح والرجال القادمين نحوهم فاسرعوا بإرسال إشارات تقول: إنهم لا ينوون شراً، ومع ذلك انحرفوا بسرعة عن مواجهة قافلتنا مع أن ما لديهم من سلاح يفوق بلا شك ما لدينا منه.

استرحنا ساعة من الزمان استأنفنا بعدها السير في أرض كثيرة التعرجات وفي نفس وجهتنا تجاه الشرق. بعد ساعة أخرى وصلنا مرتفعاً يسمى النَّعْلَةُ صعدنا فوقه فقادنا إلى منطقة حجرية جرداء تشبه منطقة الصمان. لكن تدريجياً بدات المنطقة الحجرية تختفي وتظهر مكانها ارض ترابية قطعنا بها شوطاً إلى ان وصلنا في الساعة العاشرة

وادياً يسمى باباً [1] نبتت بين الجيوب الرملية التي انتشرت في بطنه بعض الأعشاب والشجيرات الصغيرة. حططنا الرحال للراحة مدة نصف ساعة. بعد نصف ساعة أخرى عبرنا منخفضاً يطلق عليه الطلاعية، ويقوم خلفه حزمٌ منخفضٌ يعرف بـ رارسيد [2]. شاهدنا هياكل عظمية كثيرة لجمال غطت الرمال معظمها، بينما لا يزال بعض قطع اللحم الجاف والشعر تتمسك بالجلد والعظام، والمنظر كله يحكي عن معركة كبيرة حصلت منذ وقت ليس بطويل بين القوات التركية المتمركزة بالهفوف وبين البدو. لقد قتل زعيم البدو في هذه المعركة ودفن فوق مرتفع يقع على اليمين وهوما أعطى للمنطقة اسم رارسيد.

هبطنا بعد ذلك نحو منخفض شاسع يسمى جو [3] حيث شاهدنا بعد ذلك عن بعد شريطاً شديد الاخضرار لدرجة جعلته يبدو أسود. إنها مزارع النخيل بالهفوف. وعلى الرغم من أنه كان باستطاعتنا ان نصل الهفوف قبل غياب الشمس لو تصرف رجال القافلة بحكمة إلا أنهم ابوا إلا أن يريحوا أنفسهم، وأصروا كالعادة على التوقف عن السفر، وعليه نصبنا خيامنا في الساعة الواحدة والنصف ظهراً في جو. منذ ساعات قليلة فقط قابلنا مجموعة من الجمَّالة الذين لا يوحي مظهرهم بالثقة مطلقاً، إضافة إلى أننا بحاجة ماسة إلى الطعام والماء. أردت أن أستمر في السفر إلى الهفوف إلا ان عبدالعزيز وقف في

---

(١) يعرف بـ(باب الفروق)، كما يمكن ان يطلق عليه أبواب.

(٢) يقول المترجم الإنجليزي إن الشخص أو المكان غير معروف .

(٣) يقصد جودخان في منطقة لعلة ومحاذياً لوادي الفروق، ويبعد عن جبل ابو غنيمة جنوب غرب بـ ٩٠ ميلاً.

طريقي بكل وقاحة، وكل هذا لان هناك امرأة في القافلة كان يبثها لواعج اشواقه ولم يشأ ان يتخلى عنها بسرعة. وعندما حاولت ان أستخدم عصاي وقبضتي لإجباره على استئناف السير التقط بندقيته وركب راحلته ودار حول القافلة المتوقفة ليعود إليها من الخلف. ولهذا لم يكن بإمكاني ان افعل شيئاً سوى ان أبقى انا أيضاً لان المنطقة حول الهفوف شديدة الخطورة، ولو غامرت أنا وعلي بترك القافلة ومواصلة السير إلى الهفوف لعرضنا نفسينا لخطر كبير خاصة واننا لا نحمل سلاحاً.

سرق عبدالعزيز كل شيء استطاعت يده ان تصل إليه ولذا فلم اتناول اي طعام منذ أن تركت المحطة رقم ٣١، وهذا يعني منذ أربعة أيام. ولأنه اعطى ما احمله من الماء إلى صيادي اللؤلؤ اصبح علي ان أروي ظمئي ببعض قطرات الماء الطينية التي بقيت في بطن القربة. كانت رائحة ذلك الماء عفنة لدرجة أنني اضطر لسد انفي عندما أجبر نفسي على شربها. لقد انتهت علاقتي بعبدالعزيز ونفذ صبري منه منذ اللحظة التي رفض فيها ان يواصل السير معي إلى الهفوف. أخبرته بصراحة وحزم انه إذا كان بالإضافة إلى سلوكه السيئ منذ مغادرتنا الرياض يرفض أيضاً أن يرافقني إلى الهفوف فإن الثمن سوف يكون إكراميته التي اعددتها له في البحرين. قلت له أن يختار بين ليلة يمضيها في جو أو خمسة عشر جنيهاً يتسلمها مني في البحرين، لكنه فضل الاختيار الأول.

لكننا سوف نكون غداً في الهفوف وسوف تكون لدي سلطة مرة اخرى – واحمد الله على ذلك.

حل الظلام وتصاعدت ألسنة اللهب من النار الموقدة وعلت صيحات صيادي اللؤلؤ وتجاوبت أطراف الصحراء بصدى طلقات البنادق لدرجة جذبت انتباه بعض الأعراب الغرباء . وابتدأ الصياح والصريخ والأخذ والرد من دون ضابط بينما ينتظر الجميع الهجوم المتوقع. كانت الليلة حالكة الظلام والبرد قارساً وأخذ المطر ينهمر والسماء تنير الفضاء ببرقها الساطع . وبسبب المطر الشديد الذي غرقني كلِّيةً والبرد الشديد الذي صاحب المطر عاودني المرض مرة أخرى، وزاد من وضعي الصعب الجوع الذي عانيت منه في الأيام الماضية والماء القذر الذي اضطررت ان اشربه.

٧ أبريل :- استيقظنا في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة وغادرنا جو بعبور حزم قليلة الارتفاع؛ سرنا بعد ذلك في سهل رملي يسمى « ماهيت »[١] يحيط به من الشمال والجنوب صخور ذات لون باهت. وفي السهل نفسه تقوم بعض الصخور التي اتخذت أشكالاً غريبة بفعل عوامل التعرية. بعد ان تركنا تلك الصخور خلفنا جاء من بعض أفراد القافلة من يقول: إن هناك لصوصاً يتربصون بنا ليسرقونا مما أثار بلبلة لم يكن لها اي مبرر. طلعنا بعد ذلك إلى سهل فسيح منبسط استمر هكذا إلى الهفوف. تركنا الآن التلال خلفنا واصبح السهل أمامنا أكثر اتساعاً. وبعد مرورنا على بعض خطوط الرمال المتحركة في الساعة التاسعة صباحاً، وصلنا إلى أطراف واحة الهفوف وشاهدنا أول قشلة تركية، وبعد خمس دقائق أخرى كنا ندخل البلد عبر بوابتها.

لقد اقترف عبدالعزيز كل ما امكنه من الأفعال العدوانية ضدي

---

(١) لم احد هذا الاسم على الخريطة، ولعله من الاسماء التي ابتدعها المرافقون .

وها هو الآن يعود إلى زحفه امامي بخضوع كامل، مثل اي كلب. اخذنا طريقنا عبر ازقة الهفوف المتعرجة، إلى ان وصلنا إلى الطرف الشمالي الشرقي من المدينة حيث المباني الحكومية.

كان للعطف والكرم الكبيرين اللذين لقيتهما من قبل افراد الحامية التركية الاثر الكبير في التخفيف عني مما كنت لا ازال اعانيه من مرض وإرهاق، فقد وضعوني في واحدة من الدور الحكومية المخصصة لكبار الزوار. اما عبدالعزيز واخوه فقد وجدا مكاناً لإقامتهما في إحدى المحطات التي تستقبل القوافل على اطراف المدينة.

إنني لا ازال مريضاً بحيث لا استطيع السير دون ان اتكئ على علي، ولكنني استطيع ركوب الجمل. تجولت في واحة الهفوف بصحبة عباس حلمي بك، حاكم الأحساء العسكري، وهو رجل لطيف ونشط. صحبنا في جولتنا ثلة من الجنود الاتراك.

ذهبوا بي إلى حمامات الهفوف حيث اغتسلت كما احتفل بي قائد الحامية في منزله واكرمني. امضيت وقتي اتنقل في ارجاء الهفوف واتمتع بمناظرها البهيجة وخضرتها الغناء، التي يعجز الوصف أن يلم بها خاصة ونحن الآن في فصل الربيع.

إن الصورة المناقضة تماماً لجمال الهفوف هي تلك التي شاهدتها عندما زرت قلعة طينية حولت إلى سجن. شاهدت أولئك اللصوص والمجرمين الذين قبض عليهم حديثاً والذين ينوءون بالقيود الحديدية بأرجلهم وأيديهم قبل أن يرموا بزنزانات مفردة قذرة ليلقوا جزاء ما اقترفوا من جرائم. إن الهفوف والمناطق المحيطة بها تعج بالخارجين على القانون. إن هجمات إجرامية تحدث في الهفوف في وسط النهار، وقد

يغزو البدو المدينة أو أطرافها ويسوقون المواشي والحمير والجمال على مرأى من الجميع. وما إن يحل الظلام حتى يسرع الناس للاحتماء بمنازلهم داخل أسوار المدينة؛ وحتى المدينة نفسها ليست آمنة والسلطة تضع حراسة دائمة في ساعات النهار خاصة في مناطق البيع والشراء.

إن معظم هذه القلاقل سببها المكائد الوهابية التي تأتي من الرياض حيث لا ينسون هناك ابداً ان الأحساء كانت في يوم من الأيام تابعة للسلطة الوهابية. كما أن الإدارة التركية نفسها تتحمل جزءاً من مسؤولية انعدام الأمن في المنطقة. فلو وضعت الأحساء تحت حكم عسكري وتضاعف حجم الإدارة وقوات الأمن وعوقب المجرمون بشدة وصرامة ووجدت وسيلة لملاحقة الخارجين على القانون من البدو؛ لو اتخذت كل هذه الإجراءات فسوف تؤتي نتائج طيبة في سنوات قليلة. في تلك الحالة سيقضى على ذلك القسم من الناس الذين يثيرون المشاكل وينعم الجزء الباقي بحياة آمنة.

إن هذا هو الحل الوحيد المتوفر لدى السلطان التركي إذا كان يريد الإبقاء على سيطرته على الأحساء. ولو عولج التقصير في وقت مبكر لأمكن معالجة الوضع بطريقة سليمة. إنما والوضع على ما هوعليه الآن فليس من المستغرب انه بقي كما كان عندما احتل مدحت باشا المنطقة في عام ١٨٧١م.

وبالنظر إلى تطور الأحداث السياسية بالشكل الذي حدث في الشرق الأدنى فإن الوقت اصبح الآن متاخراً على تركيا لتبدي ندمها او تجدد شبابها. إن طريق الانهيار الذي تسير فيه الامبراطورية التركية

مرصوف بخطط الإصلاح وبالوعود والنيات الطيبة، ولكن القسطنطينة ليست تماماً المركز الذي تنبثق منه هذه الآمال الطموحة التي بدونها لا يمكن إخضاع عرب الجزيرة الأقحاح الذين يتطلعون دائماً وأبداً إلى أن يكونوا أحراراً في بلادهم المستقلة.

على الرغم من كرم الضيافة والعطف اللذين لاقيتهما هنا، وعلى الرغم من أنني ما زلت أعاني من المرض والضعف فقد كنت حريصاً على استئناف الرحلة نحو الساحل وأبعد من الساحل. لهذا حددت يوم مغادرتي في عصر الحادي عشر من أبريل. لم أخبر أحداً بوقت المغادرة حتى لا أفاجأ بهجوم علي يعده البدو. في الساعة الرابعة بعد الظهر من اليوم المحدد للرحيل أمر القائد التركي بإعداد خمسين فارساً ليكونوا على أهبة الاستعداد، وأرسلت إلى عبدالعزيز رسالة أن يحضر حالاً ومعه الجمال . وفي الساعة الرابعة والثلث وبعد وداع حار للضباط الأتراك غادرت الهفوف برفقة الحماية العسكرية.

بعد السير ساعة ونصف عبر الواحة وصلنا إلى قرية محصنة اسمها حصول(١)؛ في الساعة السادسة والنصف جئنا قرية أخرى هي الجفر حيث نزلت مع علي وقائدي القافلة في منزل رجل عربي بارز دل على أهميته وجود مجموعة من الجنود يستريحون في الفناء الواسع أمامه.

أمضينا فقط جزءاً من الليل ضيوفاً إذ ما إن صارت الساعة الثالثة

---

(١) لم أعثر لها على أثر في خريطة الاحساء، ولعلها الفضول، وذلك من خلال متابعة سير الرحالة، والذي يبدو أن هذه الاسماء غير حقيقية وربما زوده بها مرافقوه لما انتابتهم لشكوك حول الرحالة، وهذ أمر يحدث كثيراً مع بعض الرحالة لذين أشاروا لمثل هذا في كتبهم مثل: دلوتي وفيلبي وغيرهما..

من صباح الثاني عشر من شهر ابريل إلا وشددنا الرحال من جديد متوجهين شرقاً شمالاً حيث بعد حين وصلنا إلى اقصى نقطة في شرق الاحساء هي قرية الجشة. دخلنا بعد ذلك منطقة صحراوية رملية وعبرنا كثيباً عالياً خرجنا بعده إلى أرض ترابية تناثرت فيها بعض الكثبان الرملية الخفيفة التي نبتت بالقرب منها بعض أشجار النخيل البرية التي لا تزيد أطوالها على قامة الرجل. يطلق على هذه المنطقة الحسا[1]. بعد ذلك وصلنا ارضاً ملحية مستوية تماماً ولهذا فقد كانت خالية تماماً من اي نبات، بل يوجد فيها بقع بيضاء تكون فيها الملح. توقفنا في الساعة الثامنة وحفرنا حفرة عمقها متر ونصف ظهر بعدها ماء مالح نوعاً قدمناه لبغالنا لتروي ظمأها منه.

واصلنا السير عبر أرض وعرة نوعاً ما، نبتت في بعض أجزاء منها الاعشاب الكثيفة وبعض الشجيرات المختلفة، بينما خلت أجزاؤها الأخرى من اي نباتات ؛ يطلق على المنطقة هنا راس العالي[2]. اختفت بعد هذه المنطقة المساحات الخضراء وحل مكانها كثبان رملية يصل ارتفاع بعضها إلى ثمانية أمتار من الرمال ذات اللون الابيض البراق الذي يميل قليلاً إلى الاصفرار.

شاهدنا جيفاً لجمال ميته تناثرت حولها شداداتها المحطمة وبقايا أحمالها التي ابتلعتها الرمال المتحركة. قيل لنا إنه في هذا المكان ومنذ شهرين فقط هجم البدو على قافلة كبيرة يزيد عدد الجمال فيها على

---

(١) لعله يقصد صبخة أم خيشة شمال شرقي الاحساء.

(٢) لم أجدها في الخريطة، وقد تكون من الاوصاف التي لم تدعها المرافقون للرحالة.

الخمسمائة كانت في طريقها من العقير إلى الهفوف. كان يحرس القافلة ثلة من الجنود الأتراك وكذلك ممثلون عن قبائل البدو ومع ذلك فقد أبيد معظم أفرادها من عرب وأتراك وسيقت معظم الجمال غنيمة للغزاة. هكذا هو الأمن العام في الأحساء.

عبرنا كثيباً عالياً توقفنا بعده مدة ربع ساعة لسقي البغال من بئر وجدنا ماءها على عمق متر واحد. كان الوقت منتصف النهار ووجدنا بعض أشجار النخيل البرية قد نبتت بالقرب من البئر.

كنا لا نزال في مكاننا عندما عاد الجنود الذين تقدموا القافلة لرصد الطريق،عادوا يعلنون انهم شاهدوا ركباناً على مسافة قريبة أمامنا. ابتدأ حراس القافلة يأخذون اهبتهم لأي مواجهة محتملة إلا انه سرعان ما اتضح ان الركبان المسلحين جيداً يقومون بحراسة قطيع كبير من الجمال ترعى في المنطقة وليس لديهم نية التعرض لنا.

عبرنا بعد ذلك منخفضاً يدعى فسيحان[1] انتشرت به أحجار صخرية برزت أحجامها الكبيرة من فوق الرمال التي غطت جوانبها، وتوقفنا بضع دقائق عند بئر في وادي أبو حيل. في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بجانب بقعة أرض تسمى سواد غصت بأشجار النخيل البرية، وبعد ربع ساعة أخرى أصبحنا فوق قمة كثيب ظهرت لنا الأرض من علوه، سهلة منبسطة تمتد إلى أن تلامس مياه الخليج الزرقاء الضحلة.

شاهدنا في نهاية الكثبان أيضاً برجاً تركياً للمراقبة وهناك أيضاً

---

(١) لم أجد له أثراً على الخريطة - والمنخفض القريب من العقير يسمى الصفيراء.

وفوق شبه جزيرة صغيرة تمتد داخل البحر شاهدنا بلدة العقير التي لا تزيد عن كونها قلعة طينية صغيرة ومحطة للقوافل، يقف على شاطئها حوالي اثني عشر من القوارب الشراعية العربية من أحجام مختلفة. لم نشاهد نخلة واحدة توفر ظلاً، كما ان مياه الشرب تجلب من بئر ماؤها عسير. ليس في العقير سكان مدنيون بينما يعيش الجنود الأتراك في عزلة تامة يخوضون معارك مستمرة مع أهل المنطقة، ويهدد وجودهم نفسه البحر بصخوره الخطرة والصحراء لو غامروا بالتوغل فيها.

ركبت في اليوم التالي فوق ظهر زورق شراعي عربي . أرخى القبطان قلوعها وابتدأت رحلتها نحو البحرين، بينما الضباط الأتراك يلوحون لي بالوداع وهم على درجة من السكر بحيث لم يكونوا يدركون إن كانوا يقفون على اقدامهم أو على رؤوسهم.

أخذ زورقنا طريقه شرقاً منساباً فوق مياه الخليج يميل يمنة ويسرة ويسمع لمفاصله صريرٌ وتأوه، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحنا نشاهد زعانف أسماك القرش المثلثة تظهر وتختفي بكسل حولنا. شاهدت الشمس وقد أصبحت قرصاً شديد الحمرة وهو يختفي في بطن رمال صحراء شرق الجزيرة العربية ويحل بعده الظلام الذي ينشر غلالة شديدة السواد على أرض ليس فيها من شيء حي أوميت إلا ويشكل خطراً على الغريب عليها . ولكن نفس هذه الأرض بالرغم من ذلك تأخذ بسحرها من يجرؤ على اقتحامها خاصة إذا خرج من مغامرته سليماً حيث يستطيع بعدها أن يقدر سحرها وغموضها. ولا يحتاج المكتشف إلى اكثر من وجود الشيء الذي يريد اكتشافه كي

يأتي إليه. وهذه البلاد تستحق أن نعرفها أكثر لأنها الأرض التي ازدهرت فيها أقدم الحضارات والتي تحتاج منا إلى إزالة غبار النسيان عنها .

ملاحظات دونها الرحالة اثناء رحلته

بدأت منذ أن غادرت البصرة إلى أن وصلت العقير في تسجيل يوميات وملاحظات جعلتها أساساً لمسح جغرافي لشرق ووسط الجزيرة واستعنت على تكملتها بما أخذته عن كتاب لويس بيلي الممتاز الذي ظهر في عام ١٨٦٥م، وإلى حد أقل بما وجدته في مشاهدات بالجريف. وفيما يلي ما جمعته خلال الرحلة:

التضاريس

المنطقة الساحلية من الكويت إلى القطيف طينية رملية سهلة تتخللها الانخفاضات والارتفاعات القليلة، ويبرز فيها هنا وهناك بعض الصخور الرملية والتلال قليلة الارتفاع التي تشبه تلك الموجودة في منطقة وبرة جنوب الكويت. إن هذا الشريط الساحلي قد يكون امتداداً للصحراء السورية لكنه أكثر رمالاً، ويطلق على الجزء الأكبر منه الدبدبة. يبلغ عرضه في الكويت مائة وسبعين كيلو متراً، ثم يضيق تدريجياً حتى يبلغ سبعين كيلو متراً عند القطيف. وتوجد آبار عديدة في المناطق القريبة من الساحل، والتي تكثر فيها الوديان التي تكونت بفعل السيول، بينما لا توجد مثل تلك الآبار في المناطق المستوية. في الاحساء، تنتهي الدبدبة بصحراء رملية تكونت بفعل الرياح القوية بمحاذاة الساحل جنوباً، وبعرض يصل إلى أربعين أوخمسين كيلو متراً. والماء في المنطقة يتوافر في الآبار التي لا يزيد عمقها على متر واحد لكنه في الغالب عسير وطعمه غير مستساغ. يندر في المنطقة وجود النباتات خاصة الأعشاب، ولو أنه يوجد في بعض المناطق المنخفضة

مجموعات من أشجار النخيل البري. ويلاحظ هنا وهناك وجود مساحات شاسعة من الأراضي المنخفضة التي خلت تماماً من اي نباتات ولا يرى فيها إلا بقع بيضاء، تكون فيها الملح كما هو في الصبخة الكبيرة جنوب الطريق بين الهفوف والعقير.

يحد الدبدبة من الغرب هضبة الصمان الصخرية. وعلى مسافة الطريق من الكويت إلى الزلفي يبلغ عمق الصمان مائة وخمسين كيلومتراً؛ ولكننا إذا قسناها من نقطة ابعد إلى الجنوب فإن اتساعها حسب ما أورده بيلي لا يزيد عن تسعين كيلومتراً إلا انها تعود تتسع مرة اخرى وتصبح مائة واربعين كيلومتراً بين الرياض والهفوف. وينتهي الجانب الشرقي من الصمان تجاه الدبدبة، بمجموعة من الوديان والأخاديد وقيعان تشبه قيعان القدور الكبيرة. يوجد في تلك الأعماق على الحدود بين الصمان والدبدبة سلسلة من الآبار والينابيع الممتازة التي جعلت منها طريقاً هاماً بين نجد والساحل الشرقي للجزيرة.

من أبرز الآبار الموجودة بين الصمان والدبدبة: آبار لينه، ودرب السماوة، والحفر، وتقع كلها على الطريق بين الزبير وبريدة، ثم بئر اللصافة بين الكويت والزلفي، وبئر وبرة بين الكويت والرياض، أخيراً تاتي الهفوف الغنية بينابيعها التي يرجع إليها الفضل في ازدهار الزراعة في الواحة كلها.

لا يوجد في الصمان نفسها آبار، ومعظم سطحها كان مستوياً. أما المناطق ذات التضاريس فنجد في بعض منخفضاتها النباتات والأعشاب التي تنبت حول الرمال التي اتت بها الرياح إلى تلك الحفر. وتمتد الصمان شمالاً إلى صحراء الحجرة.

يحد الصمان من الغرب رمال الدهناء، وهي عبارة عن سلسلة من الكثبان الرملية التي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وبتشكيلات تدل على الدور الرئيسي الذي تلعبه الرياح التي تهب من الجنوب الغربي في تكوينها، يصل بعض تلك الكثبان إلى ارتفاعات شاهقة من الرمال البرتقالية كما يحدث أيضاً في صحراء النفود شمال الجزيرة وفي بعض مناطق من صحراء النوبة. لا يوجد في الدهناء أي آبار، ويبلغ اتساعها بين الكويت إلى الزلفي حوالي ثلاثين كيلو متراً، بينما هي مائة كيلو متر على الطريق الذي سلكه بيلي. ويبلغ عرضها على الطريق بين الرياض والهفوف خمسة وخمسين كيلو متراً. وتمتد صحراء الدهناء إلى الشمال بشريط ضيق لا يزيد اتساعه عن خمسين كيلومتراً، وربما يمتد إلى النفود بين الخضراء وحائل.

يحد الدهناء بدورها من الغرب هضبة عالية يمكن أن يطلق عليها الاسم العام طويق تمشياً مع المنطقة الصخرية التي تشكل قلب نجد. توجد على الأطراف الشرقية لطويق والتي تباري الدهناء سلسة من الآبار تماماً، كما توجد مثل تلك السلسلة من الآبار على الأطراف الشرقية للصمان. والآبار الموجودة على الجانب الشرقي من طويق هي: الأرطاوية، أبو جفان[1] والجفية. وطويق نفسها تتكون من مجموعة من الهضاب المتميزة، التي تنحدر كلها تدريجياً نحو الشرق بينما ترتفع فجاة من ناحية الغرب. والتربة في طويق حجرية رملية مع بقع طباشيرية في المناطق المرتفعة. يبلغ ارتفاع المنطقة كلها عن سطح

---

(١) منهل ماء قديم، يقع على خط العرض ٣٠ ٢٤، وخط الطول ٤٣ ٤٧، وبه آبار كثيرة الباقي منها حتى الآن ٢٤ بئراً، وهو من المواضع التي خيم فيها الملك عبدالعزيز عند دخوله الرياض في عام ١٣١٩هـ.

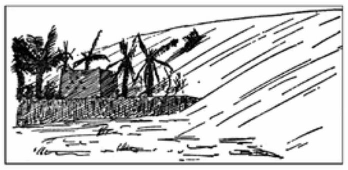
سطح البحر ثمانمائة متر، ومن مائتين إلى ثلاثمائة متر عن مستوى المنطقة المحيطة بها. أما تقدير بالجريف بثلاثة آلاف قدم فإنه مبالغ فيه حتى بالنسبة لأعلى نقطة. ولون التربة أبيض مائل للاصفرار يتخلله بين مسافة واخرى مجموعات من الصخور ذات الألون الحمراء الداكنة التي يدل لونها على أصلها البركاني كما في مناطق برُمة وأران[1].

أما بالنسبة لامتداد الأرض من الكويت نحو الداخل فإنها تسير من شمال الكويت عبر وادي الرمة، والمعروف بجزئه السفلي بالباطن، وهو يتجه نحو الشمال الشرقي تجاه شط العرب غرب مدينة الزبير، وليس نحو خليج الكويت كما بينه ستيلر على خريطته. وتنحدر منطقة غرب الكويت المعروفة بوادي المُشْقر إلى وادي الرمة أيضاً. أما المنــاطق شرق المُشْقر وجنوب المجمعة إلى ثادق فهي تنحدر بمجار صغيرة نحو الشرق إلى أن تختفي في الصحراء. وادي المجمعة والشعاب الواقعة جنوبه والتي توجد فيها واحة جَوي[2] التي جاء اسمها جواي في النشرة الجيوليوجية الأمريكية في خريطة وزارة الداخلية B . 2 ٢٧٠-١ شبه الجزيرة العربية ١٩٦٣- ينتمي إلى ذلك النظام . وصف بالجريف وادي المجمعة بانه دائم الجريان حيث لا يوجد في وسط الجزيرة أو شـــرقهـــا أي نـهـر أو واد يجـري فيـه الماء بصفة دائمة ما عدا الفترات التي تعقب هطول أمطار غزيرة. في الأحساء فقط يوجد بعض الينابيع التي ينساب منها الماء بصفة دائمة ويسير على شكل جداول صغيرة عدة كيلو مترات.

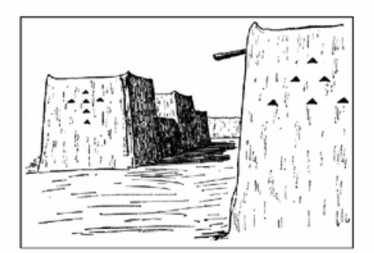
---

(١) ربما يقصد أبرق عرهان وهو و د قريب من روضة الخويبية.

(٢) تقع جنوب غربي المجمعة بمسافة ١٠ إلى ١٥ كم، عن طريق سدير لقديم وقبل حلاجل بـ ١٥ كم.



النباتات تكافح هجوم الرمال في بريدة



نماذج من بيوت شرق ووسط الجزيرة العربية



كوخ من سعف النخيل في الهفوف

من جنوب ثادق تبدأ المنطقة في الانحدار نحو وادي حنيفة. وتتجه روافد السيول هنا شمالاً وشمال شرق ولكن لا توجد معلومات دقيقة عن مكان انتهائها. ويرجى أن يمدنا الكابتن ليشمان الذي زار هذه المناطق في نهاية عام ١٩١٢م بشرح مفصل عن نظامها الجغرافي المائي. يندر وجود النباتات في طويق، وما عدا قاع الأودية فالأرض جرداء قاحلة، أما أين وجد بالجريف الأرض المغطاة بالحشائش والأعشاب على مدى العام فهو أمر يصعب فهمه.

يرى المسافر في الحقيقة بين فترة وأخرى بقعاً غنية بالنباتات والأعشاب تغطي قاع بعض الوديان مما يذكر المرء بالدبدبة، بل بعضها أكثر غنى وكثافة من نباتات الدبدبة، ولكن المنطقة عموماً ليست أكثر خصوبة من طريق ريفي رصف بحجارة صغيرة. وجمالي التي اعتادت أن ترخي رؤوسها إلى الأرض أثناء السير بحثاً عن شيء تأكله، سارت في الطريق مدركة أنه ليس هناك ما يؤكل؛ وكان علي نتيجة لذلك أن أحصل على حشيش للحيوانات من الواحات.

يتميز الطقس في الجزيرة العربية بجفافه وهوائه النقي والفرق الشاسع في درجات حرارته بين النهار والليل، كان مستحيلاً علي أن احتفظ باي جدول لدرجة الحرارة والرطوبة؛ لأن الفوارق بين وقت وآخر من النهار والليل كانت كبيرة ولهذا فلم أسع إلى تسجيل منتظم لتلك التقلبات الجوية .لكن في شهري الربيع مارس وأبريل عام١٩١٢م كانت درجات الحرارة اليومية كمايلي: مارس - الساعة السابعة صباحاً ١١ْ - ١٢ْ؛ ابريل١٢ْ-١٣ْ في الساعة الواحدة ظهراً؛ مارس ٢٥ْ-٣٠ْ؛ ابريل ٣٠ْ - ٣٥ْ . الساعة التاسعة مساء: مارس ١٢ْ- ١٥ْ؛ ابريل ١٤ْ - ١٧ْ.

في الساعة الواحدة بعد الظهر تكون درجة حرارة التربة على عمق خمسة سنتيمترات -إذا كانت الأرض جافة- من ٥١ْ-١٨ْ. ونادراً ما تصل درجة الحرارة إلى التجمد في خطوط العرض جنوب الكويت. أما بالنسبة لكميات الأمطار فإنها نادرة ويقتصر هطولها بين شهري أكتوبر وأبريل؛ ولا يسقط فيها الثلج أبداً.

ويسقط المطر عموماً في الجزيرة العربية على شكل عواصف مطرية عنيفة تاتي غالباً بمصاحبة ريح قوية من الجنوب الغربي، اوكما يقول عنها أهل نجد من القبلة. وتسود في شرق الجزيرة الرياح الشمالية ولكنها جافة.

يشذ عن القاعدة بعض الاراضي الساحلية على الخليج الفارسي وخاصة في الأحساء، حيث لا نجد الجفاف الذي يسود شرق الجزيرة ووسطها. وعلى الرغم من ان الطقس في الاحساء عموماً لا يختلف جفافه عن باقي الجزيرة إلا ان الرطوبة هنا كبيرة والضباب غير نادر خاصة بالقرب من الشواطئ. وهذه الحقيقة مع ما يصاحبها من درجات حرارة عالية تجعل الاحساء والبحرين أسوأ منطقتين بعد عمان للسكن.

والحيوانات البرية في الجزيرة قليلة، وقد منعني من السؤال والاستفسار عن أنواع الحيوانات ما هومعروف لدى العرب من شكوكهم في اي اسئلة توجه إليهم. ويوجد عموماً حيوانات برية مثل الجربوع والأرنب والغزال. اما الطيور فهي قليلة. والزواحف تمثلها حية سامة يبلغ طولها متراً. ولا يعرف نوعها لأن عداء البدو للافاعي منعت بيلي كما منعتني من الحصول على واحدة منها لدراستها. قالوا إن

قرصتها مميتة، لكنهم يؤمنون بأن أي واحد يتعرض لعضة أفعى يمكن أن ينجو من الموت إذا استطاع أن يبقى متيقظاً مدة ثلاثة أيام. توجد هذه الحيات بأعداد كبيرة وخاصة في الدبدبة والدهناء، والآن بعد سفري هذا الطويل في الجزيرة العربية أدركت مغزى خوف البارون نولده من الأفاعي عندما سافر من معسكر ابن رشيد على طريق زبيدة إلى مشهد علي في عام ١٨٩٢م.

حرص المسافرون معي دائماً على قتل الأفاعي، وخلال رحلتنا من الرياض إلى الهفوف كانوا يقتلون كل يوم حوالي ست حيات. لقد نمت على الأرض طوال أيام الرحلة ولم يزعجني أي حيوان كان، عدا تلك التي أحملها في ثيابي أو تلك التي زحفت علي من الجمال.

يوجد في الصحاري الرملية أنواع عديدة من غزلان المسك وهي تشبه تلك الموجودة في شمال أفريقيا، وقد اصطدت أعداداً منها بين الرياض والهفوف وأكلها صيادو اللؤلؤ. وفي نفس المناطق يوجد أيضاً الضب ذو اللون الأصفر الرمادي. إنهم يصدرونه من الهفوف إلى المناطق المختلفة في تركيا لما هو مشهور عنه سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح من أنه يقوي الباه.

لم أشاهد أنواعاً عديدة من الحشرات. وأكثرها انتشاراً هي أنواع من الخنافس والجعل؛ يضاف إلى ذلك القمل الذي يهاجم الجميع. كما أن القراد الذي غالباً ما يهاجم الجمال يسبب أيضاً أشد المتاعب.

السكان

ينقسم سكان شرق ووسط الجزيرة إلى قسمين بارزين تماماً هما: البدو الرحل، وسكان المدن. ينتسب البدو عموماً إلى القبائل التالية: عتيبة، والدواسر وهاجر وقحطان، وبنو مرة، وبنو ياس، وحرب، ومعظم بدو الكويت عموماً من الرشايدة وهؤلاء فخذ من مطير ثم تأتي مطير عموماً والدويش والمنتفق (والدويش هم الفرع صاحب النفوذ من قبيلة مطير).

من الجدير بالملاحظة ان القبائل بين الرياض والخليج الفارسي متصلة بعضها ببعض، وهذا التوزيع الجغرافي السكاني له أثر كبير على وضع القبائل السياسي، إذ بفضله وضع حد لتغلغل النفوذ التركي من الاحساء إلى نجد. والذاهب إلى الاحساء نفسها يكون كمن يدخل رأسه في عش للدبابير، اما السفر بين الهفوف والرياض فهو أكثر سوءاً إن كان هناك سوء أكثر. إن الوضع الأمني في شرق ووسط الجزيرة، ما عدا الكويت، في ادنى درجاته من الانحطاط؛ ولا توجد ادنى محاولة لتحسينه في المناطق الواقعة بين الرياض والخليج الفارسي. فإذا سافرت تحت حماية بني مرة فانت معرض للهجوم عليك من الدواسر والعكس صحيح. وإذا وضعت نفسك في حماية العجمان أو الدواسر أو قحطان أو بني مرة فسوف يهاجمك الهواجر. ولا شك انه يصعب على الإنسان ان يسافرتحت حماية رجال يمثلون جميع القبائل فالنتيجة تكون تعرضه للاعتداء، وإن كل قبيلة بالتالي تنكر أن الهجوم أتى من أحد أفرادها. إن هذا الوضع الأمني المتردي كان له أثر سيئ على التجارة في الهفوف مما جعل الكويت

المستفيدة الرئيسة منه. لقد كانت الأربعة عشر يوماً التي أمضيتها في السفر بين الكويت والرياض أكثر اماناً من الأسبوع الذي عشته في رحلة الهفوف.

تتكون قطعان المواشي التي يمتلكها البدو الرحل من غالبية من الجمال ثم الأغنام والماعز. لا توجد خيول كثيرة وما يوجد فيها يستخدم في الحروب والغزوات. ويقتني بدو الشمال اعداداً من الحمير. يخيم البدو عادة قرب الآبار في فصل الصيف اما في أشهر الربيع فبراير ومارس وأبريل وجزء من مايو، فهم ينشدون المراعي حيث تهطل الأمطار فتتغذى مواشيهم على نباتات الأرض الرطبة، ويشربون هم من البانها ولا يحتاجون للماء. ينتشر البدو في تلك الأشهر فوق مساحات شاسعة من الصحراء التي تخلو بقية العام من مقومات الحياة وتستطيع مواشيهم في تلك الأجواء الربيعية البقاء دون ماء عدة أسابيع. ومع اننا نعرف بعض مظاهر الصحراء الشرقية وكيف يعيش البدو فيها خلال أشهر الربيع فإننا نعتقد انه لا يمكن لبعثة استكشافية ان تغامر في اكتشاف الصحراء الكبرى الجنوبية، دون أن تتعرض لمخاطر جسيمة قد تصل إلى حد القتل بسبب قساوة ظروفها. وقد يزيد على ما يتوافر في تلك الصحراء المجهولة من مخاطر مميتة، قد يزيد عليها جهل من يغامر بارتيادهابالمخاطرالتي تنتظره،فيزيد بذلك احتمال فنائه.

ما عدا الكويت يعتمد استقرار السكان في مناطق سكنية دائمة على ما تنتجه الواحات من غذاء. فإذا استثنينا الكويت، فإن مناطق الاستقرار تقتصر على جهتين هما نجد والأحساء، اما صحراء شرق الجزيرة بين جبل طويق والخليج الفارسي ما عدا الأحساء طبعاً فهي

خالية من السكان المستقرين. [كان يجب على الكاتب وقد استثنى الكويت أن يضيف القطيف وبعض مناطق استقرار أخرى صغيرة على الساحل][1].

إن وسائل التسلية التي يلجأ إليها سكان شرق ووسط الجزيرة بدائية جداً. لقد قيد الوهابيون حرية الناس في هذا الاتجاه. فالتدخين مثلاً نادر جداً ويمارس في الخفاء. وفي نجد لا يجرؤ أحد على التدخين إذا لم يكن بين أربعة جدران. ولا يكاد المدخن يسمع وقع أقدام في الجوار إلا ويسرع في إخفاء غليونه وسط طيات ملابسه وإبعاد الدخان عنه باستخدام مروحة يدوية. وتدخين الحشيش نادرٌ في وسط الجزيرة؛ لكنه أكثر انتشاراً في الكويت والاحساء نظراً لقربهما من إيران. ولا يعرف تدخين الأفيون إلا في المناطق الواقعة على الخليج الفارسي التي تستقبل الحجاج الشيعة من الهند والعراق. ويمكن شم رائحة الافيون هذا على ظهر السفن القادمة من تلك الأماكن. وينظر عادة بشذر إلى الرقص والموسيقى ماعدا رقصات الحرب.

إن أحجام الناس هنا صغيرة جداً، وعلى الرغم من وجود العبودية فإن اختلاط الدم المحلي بالزنجي لا يوجد له أثر كبير. وشعر الرجال الأسود عموماً طويل ويفرقونه من الوسط بحيث ينحدر على أكتافهم على شكل جدائل أو ضفائر. ولا ينبت للرجال شعر على وجوههم، وهم يشذبون لحاهم ولا يحلقونها أبداً؛ عدا ذلك النوع من الرجال الذين سبق وصفهم.

---

(١) المترجم الإنجليزي.

يستخدم الرجال الكحل حيث يمرون بتلك المادة السوداء فوق جفونهم وحواجبهم، ومنهم من يمد الكحل إلى أبعد من جفنيه وحاجبيه مقلدين بذلك بعض صور قدماء المصريين. أما لصبغ أظافرهم وأحياناً لحاهم فهم يستخدمون الحناء. واللباس للرجال هو ثوب من القطن وفوقه فروة أو عباءة، بينما يتكون لباس الرأس من عمامة قطنية أو كوفيه تثبت بعقال من شعر الماعز؛ أما النعال فهو أحياناً الصندل. يصل الثوب إلى الكعب وله اكمام عريضة جداً وفتحة الرقبة تصل إلى نصف الصدر، وبعضها محلى باطراف زخرفية من الخيوط البيضاء. الأزارير هنا غير معروفة. وعندما يتمزق الثوب وتكثر به الفتحات بحيث لا يعد يغطي الجسم كما يجب، يرتدي صاحبه ثوباً جديداً فوقه، وقد يخلعه ويرتدي الجديد. ونادراً ما تغسل الثياب ولهذا فهي سرعان ما تكتسب لون الصحراء. يوجد في شرق ووسط الجزيرة نوعان من العباءات: الأول العباءة ذات اللون البني الغامق المصنوعة من الخيوط الصوفية الخشنة ويتخللها خطوط عريضة بيضاء، والثانية السوداء التي يطلق عليها الحساوية وهذه تصنع من خيوط الصوف الناعمة وتزين عند الرقبة والأطراف بخيوط ذهبية أو فضية. والعباءة الحساوية غالية الثمن ولا يرتديها إلا الأغنياء. ترتدي النساء أيضاً عباءات سوداء دون أي زخرفة أو قد يضاف إليها شريط رفيع من الخيوط القرمزية. وتخفي نساء المدينة وجوههن عن الغرباء، بينما البدويات يسرن كاشفات الوجوه.

العقال المفضل لدى البدوي هو ذلك المصنوع من حبل من الصوف الأبيض المجدول. والبدوي يفضل ان يرتدي عمامته دون عقال

إلا عندما يكون الجو شديد الحرارة أو عاصفاً عندها يثبتون عمائمهم فوق رؤوسهم بالعقال، ويبقون فتحة صغيرة امام عيونهم تريهم الطريق.

لقد سبق وصف الأسلحة البدوية. عادة يتسلح كل بدوي بخنجر بالإضافة إلى بندقيته. ويطلق على الخنجر هذا اسم الجمبية في شرق الجزيرة. والخناجر المستعملة في وسط الجزيرة تصنع في حائل شمال الجزيرة.

يشكل الصيد جزءاً صغيراً فقط من طعام سكان الجزيرة، ولا يوجد حيوانات كثيرة للصيد ما عدا الغزال، وهوعادة يصطاد للتسلية، وتستخدم الصقور بكثرة في صيده. ويحصل سكان المدن على ما يحتاجونه لغذائهم وتنقلاتهم من الحيوانات من البدو إما بشرائها أو مقايضتها بمواد غذائية مثل الذرة والتمر؛ ولهذا فلا يعير سكان المدن اهتماماً كبيراً لتربية الحيوانات.

تقتصر الزراعة في الجزيرة على زراعة النخيل والقمح والشعير وإلى درجة أقل على زراعة بعض أشجار الفاكهة الاستوائية.

يحرق القش وسعف النخيل الجاف ثم يدفن رمادها بالأرض لتغذية التربة. ولا يعرفون عربات النقل هنا وإنما يستخدمون الجمال والحمير في نقل أمتعتهم وأغراضهم. وعندما ينقلون امرأة من مكان إلى آخر فهم يستعملون قفصاً من سعف النخيل يغطونه بقماش ويضعونه على أحد جانبي شداد البعير. والحمل الجميل هذا -واحياناً يكون سميناً- يوازن على الناحية الثانية من الشداد بكمية من المتاع.

الصناعة هنا بدائية حتى بالنسبة لتلك الأشياء البسيطة الضرورية لحياة الناس. ولا تستخدم الأواني الفخارية هنا كثيراً، بينما تقتصر صناعة سعف النخيل على الحصائر التي تفرش للطعام. وقد يصبغونها بالوان حمراء وزرقاء بنماذج بدائية. اما حصائر الفرش فتصنع دون ألوان. هناك بعض الأشياء الاخرى ينسجونها من سعف النخيل أيضاً مثل المراوح المستخدمة في إشعال النار والمقشات ومراوح ذات أيد قصيرة يستخدمونها في إبعاد الذباب عن الأشخاص المهمين.

يصنع في الجزيرة أيضاً السجاد البدائي الخشن ذو النقوش البسيطة. اما الأسرجة فهي ذات لون بني خالص أو بني بخطوط بيضاء. ويستخدم الجلد في صناعة الاحذية وبيوت البنادق وشدادات الجمال، ويزينون هذه احياناً بخيوط جلدية تخاط بالشداد بأشكال متعرجة.

تقتصر صناعة المعادن على إنتاج بعض الأدوات المنزلية من النحاس والقصدير، لكن ما ينتج منها لا يكفي الحاجة المحلية؛ ولذا يستوردون كفايتهم من بغداد وبومباي. لكننا نجد في بعض الأماكن المتباعدة نشاطاً صناعياً ملحوظاً، كما هو الحال في الأحساء -حيث يصنعون دلال القهوة- وحائل التي تشكل مركزاً هاماً لصناعة الخناجر واغماد السيوف.

العملة الرئيسة في شرق ووسط الجزيرة -ماعدا ربماالأحساء- هي الريال أو دولار ماريا تريزا وتبلغ قيمته روبية ونصف التي تساوي العشرة منها جنيهاً إسترلينياً. وفي الكويت والأحساء يجري التعامل

بالروبية الهندية، ولكن اي شخص يتعامل بالروبية في وسط الجزيرة يتعرض لفقد جزء كبير من قيمتها؛ حيث يقبلونها هنا بثلثي قيمتها فقط. وأقل عملة قبولاً في هذه المناطق هي العملة التركية. لكن العملة الذهبية التركية تستعمل بشكل واسع في الأحساء حيث يوجد الحكم التركي. أما في الداخل فإن الليرة الذهبية التركية تقبل على مضض؛ بينما يرفض الناس التعامل مع العملة الفضية التركية. ويتعاملون في الكويت مع النقود الهندية الصغيرة بشكل واسع وبشكل اقل مع العملة التركية.

الوضع السياسي

ينضوي شرق ووسط الجزيرة تحت أربع مناطق سياسية، وهي ثلاثة "مستقلة" والرابعة هي المتصرفية التركية بالاحساء . فبالإضافة إلى الكويت وقد اتينا على ذكرها، هناك دولتان الأولى يحكمها ابن رشيد ومركزها حائل والثانية يحكمها ابن سعود ومركزها الرياض.

إن المنطقة الجنوبية من نجد ومدينتها الرئيسية الرياض هي الدولة الوهابية الحقيقية، التي يعتبر حاكمها "الإمام" القائد الديني لكل الوهابيين. ولكن بعد أن سيطر ابن رشيد على وسط الجزيرة في أواخر القرن التاسع عشر، عاش البيت السعودي الحاكم في الرياض فترة طويلة يحوطه الغموض؛ ولكن الأوضاع تغيرت في الإحدى عشرة سنة الاخيرة.إن جهود الحاكم عبدالرحمن بن سعود وابنه عبدالعزيز كسرت شوكة ابن رشيد، ولهذا فإن الحكم الوهابي الآن يشمل المناطق التالية:

تأتي الرياض في مقدمة المناطق التي يسيطر عليها ابن سعود، كما أن هناك شقراء وبريدة وبعض الواحات الأخرى الصغيرة. في كل هذه المناطق يحتفظ الإمام بممثل رسمي؛ أمير يدير شؤون البلد، وهو إما من أهالي المنطقة أو أحياناً رجل يرسل مباشرة من قبل الإمام من الرياض. عادة يكون نفوذ الأمير محدوداً وإذا أراد أن يكون له نفوذ أكبر فيجب أن يكون تحت إمرته عدد كبير من رجال الإمام.

في بريدة بصفة خاصة يجب أن يكون لدى الأمير قوة كبيرة تساعده في إدارة المدينة نظراً لعلاقتها الوثيقة بحائل. وكما هو الحال

دائماً مع سكان الحدود فالناس في بريدة ممتعضون من الوضع في بلدهم، فعندما كانوا يتبعون حائل كانوا يتمنون ان يكونوا مع الرياض، والآن بعد أن حكمتهم الرياض أصبحوا يفضلون حائل.

تتبع عنيزة والمجمعة الإمام بطريقة غير مباشرة، فهما تعترفان بنفوذه عليهما ولكنهما تحتفظان بحكومتين مستقلتين. لقد جرى إخضاع المجمعة بالطريقة التالية : فبعد أن حاول ابن سعود مدة أربع سنوات أن يستولي على البلد ولكن دون نجاح،مما تسبب في خسائر كبيرة للطرفين، اتفقا بعد ذلك على أن يخضع أمير المجمعة للرياض مع احتفاظه باستقلاله الذاتي. اسم الأمير الحالي هو عبدالله بن عسكر.

بالإضافة إلى هؤلاء الناس وهم سكان الواحات الذين ارتبطت حياتهم بالأرض، والذين اصبحوا ينظرون إلى حكم ابن سعود كعامل يساعدهم على الاستقرار في حياتهم، فإن السكان تحت النفوذ الوهابي يوجد منهم بدو رحل ايضاً، وبعض هؤلاء البدو اعترفوا بسلطة ابن سعود. ولكن هذا الاعتراف في الواقع لم يكن شيئاً ذا قيمة؛ لأن سكان البادية يفعلون دائماً ما يحلو لهم ولا يقاتلون مع ابن سعود إلا في المعارك الساخنة مثل التي تنشب بين الرياض وبين السلطات التركية في الأحساء. إن بدو شرق الجزيرة يرون أنفسهم من رعايا الإمام ولكن ذلك يخضع لما يبدونه من تحفظات. أما عرب عتيبة الذين يعيشون بين جبل طويق والحجاز، فهم هدف غزوات الإمام التي لا تنتهي؛ لأنهم لا يتوقفون عن الغارات على القوافل وسرقتها وعن غزو الكويت، لكن هناك سبب آخر اكثر وجاهة، لغزو الإمام لعتيبة وهوان شريف مكة يدعي السيطرة عليهم.

يتنقل الحكم في آل سعود بالوراثة ويحدث ذلك بطريقة سلمية دون ان يقتل أخ آخاه أو اباه كما يحدث احياناً في بعض إمارات الخليج الفارسي الصغيرة. وتستمد العائلة قوتها من التزامها الديني الذي نشأت على اسسه من البداية إلى الوقت الحاضر، وايضاً من الشجاعة التي عرف بها أهل نجد، وأخيراً من بعض الروابط السياسية التي نشأت في المنطقة في السنوات العشرة الماضية. فقد توطدت الصداقة بين ابن سعود والشيخ مبارك حاكم الكويت، والإمام الحالي عبدالعزيز بن سعود لا يمانع في إقامة علاقات طيبة مع الإنجليز؛ على الرغم مما يبديه المتطرفون النجديون من كراهية للاوربيين.

من ناحية اخرى فإن محاولات الاتراك كسب وُدُ ابن سعود بمده بمساعدات شهرية تجد رفضاً شاملاً من كل العرب. وتمتد السيطرة التركية على مثلث في شرق الجزيرة يقطنه سكان مدنيون هو مثلث القطيف، الهفوف والعقير. وما عدا ذلك فجميع مدن وبلدان شرق الجزيرة ووسطها الصغيرة منها والكبيرة ما عدا الكويت تحوطها الأسوار الحامية.

طالما بقيت الحياة في شرق ووسط الجزيرة تسير في طريقها المرسوم، وطالما بقي الدم التركي والعربي يلطخ رمال الاحساء، وطالما بقي البدو يفرون من حرارة الرمال المميتة إلى آبار الدبدبة حاملين معهم أي مواش يجدونها في طريقهم، وطالما بقي الإمام الوهابي –لوقت لا يعلمه إلا الله– يشن حروبه ضد قبيلة عتيبة فإن العالم الذي يخشاه جماعة عبدالوهاب ويشكون فيه هذا العالم سوف يستمر سائراً في طريقه –لا يتخطاه– خارج الجزيرة العربية.

تلعب اقطار بين أوروبا والهند دوراً يزداد نفوذاً في سياسة العالم، وهذه الحقيقة مهمة حتى في أبعد نقاط النفوذ. في نفس الوقت وكما كان الوضع دائماً فإن الإمارات الصغيرة والبدو ما يزال يحارب بعضهم بعضاً من الكويت إلى عدن ومن مسقط إلى سيناء معتقدين انهم إنما يفعلون ذلك بمحض إرادتهم انتقاماً منهم لظلم وهمي أو حقيقي وقع عليهم، أو ربما للحصول على أود معيشتهم، ولا يعرفون أنهم بعملهم هذا إنما يخدمون اهدافاً سياسية لا يعونها. وهم يقبلون على حياتهم هذه غير مدركين أنهم مثل حجارة الشطرنج يحركون حسب القاعدة القديمة التي تقول فرق تسد، وعلى الرغم من انهم لا يزالون يحتفظون بحرياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل تلك المبادئ اللامعة فإن هذه المبادئ نفسها تعميهم عن حقيقة ان ايامهم كما عاشوها اصبحت معدودة.

لقد حدثت تغييرات خطيرة في شرق الجزيرة منذ عام ١٩١٢م، تغييرات قد لا تكون محسوسة للعالم الخارجي، لكنها من اعظم ما حدث منذ زمن طويل.

لم تقم البواخر الحربية البريطانية بنشاطات سياسية ملموسة على سواحل الخليج، كما لم تستخدم الحكومة البريطانية جنودها من مرتزقة الهنود للحد من التطلع للحرية من قبل أناس كانوا في يوم ما يمارسون القرصنة البحرية. بل على العكس لقد بقيت المنطقة منغلقة وأصعب على الاختراق من السابق، كما أن سلطة الزعماء الوطنيين قد تزايدت عن السابق كما يبدو للعيان. لقد تخلص شيخ الكويت من قبضة الأتراك كما ازدادت سيطرة ابن سعود على الأحساء.

وهكذا فبعد ان ذاقت هذه الدول الآن طعم القوة وبعد ان تمتعت بحريتها الغالية، واصبح لها علاقات حميمة مع قوة عظمى في ما وراء البحار تسدي لها النصيحة احياناً، واحياناً اخرى ترفق نصيحتها بعطايا وهدايا اخوية، بعد كل هذا فإن هذه الدول تسير بهدوء نحو آخر مرحلة من مراحل عمرها الا وهي ذوبانها مرة أخرى في الكيان الكبير. ومع هذا فإن هذا المجتمع سوف يؤدي رسالته في تطور الحضارة ولو على شكل الفراشة التي ترمي بنفسها في النار فتزيدها اشتعالاً.

وفي الحقيقة فإن اي سياسة لينة قادرة على إخضاع شعب ملتزم بدينه وفخور بنفسه، وتوجهه لمصالحها بأقل درجة من العنف وبدرجة من المهارة، مثل هذه السياسة يجب ان تملأ المراقب باعلى درجات الإعجاب.

أنواع الخناجر ومواطنها

(كلمة أخيرة)

يستعمل الخنجر في المناطق الساحلية من شرق الجزيرة كسلاح شخصي، وانتشاره يعتمد على شكله الذي يحدد فائدته.

والخنجر هذا سلاح تتميز به مناطق لا تجمع بينها أي صلات، فهو يوجد في سواحل المحيط الهندي، كما توجد نماذج منه في أرخبيل الهند الشرقية.

فالجنبية، وهي احد اسماء الخنجر تتكون من النصل ومن الغمد، وهنا يجب ان نؤكد شيئًا هامًا، وهو ان هذا الجراب لا يشي بشكل السلاح الذي يضمه.

إن خناجر الجنبية يكون لها في أغلب الأحيان رأسان، ويكون مسطحها عريضًا ومعقوفًا بدرجة كبيرة عند النهاية، اما المقبض، وهو مصنوع غالبًا من قرن حيوان، فياخذ شكل ساعة رملية مستطيلة؛ وفي النماذج الثمينة منه قد يحلى بنقوش من الفضة، وهذا النموذج الأخير يشتهر بزخارفه التي ترجع أصولها إلى العربية – الهندية، أو كما في بعضها الآخر إلى أشكال شرق – إفريقيا.

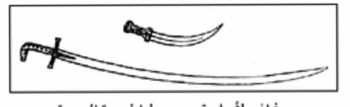
وينحني الغمد طبعًا لياخذ شكل الخنجر الذي يحتويه، ولكن انحناء الغمد يتعدى طرف الخنجر الذي بداخله حتى لكانه ياخذ الشكل **U**.

وطريقة حمل هذا السلاح غريبة حقًا، إذ تثبت الأشكال المختلفة منه في مكانين من الحزام، حيث تكون نقطة تثبيته في الحزام بعيدة عن مركز جاذبيته. وفي حمله على الطريقة العربية يكون الغمد مثبتًا بصفة دائمة في الحزام. ويتراوح طول الخنجر من ٢٥ إلى ٤٠سم، والنوع السائد منها يتراوح طوله من ٣٠ إلى ٣٥سم، أما عرضه فهو بين ٤,٥ إلى ٥,٥سم.

ينتشر الخنجر الجنبية في مناطق الهند القريبة من حيدر اباد وعلى طول ساحل مالابار إلى السند، وكذلك حول سواحل مكران وشواطئ الخليج الفارسي وعمان في جنوب الجزيرة، وكذلك في الصومال وعلى طول ساحل شرق إفريقيا إلى زنجبار. وبينما من السهل تعداد الأماكن التي تنتشر بها الجنبية فليس بالسهولة نفسها معرفة الأسباب التي جعلتها تنتشر في الأماكن التي ذكرناها، ذلك ان سلاحًا مثل الجنبية بشكلها المتميز والذي ينتشر في بلاد تختلف في بيئتها الاثنية والطبيعية مثل: الهند وجنوب الجزيرة العربية وشرق إفريقيا يعد ولا شك امرًا غير عادي.

ويعتبر المؤرخون الإنجليز والهنود ان اصل السلاح عربي، بينما يرى المستشرق الكونت لاندبيرج ان التاثير الهندي كان عاملاً فاعلاً في تطوره. وهناك افتراض ثالث هو ان الجنبية اخذت اصولها من





نماذج لأسلحة من وسط الجزيرة العربية

السلاح الشرق – إفريقي (الصومال) . ويجد المرء دعمًا لهذه النظرية ربما من حقيقة ان الإنسان يرى هذا السلاح في الصومال على شكله البدائي البسيط ودون حتى وجود الحلقات التي تثبته في الحزام .

وهكذا فإنه يمكننا الافتراض ان هذا السلاح انتقل من الصومال إلى جنوب الجزيرة العربية مع التبادل التجاري العادي الذي كان نشطاً في أزمنة سابقة، ثم اتخذ شكله الجديد المميز فيما بعد، انتقلت الجنبية بعد ذلك من جنوب الجزيرة إلى الهند، ولا نعتقد ان ذلك كان شيئًا غير عادي عندما نعرف ان التجارة كانت نشطة من اقدم الأزمنة بين الجزيرة العربية والشرق الأقصى، وللتدليل على ان الجنبية انتقلت من الجزيرة العربية إلى الهند وليس العكس اننا نجدها في الهند بينما لا نجد مثيلتها من السلاح الهندي في الجزيرة . بالإضافة إلى ذلك نجد الجنبية الهندية تخلو من الحلقات التي تثبتها في الحزام مثلما نجده في الجنبية العربية، بل نجد في الهندية بعض الزخارف على الغمد مما يعوض بشكل بدائي عن وجود الغمد .

اما عن وجود أي علاقة بين الجنبية من جهة وبين السكاكين والسهام التي ترمي بها القبائل، التي تقطن مناطق أعالي النيل وفروعه الشرقية، اعداءها فإن من الصعب تحديد ذلك نظرًا لندرة المراجع حول هذا الموضوع . وإن دراسة عن هذا الامر وغيره من تاثر الحضارات بعضها ببعض لهو من الأهمية بمكان .

إن الخنجر سلاح شخصي يحمله الإنسان في جميع أنحاء العالم معه، واستخدامه وانتشاره يختلف كلية عن أسلحة الحرب الحقيقية. إن أسلحة الحرب تنتقل من بلد إلى آخر او من امة إلى اخرى بواسطة الغزو الذي غالبًا ما يترك أثرًا حضاريًا سطحيًا، وهذا يختلف باختلاف تقبل البلاد المستباحة لثقافة الغزاة، بينما الخنجر سلاح شخصي يحمله كل أحد وخاصة ربما اولئك الذين ليسوا مدمني حروب.

وهكذا فإن انتشار الخنجر يعتمد على تواصل الناس السلمي بعضها ببعض، وهو حسب التقاليد يحمله كل رجل، وتتحكم باستعماله ايضًا تقاليد صارمة، وليس هو من أسلحة الحرب التي قد يكون تعدادها اقل في أيدي الناس، ولكنها تنتقل عند الضرورة وحسب الظروف لتصبح أداة عدوان وغزو.

إن الجنبية الموجودة في أسواق الكويت ياتي معظمها من مسقط حيث تصنع بأعداد كبيرة.

نبذة من حياة المؤلف

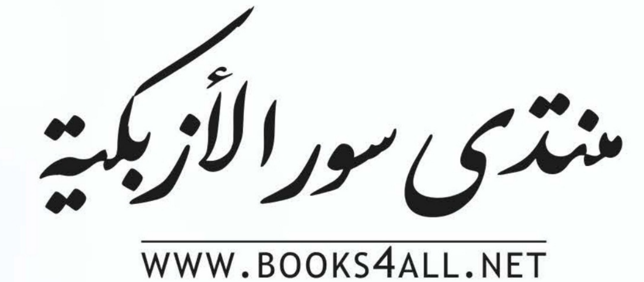
ولد عام ١٩٣٥م، ونال شهادة الثانوية من مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة عام ١٩٥٣م. وحصل على شهادة الليسانس في الادب الإنجليزي من جامعة القاهرة في عام ١٩٥٨م. عمل مفتشاً في وزارة المعارف، ثم انتقل إلى جامعة الملك سعود معيداً فيها، وحصل على دبلوم الدراسات العليا في الادب الإنجليزي من جامعة ليدز عام ١٩٦١م، كما حصل على الماجستير في الادب الإنجليزي من جامعة نبراسكا في امريكا. سجل لشهادة الدكتوراه في جامعة نيومكسيكو بامريكا إلا ان ظروفاً خاصةً اضطرته للعودة.

درّس الإنجليزية لمدة ثلاثة اعوام في جامعة الملك سعود، انتقل بعدها مترجماً للملك فيصل، ونقلت خدماته تبعاً لذلك إلى المراسم الملكية ولا يزال يعمل بالديوان الملكي نائباً لرئيس المراسم الملكية.

له كتابان آخران هما:

دروس إضافية وهي رواية صدرت في لبنان، ١٩٩٨م.

والثاني "**عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل**"، صدر عام ١٩٩٩م، وهو ترجمة لكتاب الرحالة الدانماركي باركلي رونكيير.


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET